طيران
رواية
محمد أ. جمال
المحروسة

رواية

طيـــــران

محمد أ.جمال

الطبعة الأولى 2020

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جمال، محمدأ.

طيران: رواية/ محمدأ. جمال.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2020

351 ص؛ 13.5×19.5

تدمك: 978-977-313-828-8

1- القصص العربية

أ- العنوان

813

رقم الإيداع 2020/22658

إلى إيكاروس:

أنتَ مُحقٌّ يا زَميل؛ الأَجواءُ بالأَعلى شَديدَةُ الحرارَةِ فِعلًا...

توطئة

حاوَلتُ في مُسوَّداتٍ سابِقةٍ أن أحكي ما حدث في كتابٍ واقعيٍّ تاريخيٍّ، أو حتَّى في تحقيقٍ صحفيٍّ، ولم أفلِحْ قَطُّ؛ فلا وجود لدليلٍ ماديٍّ على ما أقول.

لا أحد يتذكَّر -أو يعترف بأنه يتذكَّر- غيري. حتى المواد التي عثرتُ عليها وحاوَلتُ استخدامَها (مثل تقرير د. بيتر عن حالة المهندس علي إسماعيل، وتدوينة الكاهنة، وردود المنتديات) وجَدتُها محفوظَةً بالمصادَفة في قاع وحدة التخزين بجهاز الحاسب القديم في منزل العائلة، لكن لم يَعُدْ لها وجودٌ حقيقيٌّ على شبكة الإنترنت.

لذا؛ هذه رواية. على الغلاف الخارجي في مكانٍ ما ستجد كلمة "رواية"، مكتوبة بخطٍّ واضحٍ أنيق بالقُرب من عنوان الكتاب، سأحرص على التواصُل مع مُصمِّم الغلاف لأتأكَّد من وجودها هناك، واضِحةً صريحة.

ولأن هذه رواية؛ فأحداثها إذن خياليَّة. وبما أن هذه رواية؛ فبوسعي أن أحكي بمنتهى الأريحيَّة كلَّ ما حدث بالفعل، وما لم يحدث، وما دار في عقول الشخصيات حتى في أشَدِّ لحظاتها حميميَّةً. وإن جاء أحدكم لِيَلومَني أو ليتَّهِمَني بالكذب سأهز كتفيَّ وأَمُط شفتيَّ وأقول: إنها رواية.

حتَّى الشَّخصيَّات، أبطالُ ما اتَّفقنا على تسميتها رواية، سافَرَ منهم مَن سافر، ومات مَن مات، وسُجِنَ من سُجِن. أمَّا مَن بقي منهم، واستطعتُ الوصول إليه، فيُنكِرُ كامِلَ الإنكار ما أقوله، ويتَّهمني بالجنون. ربَّما أنا بالفعل مجنون؛ لا أظنُّ أن هناك ما يمنع أن أكون كذلك، أو ربما أنا في الحقيقة لستُ أنا. أنا شخصٌ آخر أتوهَّم كَوْني أنا. ربَّما أنا لا أعيش في هذه اللحظة، ولا في هذا المكان. ربَّما لستُ إلَّا كلماتٍ في دفتر كاتِبٍ نصفِ موهوب. لا دليلَ على كينونتي ذاتها.

ما هي الحقيقة على أيٍّ حال؟

كيف نتأكَّد أنَّ حَدَثًا ما تحكيه لنا كُتُبُ التاريخ المهترِئَة قد وقع بالفعل؟ ما الذي يَمنَعُ كَذِبَ كاتِبِها أو تَوَهُّمَه؟

من دون دليل مادي، لا شيء أكيد، وحتى الدلائل المادية لا تحكي حقائق. وجود الأهرامات -مثلًا- دليلٌ مادِّيٌّ ملموس

على أنَّ هناك مَن بناها، وربما بشيء من العلم الحديث نُحدِّد تاريخ بنائها بِدقَّة مَعقولة، لكن ذلك ليس دليلًا على مَن بناها، ولا كيف بناها، أو لماذا. إنّما التاريخ، ما سجّلَته الكتاباتُ على الوثائق والجدران، ليس إلّا حكايات، حكايات مُكوَّنة من كلمات، والكلمات ليست إلّا دليلًا على أن هناك مَن كتبها أو قالها، لكنها لا تحمل أيَّ ضمانَةٍ على هُويَّته وصِدقِه. الكلمات تحمل وعودًا فقط. والوعود خُلِقَت لتُخلَف.

ماذا عن الذكريات؟ هل وجود ذكرى وقوع حَدَثٍ مُعيَّنٍ يُعَدُّ دليلًا كافيًا على وقوعه؟ على الأقل لحاملها؟

لو كان الأمر كذلك، فأنا لديَّ دليل قاطع -لا غبار عليه- على أن كل تلك الأحداث التي شَهِدَتها الإسكندرية، بدءًا من خريف 2005، وخلال الأعوام التالية، قد وَقَعَت بالفعل؛ فأنا أتذكَّر كل شيء بوضوح تام، كأن ما حدث كان بالأمس فقط.

لكن حتى الذكريات ليست دليلًا. الذاكرة ليست إلّا عجوزًا مُتردِّدًا يَسهُلُ التَّلاعُبُ به. بقليل من الإصرار يمكنك أن تُقنِعَ زَوجتَكَ بأنَّكما قد خرجتما معًا في الإجازة السابقة. ستتَّهِمكَ بالجنون مرَّة، وتَسبُّك مَرَّة، وتسأل نفسها إن كان هذا قد حدث بالفعل مَرَّةً، ثم ستتذكَّر لقطاتٍ شبحيَّةً لذلك اليوم، وتفاصيلَ من نوعية "أين تناولتما العشاء، وكيف كان الطعام رائعًا".

لا تفعل هذا أرجوك؛ أنا فقط أضرب مثالًا. إن فشلت فعاقبة فِعْلِكَ ستكون وخيمةً.

على أيِّ حالٍ، أظنُّني الوحيد الذي يذكر ما حدث في الإسكندرية.

كلَّما حاوَلتُ الحديث عن هذه الأيام مع آخرين، أجد نظراتٍ خاويةً، مُتسائِلَةً، وكأنَّني أتحدَّث عن وحش البحيرة أو الأرض المسطَّحة. يسألونني ماذا تعني؟ هل أنت بخير؟ ربما أصابتكَ حمّى؟ أم أنت ببساطة أحمق؟ ما يزيدني غيظًا على غيظٍ هو أنني لم أَعِشْ تلك الأيام وحيدًا، ولم تَدُر الأحداثُ في الخفاء. لم أكُن حتى مجرَّد مُشاهد سلبيٍّ، كُنَّا جميعًا فاعلين، كُنَّا جميعًا في قلب الحدث مهما كانت أدوارنا هامشيَّةً بسيطة. كُنَّا نطير. حسبتُ أنَّ مَن جَرَّب الطيران يومًا لن ينسى أنه فعل أبدًا.

لا أعرف إن كانوا ناسين بالفعل أو مُتناسين! أحيانًا أشعر بأن الكل اجتمعوا في لحظةٍ ما، واتَّفقوا اتِّفاقًا نهائيًّا لا رَجعةَ فيه أنَّ شيئًا لم يحدث، وأن أحدًا لن يذكر شيئًا. لا بُدَّ من أنني كنتُ في الحمَّام وقتَها كما قال الزعيم ذات مرة. حتى الإعلاميون، أولئك الذين كانوا يزأرون ليلًا ونهارًا، ليس لديهم حديث إلَّا عن الإسكندرية وما يحدث في الإسكندرية. كاميراتهم مَلأَت شوارعنا، وأصواتُهم غُرَفَ بيوتنا، حتى أولئك لا يذكرون حرفًا عمَّا كان، وكأنه لم يكن.

ربما إن شاركتموني السِّرَّ الذي جعلكم جميعًا مُتَّفقين على الصمت والنسيان، ربما عندها أصمت معكم وأنسى، ربما

أتوقّف عن التحديق من نافذتي المفتوحة ليلًا، وأغلقها، وأخلُدُ لنومٍ لم أَعُدْ أعرف الطريق إليه. لكنّ أحدًا لا يخبرني شيئًا، تتّهمونني بالحماقة عندما أذكر ما كان، وتُغيِّرون الموضوع فورًا إلى أي شيء آخر: أرأيتَ المخرجَ الذي نام مع مُمثِّلَة؟ أسَمِعتَ عن لاعب الكرة الذي لا يعرف لعب الكرة؟

حتى آلاف الصور ومقاطع الفيديو التي التُقِطَت في تلك الأيام، لم يَعُدْ عندي أيٌّ منها؛ مسحتها كُلَّها في لحظة إحباط بعدما انتهى كلُّ شيء، ولا أجد منها شيئًا عندي أو عند معارفي، وبالطَّبع لا سبيل لتلك التي أعلم يقينًا أنها موجودة في خزائن المؤسسات الإعلامية.

ولأني لم يَعُدْ بوسعي الصمت، صار لزامًا عليَّ أن أحكي كي لا أموت كمدًا، أحكي عن كل شيء، كل ما أذكره، كل ما عِشتُه بنفسي ورأيته بِأُمِّ عيني، وكل ما عرفته وقتها من حكايات شهود عيان موثوقين، وغير موثوقين، وكل حكاية تناوَلَتها الألسِنَةُ على مقهى أو قارعة طريق، كل شائعة، وكل فكرة، كل ما أجده بين ثنايا عقلي يَمُتُّ لتلك الأيام بِصِلَة.

لا أظنُّ أنَّ كُلَّ هذا الحَكِي سيعني شيئًا، لن يُعيدَ الذكرى إلى من لفظها، ولن يعيد إليَّ احترامًا فقدته. لا أظنُّ أن لكلماتي التالية أي فائدة، لكن دعوني أخرجها من معدتي الممتلئة بها، عسى أن أتمكَّن من التنفُّس مرَّةً أخرى.

والآن، وقد وضعتُ على الغلاف كلمة "رواية"، صار بوسعي أن أحكي الواقع بأريحية الخيال، بل حتى أستطيع أن أتملَّصَ

من كل ما قلتُ في هذه التوطئة في أي وقت، تحت ادِّعاء أنها ليست إلا لُعبَةً مُتَحذلِقَةً من مؤلِّفٍ محدودِ الموهبة لتأطير حكاية متوسِّطَة الجودة في إطارٍ أنيق، يجعل وَقْعَها أخفَّ على قارئ ذي كبرياء.

أمَّا إن كنتَ مثلي، تذكَّر ما أذكره؛ فعلى الأقل ستعلم أنك لستَ وحدَك.

محمد أ. جمال

الجُزءُ الأَوَّل

أَوَّلُ أَيَّامِ الطَّيَران

1

ما حَدَثَ كان كالتَّالي...

1.1

كان الفتى يجري، وكان خائفًا.

وكان ذلك في الثلاثاء، الموافق السابع والعشرين من سبتمبر، عام 2005.

طيِّب، دعنا نضع الأمور في نِصَابها، ليس الأمر بالخطورة التي تبدو عليها الجملة الافتتاحية. سيكون هناك عدد من الفتية الذين يجرون خائفين في مواقف خطيرة حقًّا، لكن هذا

سيكون لاحقًا. السياق هنا أقل خطورة، والحقيقة أن الحدث في غاية اللا- أهمية، وربما لم يكن ليصبح جديرًا بالذِّكر لولا نهايته التي ستقع فيها أول حالة طيران مُوثَّقة في البلاد.

كما كُنَّا نقول: كان الفتى يجري، وكان خائفًا.

كان من المفترض أن يكون الأمرُ كُلُّه مُزحَة، مَقلبًا آمِنًا. طلب منه الأستاذ حافظ، مدرس الإلكترونيات، أن يفتعل محاولةَ هروب من سور المدرسة الجنوبي، ويتلكَّأ فيها ليلاحظه "إسماعيل جرَّاية"، فيجري خلفه، وعليه أن يستفزَّه، ويجري منه في قلب ساحة المدرسة؛ ليتمكَّن الأستاذ سيد، وكيل مدرسة السلام الثانوية الصناعية، من تصوير المطارَدَة بهاتفه الحديث المزوَّد بكاميرا (نوكيا 6600).

"متخافش، جرَّاية مش حيلحقك، مش شايف كرشه بقى عامل ازاي؟ ده بقى عنده 45 سنة ومفيهوش نَفَس. ولَو مسكك، أنا حخلَّصك من إيده".

ووعده -على سبيل المكافأة- بالسماح له بالخروج مبكرًا هذا اليوم من المدرسة، في مقابل أن تكون مطارَدَةً مُذِلَّةً لإسماعيل جرَّاية. قابل الفتى العرض بابتسامة نصف ساخرة، فهو متمرِّس في فنِّ التزويغ، ولا يحتاج إلى مساعدة رسمية ليخرج من المدرسة عندما يُحبُّ. ربما هو لا يحتاج عادةً إلى مكافأةٍ تُحفِّزُه، لكن أن تتاح له فرصة لإهانة واحد من طاقم التدريس، حتى لو كان مُدرِّسَ التربية الرياضية عديم الأهمية،

في حدثٍ كبير أمام عيون الجميع؛ فهذا أمر سيضمن له شعبيَّةً طويلة الأَمَدِ بين زملائه. وافق على الفور.

في العاشرة والنصف صباحًا، كان الفتى وعَدَدٌ من زملائه يتسكَّعون حول السور في انتظار ظهور إسماعيل جرَّاية، وعندما لم يفعل تطوَّع الأستاذ حافظ وذهب بنفسه ليستدعي مدرس الألعاب من غرفة التربية الرياضية، وعلى مَضَضٍ قام معه إسماعيل حاملًا سلاحه/ عصاه الطويلة.

قبل سنواتٍ، عندما عُيِّنَ لأول مرة في المدرسة، كان يأخذ مسؤوليته عن حراسة الجزء المتهدِّم من السور الجنوبي بجدِّيَّةٍ شديدة: "لن يمرُّوا"، هكذا كان شعاره. لم يكن فقط يمنعهم من المرور، وإنما كان يتأكَّد من أن ينال كلٌّ منهم عقابه، فكان يجري مطارِدًا مَن يلمحه يحاول "التزويغ" حتى يلقي القبض عليه ويقدِّمه قربانًا إلى السيد مدير المدرسة، سواء كان ذلك في الشارع خارج المدرسة في حالة هرب الطالب بالفعل، أو في ممرَّاتها الداخلية في حالة فشل أن يفعل. كان يجري خلف الواحد منهم لفترات طويلة حتى تنقطع أنفاس الطَّلَبَة ولا ينقطع نفس إسماعيل، ومن هنا جاء لقب "جرَّاية"، مُزحَة ساخرة تَناقَلها الطَّلَبَةُ والمدرِّسون خلف ظهره في البداية، ثم رُتبَة مَدنيَّة تشريفية فيما بعد عندما بدأ حضرة الناظر في مناداته به.

لكن هذا الحماس لم يَدُمْ طويلًا، سرعان ما أدرك أن الطلبة لن يتوقَّفوا عن محاولات الهروب مهما فعل، حتى وإن حَمَت

أسوارَ المدرسة كتائِبُ جيوشٍ أو روبوتات تطلق الليزر من عيونها؛ سيحفر الطلبة خنادق، أو يصنعون طائرات بدائية الصنع، أو يدرسون فنون القتال الآسيوية- سيفعلون أيَّ شيء حتى لا يكملوا اليوم الدراسي إلى آخره، وإدارة المدرسة نفسها لا تهتم، بدليل السور المتهدِّم الذي لم يحاول أحدهم إصلاحه قَطُّ.

لم يَعُدْ إسماعيل جرَّاية يهتم، ولم يَعُد يجري، ولكن الألقاب تلتصق.

وفي ذلك اليوم كان الفتى يجري، ولما رآه إسماعيل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، لكن حافظ لم يَدَعْ له فرصةً، "الواد بيجري يا إسماعيل، ينفع العيال تجري كده في الحوش وأنت المشرف؟ والله عيب، والله عيب".

نظر إلى مدرس الإلكترونيات حانقًا، بحث عن سبب يُعلِّل به تركه الفتى يهرب، لكنه وجد الجريَ أسهل من التفكير، فجرى.

الفتى كان قصيرًا، نحيلًا، خفيفًا كالقرد، وإسماعيل لم يكن أيًّا من هذه الأشياء؛ كان طويلًا، ثقيلًا، يرتدي واحدًا من قمصانه المُشجَّرة، وبنطاله القماشي الأسود الوحيد الذي مَرَّ تحت ماكينة الرَّفَّا عشرات المرَّات.

ركض بحذَرٍ حتى لا يتمزَّق البنطال مرة أخرى، ومن حين إلى آخر لوَّح بعصاه مهدِّدًا الفتى بعقاب مُبرح.

حتى هذه اللحظة لم يكن الفتى خائفًا، بل سعيدًا، واعيًا بالعيون التي تراقبه من شرفات المدرسة ونوافذها، وكاميرا هاتف الأستاذ سيد الوكيل؛ كان نجمًا متألِّقًا، أمَّا مدرس الألعاب، فكان يلهث. أكثر من مرة كان يبطئ من سرعة مطاردته ليلتقط أنفاسه ويعطي للفتى فرصة الهروب، عسى أن ينتهي هذا المشهد المهين بالكامل، لكن الوغد الصغير كان يهدأ بدوره معطيًا لمُطارِدِه فرصةً لا يريدها، لكن يأخذها مُرغَمًا.

استمرَّت المطاردة دقائق ثقيلة على رئة المدرس الكهل، وعندما وقف أخيرًا في أحد أركان المدرسة ليلتقط أنفاسه ويفكر في طريقة لإنهاء الموقف بأقل قدر من الإهانة، بدرت منه التفاتة للجمهور الذي يراقبه من كثب، وميَّز فيهم الأستاذ حافظ يميل على الأستاذ سيد ذي الهاتف الفخم، ويقول شيئًا لم يميِّزه مشيرًا إليه، ليضحكا والمحيطين بهما. ثم كانت صدمته الكبرى عندما أدرك أن بين الضاحكين حضرة الناظر نفسه. عندها فهم إسماعيل جرَّاية ما يحدث.

عندما حانت من الفتى الذي كان يجري بغرور أرنب يتسابق مع سلحفاة، استدارَة للخلف، ورأى ملامح وجه المدرس، أدرك أن الرجل كان مغتاظًا بحقٍّ، وعرف أن المقلب بحاجة إلى أن ينتهي.

نظر إلى الأستاذ حافظ راجيًا إيَّاه أن يتدخَّل، لكن هذا الأخير كان غارقًا في المزاح مع الأستاذ سيد الوكيل. أما مدرس

التربيـة الرياضيـة، فألقـى عصـاه عـلى الأرض، وبـدأ يمـشي في بـطء ناحيتـه.

ربمـا لا يقـدر عـلى معاقبـة الأسـتاذ حافـظ أو سـيد الوكيـل عـلى السـخرية منـه، لكنـه بوسـعه، بالتأكيـد، جعـل هـذا الفتـى عـبرة للجميـع.

"حقـك عليـا يـا أسـتاذ إسـماعيل، والله أسـتاذ حافـظ هـو الـلي...".

وعندمـا لم يَبْـدُ عـلى إسـماعيل جرّايـة أي تأثُّـر بكلماتـه، جـرى الفتـى مـرة أخـرى خائفًـا.

وفي إثـره انطلـق مـدرس الألعـاب الـذي لم يأبـه بتمـزُّق بنطالـه مـن الخلـف مـع الجـري السريـع المفاجـئ. سـيقبض عـلى الوغـد الصغـير، ويُلقِّنـه درسًـا لـن ينسـاه، حتـى لـو كان هـذا آخِـرَ شيءٍ يفعلـه في حياتـه.

مـع اشـتعال المطـاردة انطلقـت صيحـات الطلبـة المتحمِّسـين، وراهـن المدرسـون عـلى الكيفيـة التـي ستنتهي بهـا المطـاردة. ورفـع وكيـل المدرسـة هاتفـه عاليًـا ليحصـل عـلى زاويـة تصويـر أفضـل، ونظـر حولـه باحثًـا عـن العيـون التـي لا بُـدَّ مـن أنهـا تراقبـه وهاتفـه الجديـد في إعجـاب.

كاد جرّايـة يمسـك بفريسـته؛ شـعر هـذا الأخـير بأصابـع مطـارِدِه الغليظـة تمـسُّ أطـراف شـعره، تـكاد تقبـض عـلى رأسـه أكـثر مـن مـرة، سـمع لهاثـه المتتابـع المختلـط بزمجـرات الغضـب؛ زاد مـن

سرعة هروبه، عرف أن المطاردة لن تنتهي لصالحه إذا استمرَّت أكثر من ذلك؛ عليه أن يُنهِيَها بشكل آخر.

انحرف الفتى نحو ملعب الكرة، وخلفه جراية؛ جرى تجاه المرمى الخشبي المُرتَجَل من بقايا مَقاعِدَ دراسيَّةٍ قديمة، الذي يكفي لتهشيمه تصويبةُ كُرةٍ أصابت القائم، أو ركلةُ فتى خبيثٍ يجري من مدرِّس ألعابٍ كَهلٍ، مثل تلك التي ركلها الفتى بعد لحظةِ تَرَوٍّ تسمح لإسماعيل بالاقتراب، ليتحوَّل المرمى فورًا إلى كومة من القمامة الخشبية؛ لا تبعد عنها الجرَّاية المندفعة أكثر من نصف المتر.

أدرك إسماعيل متأخِّرًا ما سيحدث بعد نصف ثانية؛ سيتعثَّر في كومة الخردة، ستتحطَّم عظامه وكرامته وسط الأخشاب والمسامير الصدئة، وسيهرب الوغد الصغير.

في محاولة يائسة، من دون معنى سوى إرضاء نفسه بأنه على الأقل حاول تفادي الإهانة المُذِلَّة، قفز إسماعيل جرَّاية.

وكانت هذه المرة الأخيرة التي سنطلق عليه فيها هذا الاسم؛ لأنه لم يَعُدْ بعدها كذلك.

تابع الفتى الجريَ لأمتارٍ مائةٍ أخرى، ثم توقَّف، انحنى مستندًا إلى ركبتيه ملتقطًا أنفاسه، حسب شهقات المتابعين وصرخاتهم المتوتِّرة ناتجة عن تَعثُّر مدرس التربية الرياضية وسقوطه المُهين، لم يكن فخورًا بانتصاره غير العادل، لكنها كانت حركةً ضرورية لإنهاء هذه المطاردة. عندما نظر خلفه ليرى ما حدث، لم يكن إسماعيل هناك، وإنما كان بالأعلى، هبط

عليه من فوق وأمسكه من رقبته. منذ هذه اللحظة صار اسم مدرس التربية الرياضية "إسماعيل طيَّارة".

كانت هذه أول حالة طيران مُسجَّلة، لكنها لم تَكُن الأولى.

1.2

أوَّلُ مَن طار كان وليد مصطفى، وكان نائمًا.

كان ذلك قبل أربع ساعات من طيران مدرس التربية الرياضية.

اعتادت السيدة سهير إيقاظَ ابنها وليد بنفسها يوميًّا في موعد المدرسة، رغم علمها بأنه لن يتكاسل إن لم تفعل؛ الفتى مُهذَّب، ولديه حِسٌّ بالمسؤولية غير موجود عند غالبية أقرانه؛ ما يثير حسد الجيران.

هذا الحسد بالذات هو ما يقلقها؛ لذا تُفضِّل أن توقظه بنفسها كلَّ يوم مُردِّدَةً كُلَّ الأدعية والآيات القرآنية الطَّارِدَة للحسد والشياطين التي تعرفها، مُستَحضِرَةً الملائكة والبَرَكة.

لكن في هذا اليوم بالذات لا مكان للملائكة، فقد سبقتهم الشياطين التي استيقظت مُبكِّرًا على ما يبدو، وتلبَّست ابنها منذ الصباح الباكر، أو هكذا حسبَت عندما أشعلت ضوء الغرفة

لترى وليد يطفو في الهواء فوق السرير مثل برميل خشبي في البحر يلامس طرفُ أنفه طِلاءَ السَّقف المُتشقِّق.

لم تُصدِّق ما رأته لأول وهلة؛ لذلك تأخَّرَت الصرخةُ لثوانٍ؛ ظلَّت في محلِّها ثابِتَةً كتمثال، حتى إصبعها ظلَّ ضاغطًا على مفتاح الإضاءة، لكن عندما رأت وليد يتقلَّب كما يفعل في نومه، فقط هذه المرة كان يتقلَّب نائمًا في الهواء. صرخت أم وليد.

لا تَدبُّ الحياة في شارع "محمود مرسي" الضيِّق، المتفرِّع من شارع الثلاثين في حي العصافرة القبلية- قبل الظهر في غالبية الأحوال. بعد الظهيرة تُفتَح المحلات الكثيرة التي تكاد تتشارَكُ المساحةَ ذاتها، وكذا يفعل المقهى الوحيد في قلب الشارع، ويعود الأطفال من المدارس لتصبح الضَّجَّةُ في أعلى مُعدَّلاتها. لكن في السابعة صباحًا يُخيِّم على الشارع -عادَةً- صمتُ القبور؛ لذا كانت صرخة السيدة سهير على مَن سمعها كنفير بوق البعث.

على إثرها استيقظ سُكَّان الشارع كلهم. أوَّلهم -بطبيعة الحال- الأب، السيد محمد مصطفى، الرجل الملتزم الخلوق صاحب محل الأدوات الكهربية. ولأنه يعلم أن امرأةً مُلتزِمَةً محترمة مثل زوجته لا يرتفع صوتها عادة؛ عرف أن أمرًا جَلَلًا قد حدث: حريق يلتهم البيت مثلًا، أو ربما زلزال. من الأفضل أن يكون الأمر كذلك، وإلَّا سيجعل يومها ألعن من الحريق أو الزلزال لارتفاع صوتها هذا.

على إثر الصرخة أيضًا استيقظ وليد لِيَجِدَ أُمَّه تصرخ، لم يفهم لماذا إلّا عندما دار برأسه مستطلعًا ما يحدث، فرأى السرير بعيدًا، في الأسفل، وأدرك أنه مُعلَّقٌ في الهواء، وشارَكَتْ صرخَتُه صرخةَ أمِّه.

بفانلة داخلية مثقوبة فوق لباسٍ واسع أبيض يميل للصَّفار، وكرش عظيم يتدلَّى بينهما، اقتحم الأبُ الغرفةَ بشجاعةٍ أَخيلِيَّة.

"عفاريييييييت، عفاريييييييت يا ابو وليد، ابنك لِبْسِته العفاريييييييت".

"سلامٌ قولًا من ربٍّ رحيم".

رغم اقتباسه القرآني الذي يستدعي السلامَ والرَّحمَة، فإن فعله تجاه ابنه الطائر لم يتضمَّن أيًّا منهما. يعرف الجميع بالطَّبع العلاجَ الأمثل للمَسِّ الشيطاني.

بِخفَّةٍ لا تتناسب مع الكرش، اعتلى الرجل سرير ابنه بقفزة واحدة، ولوَّح بيديه عاليًا محاولًا الإمساك بالفتى الطائر؛ نجح في الوصول إلى طرف ملابسه، شَدَّه وألقاه على السرير، وانهال عليه صفعًا ولكمًا وركلًا وسبابًا لكل عفاريت الكون الذين اختاروا وليده هو بالذات ليسكنوه. الزوجة أيضًا شارَكَت في عملية طرد الأرواح الشريرة بترديدها مزيدًا من الأدعية والآيات القرآنية القليلة التي تعرفها، وأنهار من الدموع، ولم يُلقِ أيُّهما بالًا لطَرَقات الجيران الفضولية على الباب.

"خلاص، خلاص يا بابا والله، مفيش عفاريت.. العفاريت مشيوا.. والله ما فيه عفاريت".

توقَّفت يد الأب في الهواء مُتردِّدَة قبل أن تهبط بالصفعة التالية؛ لا يعرف إن كان المتحدث ابنه بالفعل أم أن العفاريت يكذبون. لكن الأم الطيبة كانت حاضِرَةَ الذهن كالعادة.

"قول الشهادة يا وله؛ العفاريت كُفَّار ميقدروش ينطقوها".

نطق وليد بالشهادتين؛ هَلَّل الأب وكبَّرت الأم، احتضن الرَّجُلُ وليدَه، ورَبتَ على ظهره بقوَّةٍ لا تَقلُّ عن قوة ضرباته السابقة. بعد الحضن، نظر إلى ابنه مَليًّا مُفكِّرًا في السبب الذي جعل العفاريت يدخلون بيته ويتلبَّسون ابنه؛ بسرعةٍ اهتدى للسبب.

صفعه مرة أخرى.

"قلت لك يا ابن الكلب ما تنامش على بطنك؛ الشياطين بتعمل فيك حاجات وحشة".

1.3

المَشيُ كان صعبًا بحذاء المناسبات عالي الكعب وسط هذا الزحام؛ تَعَثَّرَت مدام غادة، وكادت تسقط أكثر من مرَّة لولا أشرف الذي ساعدها، تَذكَّرَت في غيظٍ كلمات ابنتها الساخرة بينما كانت تتجهَّز للنزول.

"يـا مامـا انتـي مذيعـة أخبـار؛ إيـه الـلي يخلّيـكي تلبـسي سـواريه!".

"يا ماما الشُوز مش حيبان في الكاميرا؛ بتتعبي نفسك ليه!".

"يا ماما محدِّش بيتفرَّج ع القناة الخامسة أصلًا".

بنـت قليلـة الأدب. مُراهِقَـة حمقـاء تحسـب نفسـها تفهـم كُلَّ شيء عـن الحيـاة، مـاذا تعـرف هـي عـن المهنيَّـة الصحفيـة؟ مـاذا تعـرف عـن جمهـور القنـاة الخامسـة العريـق؟ تَرَبَّـت عـلى رفاهيـة الأقـمار الصناعيـة ذات الأخبـار البلاستيكية الخاليـة مـن حميميَّـة التليفزيـون المحـلي التـي لا تُعـوَّض. لا تعـرف حتـى العَنـاء الـذي تكبَّدَتـه أُمُّهـا لتخـرج وتغطِّـي مـا يحـدث الآن.

مصادفـةً عرفـت عـن انسـداد طريـق الكورنيـش ناحيـة فنـدق "سـان سـتيفانو"، والسـبب؟ فتـاةٌ مـا تقـف عـلى السـطح وتُهـدِّد بالانتحـار، والنـاس مُتَجمهِـرون بالأسـفل.

مـدام غـادة مذيعـة قديمـة ذات خـبرة لا مثيـل لهـا في طاقـم القنـاة الخامسـة، يخطـر لهـا مـا لا يخطـر عـادةً عـلى بـال العاديـن، حتـى إن لم يعـرف الآخـرون قيمَتَهـا، فهـي تعـرف قيمـةَ نفسـها جيِّـدًا. قـرَّرَت أن تخـرج فـورًا لتقديـم تقريـر خارجـي مـن موقـع الحـدث عـن تلـك الفتـاة، طَلَبَـت مـن إدارة القنـاة توفـيرَ سـيارة ومصـوِّر خارجـي، وهـو مـا رفضتـه الإدارة طبعًـا لأنهـم رجعيُّـون تقليديُّـون، ليـس منهـم مَـن يحمـل خـبرة مـدام غـادة ورؤيتهـا المابَعديَّـة، لكنهـا أصرَّت.

رأت نفسها في تقرير خارجي في الهواء الطلق، وشعرها الذي يلتمع بشقرةٍ صناعيَّةٍ تحت شمس حانية، ربما تتطاير منه بضع خصلات مع هواء الخريف. تبدو هذه أيضًا فرصة عظيمة لارتداء الحذاء الجديد الذي لم يُتَح لها ارتداؤه سوى في مناسبة عائلية سخيفة؛ لم يستحق حاضروها أن ترتدي لهم حذاءً فاخرًا كهذا. سيبدو الحذاء في الكاميرا رائعًا، لامعًا. ستتحدَّث باحترافية مذيعي الفضائيات، لكن بحميميَّة التليفزيون المحلي. سيذيب الحِذاءُ قلوبَ مَن يشاهدونه، ستصير مَحَطَّ الأنظار، وسيتحدَّث الجميع لسنوات عن تقريرها الإخباري الاستثنائي هذا اليوم.

بصعوبة استطاعت الحصول على ثلاث دقائق في نشرة أخبار الخامسة. بدلًا من تقرير الغِشِّ في سوق الخضار الذي سيُؤَجَّل عرضه للغد، بعدما فشلت محاولاتها في الحصول على بَثٍّ مباشر. لكنهم رفضوا أن يُوفِّروا لها مُصوِّرًا وسيارة، "مفيش موارد يا أستاذة غادة، وانتِ سِتّ العارفين".

طبعًا هي ست العارفين. بعد بحث طويل في دفاتر قديمة وجدت غايتها: رقم تليفون أشرف محمود، مُصوِّر سابق في القناة. كان شابًّا طموحًا، لكنه يَئِسَ من الوصول إلى أيِّ تَطوُّرٍ حقيقي في هذا المكان، أخذ إجازة طويلة دون مرتب، وفتح ستوديو تصوير أفراح في ڤيكتوريا بالقرب من خط السكة الحديدية. كانت ساعدته في جلب أول زبائنه من أقاربها في الشهور الأولى من افتتاح الاستوديو؛ لها عنده "معروف"، وستطالب به.

تَردَّد أشرف في الموافقة، لكنَّ الخَواءَ الذي يعاني منه الاستوديو في هذه الأيام كان حافزًا كافيًا. لا تَكثُرُ الأفراح في موسم بداية الدراسة، وهو لم يحمل كاميرا في الهواء الطلق منذ... لا يذكر منذ متى بالضبط، ثم إن "الست غادة جدعة، دماغها خربانة شويّة بس جدعة".

"لو سمحت.. لو سمحتم.. ممكن توسَّعوا شوية؟ إحنا تليفزيون على فكرة".

لم يَعُدْ هناك مَن لديه شيء من اللياقة؛ كيف لا يفسحون الطريق لامرأة جميلة أنيقة مثلها؟ كيف لا يفسحون الطريق للتليفزيون؟ ما المثير لهذه الدرجة في فتاةٍ حمقاءَ في فستان أبيض جالسة على طرف سور سطح الفندق؟ صار الناسُ عديمي التمييز في هذه الأيام. الشمس أكثرَ حَرارةً ممَّا تَخيَّلَت، والحذاء مُؤلِم. هل سيظهر العَرَقُ على جبينها في الكاميرا؟

"لا مؤاخذة يا رجَّالة معلش! خطوة كده بس عشان نصوّر. لا مؤاخذة يا مزمازيل! حركة يمين والنبي عشان ناخد اللقطة".

كان أشرف يحمل الميكروفون والكاميرا وحقيبة مدام غادة. رغم الازدحام، فإن شيئًا من الحماس تَملَّكه؛ رؤية الفتاة تجلس على السطح جعلته يفكِّر في أنه ربما ستُتاح له للمرة الأولى فرصة تصوير حَدَثٍ صحفيٍّ حقيقي، ربما ستلتقط كاميراه شيئًا ذا قيمة أخيرًا.

"أُقفي هنا يا مدام غادة، أيوه هنا... خُدي المايك بقى وشوفي حتقولي إيه"، "الشوز باين عندك في الكادر؟"، "شوز إيه

بس يا مدام، البت حتموّت نفسها... نركّز شوية الله يكرمك"، "ارجع لِوَرَا يا أشرف لو سمحت، خُد كادر واسع والشوز لازم يبان" تراجَعَ أشرف.

"متنطّيش يا رشا"، "نُطّي يا رشا، واتشقلبي في الهوا"، "بس يا ابني حرام عليك". هتافات عشوائية من المُتجمهِرين. اسمها رشا إذًا؟ كيف عرف هؤلاء؟ لا يهم، المهمُّ أن يكون منتبهًا عندما تفعلها، عليه أن يكون سريعَ البديهة بما يكفي ليأخذ اللقطة كاملة، واضحة. درس التصوير الرياضي من قبل في دورة تدريبية لتصوير مباريات الكرة، وتمرَّن على متابعة الكرة في الهواء بسرعة، عمل لفترة في تصوير مباريات الاتحاد السكندري، لن يكون من الصعب فِعْلُ المثل مع الفتاة. ولكن... هل هو بالفعل يرغب في رؤيتها تنتحر؟ هذا شيء مُنحَطٌّ، لا يجب أن يتمنَّى مَوتَ فتاةٍ لينال لقطة، استغفَرَ رَبَّه ودعاه ألَّا تقفز الفتاة، بإخلاص غير كامل.

"أعزَّائي السادة المشاهدين، نحن اليوم نشهد لحظة مأساوية للغاية، حزينة للغاية... ما الذي يجعل شابَّةً في عمر الزهور تُلقي بنفسها في التهلكة؟ هي لا تدري أنها هكذا تُسبِّب حزنًا ومأساةً لأهلَها؟ لا تعرف أنَّ أمها أكيد تبكي عليها الآن؟ لماذا تفعل هكذا بنفسها وبأهلها الذين يوفِّرون لها كل حب ورعاية، وينفقون عليها كسيرًا، من تعليم وملابس فاخرة، مثل ذلك الفستان الأبيض اللطيف الذي تلبسه الآن، وإن كان قصير شويّة، .... أشرف؟ يا أشرف؟ إنت بتعمل؛ إيه ركّز معايا هنا... يا أشرااااف؟".

لكن أشرف لم يسمعها؛ غريزة المُصوِّر كانت المُتحكِّمَة الآن. عدسة كاميرته مُصوَّبة تجاه رشا التي تَخلَّت عن جلستها أخيرًا على السُّور ووقفت. للأسف لم تكن العدسة ذات طول بُؤريٍّ يكفي للتقريب والحصول على صورة أوضح، فضلًا عن رؤية وجهها؛ سيفعل ما بوسعه بالمتاح.

فستان رشا الأبيض كان يرفرف مثل شعرها الأسود مع الهواء. بَدَت ثابتةً في وقفتها، وكأنها في لحظة عادية من حياة يوميَّةٍ مُملَّةٍ، وليس بينها وبين الموت خطوة. بَدَت جميلةً، مليئةً بالحياة. انتصبت الشُّعَيرات على ساعِدَيْه؛ تمنَّى ألَّا تقفز.

فتَحَت ذراعيها على أقصى اتساع، قفزت بحركة انسيابية توقَّفت معها قلوب الحاضرين عن النبض. لا حركة سوى حركة كاميرا أشرف الغريزية التي تتابعها، ولا صوت سوى صوت مدام غادة -التي لم تلاحظ قفزة المنتحرة- تعترض على تجاهُل أشرف لها.

في البقعة التي من المفترض أن تصطدم فيها بالأرض، تراجع المتجمِّعون من دون وعي مفسحين لها مساحة للسقوط؛ لا أحد يرغب في أن يتلقَّاها في حِضنه!

هبوطها المباغت أزعج طائر نورس كان يسترخي على إفريز أحد الشرفات؛ نعق معترضًا وطار مبتعدًا.

رغم أن هذا لم يظهر في الكاميرا، فإن بعض الحاضرين سيقسمون لاحقًا أنهم رأوا بوضوح عينيها تنفتحان عندما صار بينها وبين الأرض أقل من عشرة أمتار، رأوا فيها نظرة من

القُوَّة لدرجة أنها انطبعت في أذهانهم إلى الأبد: نظرة فتاة تراجَعَت عن رغبتها في الموت، فتاة تريد الحياة.

وكأنها غطست في حوض مياه غير مرئي ثم طفت، دارت رشا حول نفسها في الهواء، وارتفعت مرة أخرى عموديًا إلى أعلى، وكأنها تقفز مرَّةً أخرى لكن من أسفل إلى أعلى.

ظلَّت تعلو حتى بلغت السطحَ ارتفاعًا، ثم كسرت اتجاهها منحرفةً أفقيًا في اتجاه شاطيء البحر على الناحية الأخرى من الشارع، راقبها الناس تطير مُبتَعِدَةً وتختفي في الأفق.

"إنتَ بتستعبط يا أشرف؟ سايبني وبتصوَّر السما؟ طب وحياة أمي ما...". بنظرات زائغة، ويَدٍ مرتعشة، فتح الكاميرا، أخرج الشريط، ترك الكاميرا تسقط من يده وتتحطَّم. لم يلاحظ وقوعها ولم يهتم. تلخَّص الكون كله في الشريط الأسود بين يديه. بخطوات مهزوزة ابتعد.

"أشرف؟ يا نيلة يا أشرااااااااف!".

1.4

كان أذكى من إضاعة لقطة كهذه على القناة المحلية الخامسة. فتح درجًا وأخرج من دفتر قديم أرقامَ هواتف لم يَظُن قَطُّ أنه قد يستخدمها، وقبل أن تمضي ساعة كان قد باع مقطع انتحار/ طيران رشا بالفعل لعدَّة محطَّاتٍ فضائية مصرية

وعربيـة. وبحلـول السـاعة السادسـة مسـاءً كان قـد عُـرض على غالبيـة المحطـات الفضائيـة العربيـة، وبعـض المحطـات العالمية؛ باعتبـاره لغـزًا مـن دون تفسـير. فلـم تكـن هنـاك أي معلومات عـن الفتـاة أو هُويَّتهـا أو حقيقـة مـا حـدث بالفعـل، حتـى إن الكثيريـن رأوا أن المقطـع مُفبرَك، أو مُجـرَّد شريـط دعـائي لفيلم سـينيمائي سـيُعلَن عنـه قريبًـا. حتـى شـهادات الشـهود العيـان لم تُؤخَـذ بجديـة، هـم أنفسـهم لم يصدِّقـوا مـا رأوا بأعينهـم؛ عـادوا وقالـوا: ربمـا كُنَّـا نهلـوس.

لكـن الغمـوض الـذي أحـاط بحكايـة رشـا عوَّضـه إسـماعيل طيَّـارة، بتوفُّـره بـكلِّ الطـرق الممكنـة.

مقطـع الڤيديـو الـذي التقطـه الأسـتاذ سَـيِّد كان ضعيـفَ الجـودة، ذا صـورة مهتـزَّة مُشوَّشـة، لكنـه انتـشر بـين أصحـاب الهواتـف ذات تقنيـة البلوتـوث الحديثـة في السـاعات التاليـة للحـدث؛ أسرع مـمَّا تفعـل الفضائـح الجنسـية.

تناقَلَتـه أيضًـا رسـائل البريـد الإلكـتروني ليصـل إلى واحـد مـن مُعـدِّي برنامـج "هنـا والآن" الـذي يقدِّمـه المذيـع الأكـثر شـعبية: عمـرو الشربينـي، ذو الصلعـة اللامعـة واللسـان الشـعبي المفتعـل، الـذي يشـتري بـه تأشـيرة دخـول بيـوت الطبقـة المتوسـطة عـبر كابـلات القنـوات الفضائيـة المسروقـة. انفـرد البرنامـج بعـرض مقطـع طـيران مُـدرِّس الألعـاب بعـد ڤيديـو الفتـاة المنتحـرة مبـاشرة، وعَلَّـق عليـه الشربينـي قائـلًا: "مـين ده كـمان الـلي بيرقـص في الهـوا؟ هـو إيـه الـلي بيحصـل في اسـكندرية النهـاردة يـا اخوانًـا؟".

لتنهال على البرنامج عاصفة من المكالمات التليفونية: من طَلَبَة المدرسة ومُدرِّسيها وأقارب إسماعيل وأصدقائه وجيرانه؛ يحكون نفس الحكاية الملحميَّة عن تَحوُّل إسماعيل جَرَّاية إلى إسماعيل طيَّارة.

واتصل أستاذ سيد وكيل المدرسة مُعلِنًا أنه صاحب الڤيديو، ويرغب في مقابل مادي على مجهوداته في التصوير، وإلَّا سيُقاضي القناة. في النهاية اتصل إسماعيل طيَّارة نفسه.

"قل لي بقى يا أستاذ إسماعيل، طيران إيه اللي الناس بتتكلِّم عليه ده؟"، "والله ما عارف يا أستاذ عمرو، أنا كنت بجري ورا الواد الـ....."، "لأ سيبك من الحكاية دي، سمعتها ميت مرَّة من صحابك. أنا بسألك عن الطيران، إنت بتطير فعلًا والَّلا بتشتغلنا؟"، "عيب يا أستاذ عمرو، عيب والله، أنا أشتغل حضرتك ليه؟ أنا وعِزَّة جلالة الله بطير، ده أنا بكلِّمك وأنا متشعلق في سقف الأوضة"، "سقف الأوضة إيه يا إسماعيل؟ إنتَ بتستعبطني؟ هو أنا ابن أختك؟"، "طب عليَّا الحرام من ديني ما بكذب عليك، ولو مش مصدَّق ابعت حد من عندك يصوَّرني... إن شا الله حتى آجي لك الاستوديو أطير قُدَّامك".

جفل الشربيني من صراخ المخرج المتحمِّس القادم من السماعة الصغيرة في أذنه: "طبعًا ييجي، خلِّيه ييجي".

"ماشي كلامك يا سُمعَة. تيجي هنا وتطير قُدَّام السادة المشاهدين، والمَيَّة تكذِّب الغطاس، والَّلا نقول الهوا يكذِّب الطيار؟ هههههه"، "ههههههههههه"، "سيب عنوانك مع الكونترول

وحتيجي لك عربية تحت بيتك في خلال نص ساعة، الساعة عشرة حتكون هنا في استوديو القاهرة، ونطلع ع الهوا معاك في حلقة خاصة، طير بقى واتشقلب براحتك..."، "عينيًّا يا أستاذ عمرو، أنا كُلِّي فِدا مصر".

لم يفهم أحدٌ سببَ ذِكرِ مصر في جملة إسماعيل الختامية، لكن أحدًا لم يهتم بالسؤال عنه، الاهتمام كله كان مُنصبًّا على انتظار الحلقة الخاصة التي سيطير فيها الرجل أمام عيون الجميع على الهواء مباشرة.

في الشارع القديم بمحرَّم بيك، حيث يسكن إسماعيل طيارة، كانت الزغاريد والنداءات المُهنِّئة لإسماعيل وأمه تخرج من كُلِّ فَمٍ ولسان.

طيران إسماعيل غير المفهوم كان مَحلَّ اندهاش جيران مدرِّس الألعاب وسكان الحي، لكن خبر ظهوره المرتقب على التليفزيون مع عمرو الشربيني ذات نفسه، كان خبرًا أكثر أهمية بما لا يُقاس من الطيران.

سكان العمارة التي يسكن فيها بالذات هم الأكثر فخرًا وسعادة، لا سيَّما وقد صارت سمعة بيتهم في الوحل، بعد القبض على الفتاة السارقة، قاطِعَة أعضاء الرجال، قبل سنوات، من عمارتهم، لتظهر بعدها في برنامج "خلف الأسوار" مُجرِمة، مُلطِّخَةً سُمعَةَ العمارة والشارع كله في الوحل.

بالتالي كان ظهور إسماعيل مع الشربيني بمثابة رَدِّ اعتبارٍ لهم. أحد الجيران قدَّم لإسماعيل بدلةَ زفافه ليرتديها في

البرنامج إنْ لم يَكُنْ لديه واحدة، والحَلَّاق تَطوَّع بأن يَحلِقَ له ذقنه وشَعرَه قبل قدوم سيَّارة القناة لِتُقِلَّه، مطعم المَشويَّات قدَّم له "كيلو مشكِّل" على سبيل الهدية، "عشان متسافرش جَعان يا سُمعَة". كاد يرفضه في البداية كي لا يَثْقُلَ طَيَرانُه، لكن الرائحة غيَّرَت رأيه؛ فالتهم الكيلو كله بسعادةٍ في أثناء الحلاقة المجَّانيَّة. وعندما جاءت سيارة البرنامج لتُقِلَّه، هبط طائرًا من شُرفَته وسطَ زغاريد سُكَّان الشارع وتهليلهم.

في العاشرة بالضبط كانوا جميعًا في المقاهي مُتحلِّقين حول الشاشات التي تُظهِر جارَهم جالسًا أمام عمرو الشربيني، في بدلة مناسبات لامِعَةٍ، أصغر من مقاسه بنمرتين، وتُظهر جَيِّدًا امتلاءات مؤخِّرَته وبطنه، مع شريطٍ تعريفيٍّ يقدِّمه للمشاهدين أسفل الشاشة، "إسماعيل عبد الستار- مدرس تربية رياضية".

"منوَّرنا يا أستاذ إسماعيل"، "ده نورك يا أستاذ عمرو". كان مُنتَصِبَ الظهر، يتعرَّق بغزارة، يشبك أصابعه ويفرقع مفاصلها، يعضُّ على شفته السفلى، وعينه تنظر في كل مكان إلَّا الكاميرا والمذيع.

"مش حتورِّينا حاجة؟"، "أورِّيك إيه لا مؤاخذة؟"، "تطير... إنت مش جاي عشان تطير؟"، "أه...أيوه طبعًا.. ثانية واحدة...". تناول كوب المياه، سكب منها على نفسه أكثر ما شرب. "بالراحة على نفسك يا أستاذ إسماعيل، خُد نَفَسَك".

تنفَّسَ هـواء الاسـتوديو المُكيَّـف، أغمـض عينيـه، نهـض واقفًا، رفـع يديـه، قفـز، وقـع. سـاعده الشربينـي عـلى النهـوض. وعندما جلـس مـرة أخـرى، أجهـش في البـكاء.

"أنـا... أنـا والله والله بطـير يـا أسـتاذ عمـرو، طـول اليـوم طايـر في الهـوا وبتشـقلب، إنـت مـش شـفتني في الڤيديـو؟"، "شـفت الڤيديـو، بـس ده ڤيديـو مـش واضـح يـا أسـتاذ إسـماعيل، ممكـن تكـون خدعـة كومبيوتـر"، "كومبيوتـر إيـه بـس، وعِـزَّة جلالـة الله أنـا....".

مـع أن إسـماعيل لم يَعُـد طيَّـارة لسـبب غـير مفهـوم، فإنـه كان، وسـيظل دائمًـا، جَرَّايَـة. انتفـض واقفًـا، خلـع عـن بدلتـه الميكروفـون وألقـاه، وبسرعـة جريـه المعهـودة جـرى خـارج الأسـتوديو.

"يا أستاذ إسماعيل... يا أستاااااذ إسماعيل...".

1.5

أُمُّ وليد أيضًا كانت تشاهد.

لم تسـمع غالبيـة اللقـاء لضعـف صـوت التليفزيـون مقارنـة بصـوت الراديـو العـالي المُثبَّـت عـلى إذاعـة القـرآن الكريـم، ولم تشـاهد الحلقـة بوضـوح أيضًـا بسـبب سُـحُب البخـور التـي تملأ الشـقة، إلى حَـدِّ أنهـا "مخلِّيَّـة الواحـد مـش شـايف لا مؤاخـذة نفسـه وهـو بيتصـيَّر" عـلى حسـب تعبـير أبـو وليـد.

لكنها فهمت ما يحدث إلى حَدٍّ ما. العفاريت لم تلبس ابنها وحده، هناك آخران. والمصيبة أن ذلك الرجل يحتفي بما أصابه من المَسّ وكأنه نال جائزة، ويبكي على خَلاصِه منه. مسكين جاهل، لا يعرف بِحِيَلِ الشياطين وألاعيبهم. الحمد لله على حُسن تَصرُّف أبو وليد وسرعة بديهته، أنقذ ابنهم من مصير تخشى حتى مجرد التفكير فيه، ماذا كان الحال سيصير يا ترى لو لم يكن الرجل موجودًا؟ أتراه يحكي لمُجالسيه في المقهى ما حدث؟ لا، بالطبع لا، أبو وليد رجلٌ حكيم لا يُخرِج أسرارَ بيته حتى لأقرب أصدقائه. الحمد لله الذي ألهمها بأن تحبس الفتى في غرفته، ولا تسمح له بالخروج طوال اليوم؛ فهو بالتأكيد ما زال ضعيفًا، فريسةً سهلةَ المنال لكل شيطان رجيم. حَبْسُه في غرفته مع صوت القرآن والبخور كان من أحكم القرارات التي اتَّخذَتها في حياتها، لن تسمح له بالخروج قبل يومين على الأقل، وستكون وقتها قد جَهَّزَت له حجابًا مناسبًا يَقيه من هجماتهم، لعنهم الله. ترى، كيف هو الفتى الآن؟

تذكَّرَت أنها لم تسمع له صوتًا في آخر ساعتين. رُغم صوت الراديو المرتفع، كان يصل إليها -من حين إلى آخر- شيء من تَذمُّره من الحبس، وبعض السعال الناتج عن دخان البخور، "يا ضنايا يا ابني!"، ولكن أيًّا من هذا لم يَعُد يصل إليها الآن. مسَّها القلق، نهضت بصعوبة من كنبة الأنتريه الوثيرة التي تَرَكَ جلوسُها الدائم عليها، بوزنها غير الخفيف، حُفرةً دائمة، تحسَّسَت طريقها في الشبورة إلى غرفة وحيدها.

"وليييييد... يا وليييييد".

لا رد، فتحت الباب.

الرؤية في الغرفة كانت جَلِيَّةً تمامًا على عكس باقي أنحاء الشقة، رغم اشتعال سبعة أعواد من البخور فيها، عَزَت وضوحَ الرؤية إلى بصيرتها المتَّقِدَة كأمٍّ طيِّبة، ولكن رؤية خيوط الدخان الواهنة تخرج من أعواد البخور الموشِكَة على الانطفاء وتختفي خارج النافذة المفتوحة- جَعَلَها تدرك سببَ وضوح الرؤية.

"قلت له ما يفتحش الشباك!"، ثم انتبهت إلى أن النافذة المفتوحة ليست الشيءَ الوحيد الخطأ، هناك شيء آخر، شيء مفقود. "وليد!".

بخطواتٍ وَجِلَةٍ اقتربت من النافذة. الأصوات القادمة من الشارع كانت عادية: عراك أطفال يلعبون، سباب روَّاد المقهى المقابل، ضوضاء سيارات من الشارع الرئيسي القريب، عواء كلاب، ومواء قطط، ونهيق حمير، وثُغاء ماعز. أصوات طبيعية، ليس فيها ما يدلُّ على جمهور مُتحَلِّق حول جُثَّة مراهق غارق في دمائه تسكنه الشياطين. كل هذه كانت علامات مُطَمئِنَةً، ولكن قلبها لم يطمئن.

عندما أطلَّت من الشباك رأت الشارع أسفل النافذة. كل شيء على ما يُرام، ابنها ليس هناك، نَدَّت عنها تنهيدةُ ارتياح. أين هو إذن؟

على حين غرَّة واتتها الإجابة، على هيئة الصورة التي كان عليها في سقف الغرفة صباح اليوم، على هيئة بكاء مُدرِّس الألعاب الذي يُقسِمُ أنَّ بوسعه الطيران. نظرت إلى الأعلى،

كان هنـاك، عـلى طـرف ماسـورة تصريـف ميـاه الأمطـار البـارزة مـن سـطح العـمارة المقابلـة، جلس ابنهـا كعصفـورٍ يسـتريح عـلى فـرع شـجرة، ينظـر إلى السـماء، يرتعـش، يبـكي. رغـم بُعـد المسـافة وظـلام الليـل عَرفَـت أنـه يبـكي.

"وليييييييييييييد!"

الأُمَّهـات يصرخـن دومًـا، حتـى لـو كان أبناؤهـنَّ جالسـين عـلى حافَّـةٍ دقيقـة لمـكان عـالٍ، وقـد تـؤدِّي تلـك الصرخـةُ إلى إفزاعهـم وتشـتيت انتباههـم، وربمـا إلى سـقوطهم. فـزع وليـد مـن صرخـة أُمِّـه المباغتـة وقفـز في الهـواء.

عندمـا رأت ابنهـا يقفـز توقَّـف قلبهـا رعبًـا، وأكمـل خيالهـا المشـهد، ورأتـه يسـقط مـن ارتفـاع عـشرة طوابـق، ويُـدَكُّ رأسـه... غـير أن وليـد ثبـت في الهـواء بعـد قَفْزَتِـه كأنَّـه تعلَّـق بـشيء مـا، وبـدلًا مـن أن تشـاهد أمـه سـقوطه، شـاهدها هـو تَقَـعُ مـن النافـذة خلـف مـا حسـبته جسـد ابنهـا، صارخـة "ابنييييي".

1.6

انتبـه رُوَّاد المقهـى عـلى صـوت الصرخـة الأخـيرة، وعندمـا تَحَرَّوا مصـدره وجـدوه قادمًـا مـن أم وليـد، المُعلَّقـة في الهـواء على ارتفـاع عـشرة طوابـق؛ لا تهبـط ولا ترتفـع، ربمـا حتـى لا تتنفَّس. بَـدَت كبالـون هيليـوم بالحجـم الطبيعـي مُعَلَّقٍ بخيـط يمنعـه مـن الابتعـاد. تجمَّـد الجميـع وصمتـوا في رهبـة عـدم الفهـم الأوَّليَّـة

للمشهد، صمتٌ دام لثوانٍ ثلاث كانت كافية لتستوعب أم وليد أن الشياطين نالوا منها مثلما نالوا من ابنها.

دخَلَت في حالة هياج هستيري، وأخذت تُحرك أطرافها الأربعة بينما تطلق صرخات قصيرة متعاقِبَةً عاليةَ التَّرَدُد، حركتها العشوائية جَعَلَتها تهبط دون وقوع.

أمَّا الجمود الذي تلقَّى به الموجودون في الشارع المشهد، كسره تعليقُ طفلٍ بريء على وقوع السيدة أم وليد قائلًا "الجاموسة بتقع". ورغم أنه نال صفعة توبيخيَّةً من أحد الناضجين، فإن هذا لم يمنع انطلاق الضحكاتِ من السَّامعين، الذين كَسَرَ هيبَةَ الموقِف عندهم جُلوسُهم لساعاتٍ أمام فضائياتٍ تَعرِضُ طيران المَدعوَّة برشا، وإسماعيل طيَّارة.

السيد محمد مصطفى، أبو وليد، الرجل المحترم الملتزم الذي لم يُسمَع من بيته صوتٌ من قبل، أغضبه خروجُ زوجته من بيتها في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل برأسٍ مكشوف، ألقى كروت الدومينو بغضب، وهبَّ في رجولة، "بتعملي إيه يا وِليَّة عندك؟ خُشِّي جُوَّه الناس بتتفرَّج عليكي!"، ليزداد غضبه أكثر عندما لم يَبْدُ عليها أنها تأثَّرَت بصياحه لأول مرة في حياتها، وهي الزوجة الطَّيِّعَة الطيبة، وظلَّت تقع بِتمهُّلِ بالون شاردٍ حزين. "يا وليَّة خُشِّي جوة يلعن ميتين الِّلي جابوكي".

الحاجَّة وداد، الجارة الطيبة التي تجاوَزَت الستين، كانت في بلكونتها بالطابق الأول بالعمارة فوق المقهى، مثل كل سكان الشارع تقريبًا تتابع الموقف. رأت أم وليد تهبط من السماء

فوقها وتبكي، مدَّت لها يدًا، "بت يا سوسو، بت يا سهير.. هاتي إيدك". أحدهم في الأسفل أخرج هاتفًا ليصور وقوع أم وليد، لطمه من يده زوجها، واشتبك معه في مشاجرة لحماية شرفه.

مدَّت السيدة سهير يدها للحاجة وداد، لكنَّ يدًا أخرى أمسكت بها، يدًا أكثر قوة وشبابًا، يد ابنها وليد الذي هبط بسرعة كبَطَلٍ سينيمائي خارق، وأمسك بيد أمه، وطار بها عائدًا إلى الأعلى بنفس السرعة.

كانت أُمُّه في يده خفيفةً طائعة، وكأنها بلا وزن. اختفى وليد وأمه في شَقَّتِهما بالطابق السابع، وانغلقت النافذة خلفهما.

باستثناء خروج أبو وليد العاصِف من المقهى، واختفائه في مدخل البيت، كان الجميع في حالة من الصدمة الحالِمة. الكل يُهَمهِمُ بصوت مسموع مُعلِّقًا على ما حدث، ولكن أحدًا لم يَقُلْ جملة مفيدة.

كالعادة كان الأطفال أوَّلَ مَن تَجاوَز الصدمة. صاحوا في حماس، وصفَّقوا مُهلِّلين على المشهد الذي انتهى لِتوِّه، والطفل الذي سَخِرَ من أم وليد قبل قليل، قفز، وطار.

1.7

حطَّم "رشدي الحلواني" أكثر من شيشة في خِضَمِّ جَزْيِه المحموم بين روَّاد المقهى، محاولًا اللحاق بذيل بنطال ابنه الذي كان يركض في الشارع قبل ثوانٍ، والآن هو -بمعجزة ما- يرتفع في الهواء. لم يَلحَقْه، صرخ مناديًا اسمه دون جدوى. تَبِعَ الطِّفلَ الذي طار بقيَّةُ الأطفال الموجودين في الشارع؛ لم يتوقف أحدهم للحظة كي يُفكِّر، قفزوا وطاروا وكأنهم كانوا دومًا فاعلين.

حودة القهوجي كان أَوَّلَ مَن فعلها من الكبار، ألقى بصينية المشاريب من يده، غير مَعنِيٍّ بالشاي المغلي الذي أصاب قدم رشدي الحلواني المذهول، قفز حودة؛ لم يَطِرْ ولم يسقط، وإنما استقر في الهواء.

انطلق من رُوَّاد المقهى عَدَدٌ من الأصوات الاعتراضية التي قد يَعدُّها بعضهم من قبيل سوء الأدب، تزداد الأمور غرابة بأسرع من قدرتهم على هضمها.

لم يهتم حودة؛ تمالَكَ نفسه، وأخذ يُحرِّك أطرافه بانتظامٍ وكأنَّه يعوم في البحر، ركَّز انتباهه على السماء، وشيئًا فشيئًا أخذ يرتفع في بطءٍ، حتى تَسارَعَ طَيَرانُه واختفى في السماء. عندها، هَبَّ كل الموجودين دون استثناء من أماكنهم، تاركين المشاريب والشيشة وأدوار الدومينو غيرَ مُكتَمَلةٍ كمَساعيهم

في الحياة، وقفزوا جميعًا، حتى رشدي الحلواني الذي أحرق الشاي قَدَمَه غمسها في دلو الثلج ثم قفز، وطار مناديًا ابنه.

لم يطيروا جميعًا بنفس الانسيابية؛ منهم من عَلِقَ بين السماء والأرض، ومنهم من عَلَا كطلقة رصاص، ومنهم من أخذ في الارتفاع قليلًا ثم الهبوط ببطء، ثم مُعاوِدًا الارتفاع، وكأن الجاذبية الأرضية مترددة بشأنه. لأول مرة كان الواحد منهم يُجرِّب أن يكون في الهواء حرًّا دون أي نقطة ارتكاز: لا يَدٌ مُعلَّقَةٌ في سور، ولا مُؤخِّرَة على مِقعدٍ، ولا قَدَمٌ على أرض. برغم ذلك شعروا وكأن وسطًا ما مائعًا غير مرئي يدعمهم، مثلما هو الأمر تحت سطح البحر، باستثناء أن الهواء كان وسطًا أكثر ترحيبًا من المياه؛ لا ضَغْطَ يُثقِلُ على الصدر، ولا تيّارات تدفع المرء في اتجاهٍ لا يرغبه.

بدا من الواضح أنه -لسبب غير معلوم- صار بوسع الجميع الطيران. ربما هي منحةٌ إلهيَّةٌ أو معجزة فيزيائية أو خَلَل في نظام تشغيل الكون، لا أحد يهتم بالسبب، ليس الآن على الأقل؛ الناس تطير، وهذا هو المهم.

من الشرفات والنوافذ تَتابَع خروج سُكَّان الشارع، قفز الصغار في البداية من بين أيادي أُمَّهاتهم المُتَشبِّثة، تَبِعَهم أهلُهُم المُتردِّدون، بمرور الوقت صارت سماء الشارع أكثر ازدحامًا من الشارع نفسه في أي وقت مضى. كل الشرفات والنوافذ كانت مفتوحةً، باستثناء نافذة بيت وليد مصطفى، ومن كل شرفة مُضاءَةٍ كان هناك ظِلٌّ غير واضح الملامح يقفز في الهواء، تاركًا

خلفه أُمًّا تحاول منعه، أو زوجًا يستعدُّ لِلَّحاق بزوجته، أو أخًا يسابق أخاه.

من شرفة سامح الدسوقي كانت سميرة زوجته تشاهد الطائِرِين وتصرخ فيهم بِهَلَعٍ أن يعودوا إلى بيوتهم. في خيالها، رأتهم جميعًا وقد وقعوا وتحطَّموا وماتوا. كانت تلطم وتبكي وتَشقُّ ملابسها، حاوَلَ زَوجُها تَهدِئَة أعصابها وإدخالها من الشرفة، دون جدوى.

انفتحت النافذة التي حسبت أنها أحكمت إغلاقها، وخرج منها ابناها التوأم: "الحسن" و"الحسين" وقد أيقظهما الضجيج في الشارع وصراخ أمهما. صرخت باسمَيْهِما في رُعبٍ، حسبها الطفلان اللذان لم يتجاوزا الثالثة تناديهما ليخرجا ويطيرا مع الناس في سماء الشارع، بانسيابية غريزيَّةٍ طارا خارِجَيْن من النافذة، واقتربا منها مبتَهِجَيْن. لكنها عندما رأتهما طافِيَيْن في الهواء بملابس النوم المتماثلة، يحتضن كفُّ كلٍّ منهما كفَّ أخيه، وينظران إلى العالم بوَجَلِ مَن يرى الكونَ للمرَّة الأولى. تَحوَّل هَلَعُها إلى جنون: ليسا ابنيها، ليسا ابنيها. دفَعَت زوجَها تجاه سور الشرفة، صرخت بصوت أكثر حِدَّة من فرامل سيارة تنزلق على منحدر "نُطٌ وراهم، هات لي عيالي، هات لي عيالييييي".

عرف الطفلان من صوت أمهما أن هناكَ شيئًا ما خطأ، وإن لم يفهما ما هو بالتحديد. توقَّفا حيث هما في الهواء، والتصقا ببعضهما، شَرَعَا في البكاء. اقترب الأب من سور الشرفة متردِّدًا،

شعر وكأن بوسع الكون كله فعلها إلّا هو، لكن زوجته كانت تبكي، وتضربه على ظهره، "هات لي عيالي يا سااااامح".

"ما تهدي يا بت يا سميرة. الله، ما الناس كلها قُدّامِك بيطيروا أهو!". حتى الحاجّة وداد كانت طافِيَةً فوق شُرفَتِها بعدَّة أمتار، لكن سميرة لم تأبه، وظلّت تدفع في زوجها الذي رفع قَدَمَه بصعوبة فوق السور. كانت الأرض تَشُدُّه لأسفل مثلما كانت دائمًا، ربما إذا تدلّى من الشرفة يصبح خفيفًا مثل البقية؟ محاولة الرجل للقفز لفتت انتباه عدد من الطائرين الذين لم يرتاحوا لرؤية حركته المرتبكة المتوترة، تلكَّؤوا مُتابِعين. وعندما وقف الرجل على السور بأرجل مُرتَعِشَة، لم يقفز، وإنما زَلَّت قدمه، ووقع.

كان من الواضح أنه لولا تعلُّق أطراف أصابع يده اليسرى بسور الشرفة، في اللحظة الأخيرة، لهوى إلى أرض الشارع وتَحطَّمَت عظامه. تدلَّى الرجل من السور، وصارت قدماه ترقصان في الهواء، ويبكي. أخذت أصابعه في الانزلاق، لكن أحد المتابعين تدخَّل وطار ناحيته ليحتضنه من قدميه مُنقِذًا إيَّاه من الوقوع. لم يقدر على الطيران به لأعلى، وكأنه يسبح حاملًا صخرة أثقلَ من وزنه، لكنه على الأقل منعه من السقوط. لسببٍ ما، الخَلَل الذي أصاب الجاذبية مع الجميع لم يؤثِّر في "أبو الحَسَنَيْن"؛ إنها ما زالت تعمل بكفاءتها القديمة معه. ثم قَفَزَت سميرة.

وكأن الهستيريا التي كانت فيها لم تكن، قَفَزَت دون تفكير، بسرعة ونعومة كأنها كانت تفعل ذلك كل يوم منذ عشر سنوات، قفزت وطارت وقد ذهبت صرخاتها، وإن لم تذهب عن مُحيَّاها ملامح الرعب. احتضنت زوجها المُعلَّق الباكي، وبمساعَدَةِ مَن كان يحمله وعددٍ من الطائرين الذين انضمُّوا مساعدين؛ ارتفعت سميرة حامِلَةً زوجها العاجِزَ عن الطيران، وعندما صاروا فوق مستوى الشرفة، قفز من بين أيديهم ليقع على أرضها مُحتَضِنًا البلاط. تكوَّر حول نفسه في الأرض، وأخذ ينتفض. بنعومَةٍ هبطت زوجته من طيرانها جواره، هَمَسَت في أذنه، قَبَّلَت رأسه، طمأنته، "بس، بس يا اخويا، حَقَّك عليًّا، حقَّك عليًّا". عندما لمَحَت ابنيها في الهواء قريبَيْن منها، خائِفَيْن من الاقتراب أكثر، هزَّت لهما رأسها مُطمئِنَّة، لم يَفْهَما ماذا تعني، لكن على الأقل عرفا أنها لم تَعُدْ غاضِبَةً بعد الآن.

2

البَحثُ عن علامَةٍ، وإيجادُها

2.1

كان الرجل يجري، وكان خائفًا.

وخلفه كانت تجري الفتاة، تبكي وتصرخ وتلعن ميتين أمه. وكان هذا قبل أن تطير بأيام ثلاثة.

هل هذه هي العلامة التي كانت تبحث عنها؟

***

وجّهَت بالأمس إنذارًا للقوى التي تحكم الكون، أيًا كان مَن هي أو هو أو هم، أرسِلوا إليّ علامة، أي علامة، تضعني على طريق صحيح للوصول إلى المعنى خلف الأشياء.

لم تعرف كيف تُوجِّه إنذارها بالضبط، فلا يوجد -مثلًا- عنوان بريدي لمثل هذه القوى تُرسِلُه إليهم، كتَبَت إنذارها على هيئة رَدٍّ في موضوع "فليُخرج كلٌّ منّا ما في نفسه" في منتديات "حياتنا" على الإنترنت. ما كتَبَته لم يكن واضحًا بما يكفي ليوضِّح نِيّتها لمن يقرؤه من الأعضاء الآخرين، لكن لا بُدَّ من أن القوى التي تحكم الكون ستفهم ما تعنيه بقولها "لم يَبْقَ إلّا ثلاثة أيام، أرسِلوا إليّ علامة، وإلّا سأفعلها". هل القوى التي تحكم الكون تتابع المنتديات؟ "شيري" لا تعرف، على أي حال إن لم يكن بوسع أولئك أن يعرفوا ما نشرته على الإنترنت، فإنهم غير جديرين بمنصبهم العالي.

عندما خرَجَت في الصباح كانت عازِمةً على إيجاد علامتها المنتَظَرة، تجاهَلَت تعليقَ أُمِّها بينما تخرج من الفيلا "برضه حتخرجي لابسة أبيض! مش قلنا الأبيض بيخلّيكي غامقة؟". رفَضَت اعتباره علامةً، أُمُّها لم تتوقَّف قَطُّ عن تكرار الكلام نفسه.

أي الطرق تسلك عندما تكون في انتظار بريد من نوع خاص؟ هل تمشي في الشوارع بلا هدى؟ هل تذهب إلى قسم العناية المركزة في مستشفى، وتحاول التنصُّت على كلمات المحتضرين الأخيرة؟ أو ربما تذهب إلى مقهى، وتجلس وحيدةً

في الرُّكـن، منتظـرة مجـيء عجـوز حكيـم أبيـض اللحيـة، جاندالـف أو دمبلـدور، أو حتـى زيـوس نفسـه، ليجلـس جوارهـا ويخبرهـا بمـا تنتظـر سَـماعَه؟ بَـدَت فكـرة المقهـى لطيفـة، لكنهـا سـتتمشَّى قليـلًا في البدايـة، بحـواس متأهِّبـة، ولاحقًـا سـتذهب إلى مقهاهـا المُفضَّـل، إن لم تأتِهـا علامتهـا قبـل ذلـك بالطبـع.

كل مـا قابلتـه "شـيري" في طريقهـا فكَّـرَت فيـه كعلامـة مُحتَمَلـة: هـل تكـرار اللـون الأصفـر ثـلاث مـرَّاتٍ في ملابـس المـارَّة يُعَـدُّ علامـة؟ هـل لافتـة المـرور (تُوقِـف) رسـالة كونيـة؟ هـل نظـرات الهيـام التـي يتبادلهـا الفتـى والفتـاة بينـما يعتـصران أيـدي بعضهـما وهـما جالسـان عـلى كورنيـش البحـر علامتهـا؟ إن كانـت كذلـك، فـلا بُـدَّ مـن أن الشـابَّ الـذي يراقبهـما مـن بعيـد بحـسرة هـو علامـة معاكسـة تُحيِّـد العلامـة الأولى وتلغيهـا. العلاقـات ليسـت علامَتَهـا المنتظَـرَة بالتأكيـد، ليـس بعـد تجاربهـا السـابقة الفاشـلة.

بينـما كانـت تلقـي الفكـرة الأخـيرة في مرحـاض أفكارهـا، لَفَـتَ نَظَرَهـا مشـهدٌ يناسـب بِشـدَّة رحلـةَ البحـث عـن علامـات، رغـم أنـه لا ينفـكُّ يتكـرَّر فـوق ميـاه البحـر كثـيراً: عـدد مـن طيـور النـورس تُحلِّـق في دوائـر فـوق بقعـة مُحـدَّدة مـن ميـاه البحـر، يضـمُّ أحدُهـا جَناحَيْـه، ويهبـط بمنقـاره إلى الأسـفل، يختفـي لثـوانٍ تحـت سـطح المـاء، ثـم يخـرج طائـرًا مـن الميـاه، بـين منقاريـه سـمكة، ينضـمُّ إلى زملائـه بالأعـلى الذيـن ينعقـون حولـه محتفلـين.

هـل هنـاك علامـة أكـثر وضوحًـا؟ لـو كان هـذا مشـهدًا في روايـة لَـمَا جاءتهـا علامَـةٌ بمثـل هـذا الوضـوح. لم تسـتوعب "شـيري"

بالضبط تأويلَ ما رَحَّبت به كرسالةِ قُوى الكون إليها، لكن التأويل يأتي لاحقًا؛ لتستمتع الآن بتلقّي الرسالة، وتتابع المشهد حتى نهايته. وقفت في مكانها مُبتَسِمَةً تشاهد بقية النوارس تحذو حَذوَ النورس الأول. لاحَظَت أحدَها يقف بالقرب منها متابعًا المشهد معها، يبدو في الستين من عمره، من دون لحية بيضاء، لكن شعره يغلبه الشَّيبُ، يبدو حكيمًا، هل سيقول شيئًا؟ هل هو حامِلُ الرسالة؟ مُفسِّر سلوك النوارس؟ حاولَت ألّا تلقي له بالًا، وتابعت مراقبة النوارس، يغطس الواحد منها تلو الآخر ويخرج بسمكته، حتى حان دور الأخير والأصغر حجمًا. خمّنَت أنه فرخٌ يَتعلَّم الصيد؛ هذا النورس يُمثِّلها، يتعلَّم طرق الحياة مثلها، يبحث عن الحقيقة تحت الماء وفوقها. شبكت يديها وتمتمت بصلواتٍ لقوى الكون أيًّا ما تكون، متمنِّيَةً له الحَظَّ السعيد. غطس النورس الصغير مثل أقرانه، وانتظرت خروجه، مرَّت ثوانٍ، لم يخرج.

أصيبت "شيري" بالهلع، خرجت منها صرخة ضعيفة مقتضبة، أشارت بإصبعٍ مرتَعِشٍ إلى حيث اختفى النورس، أتعبث قوى الكون معها! هل يفسدون علامتها عمدًا؟ ماذا تقول لها الرسالة الآن؟ حتى قوى الكون -إن وُجِدَت- تكرهها، أو لا تأبه لأَمْرِها! إن كانت هذه رسالتها، فهي تخبرها -بتبجُّحٍ- أن تفعلها.

الرجل الواقف بجوارها اقترب منها، نظر إليها آسِفًا وكأنه يواسيها. شَرَعَت شيري في البكاء، اقترب منها، انتظرت منه توضيحًا، جُملَة رمزية تحمل المعنى الخفي خلف ما رأته.

احتضنها بهدوء كأنه يواسيها، وبدأ في تحسُّس ثديها -برقّة- من فوق بلوزتها البيضاء التي تراها أمُّها غير مناسبة للون بشرتها الغامقة.

توقَّفَت عن البكاء، وتَجمَّدَت في مكانها، لم تفهم ماذا يحدث في البداية، وعندما حسب الرجل أنَّ صمتها استجابةٌ له، همس في أذنها "إيه مزَعَّلِك بس يا جميل؟". بحثت يدها بهدوء عن شيء ما في حقيبتها، سألها مرَّةً أخرى بينما ينحني أكثر محاولًا تَقبيلَها "قولي بس ما لِك؟". وجدت ما تبحث عنه.

"كُس ام حياتي!". سمعها هذه المرة، وقبل أن يندهش كان نَصلُ مبرَدِ الأظافر الحادِّ انغرزَ في يده التي تعتصر ثديَها. صرخاته المُتألِّمة امتزجت بنعيقها الغاضب، وبينما كانت تحاول غرز المبرد أكثر استطاع سحب يده وجرى مبتعدًا. انطلقت شيري التي تحمل النصل الذي تتقطَّر منه الدماء، في الجري خلفه.

عكس المطاردة التي بدأت بها الحكاية، لم تَدُمْ هذه طويلًا، فسرعان ما تجمهر المارَّةُ حولهما، وأخذ الرجل المجروح يشرح للناس كيف كان يمشي في أمان الله، وهجمت عليه هذه المجنونة فجأة، وجرحته في يده، وحاوَلَت قتله، وشيري كانت تؤكِّد حكايته بمحاولتها الإفلات من الأيدي التي تحتجزها لتكمل ما بدأته بنصلها المرتَجَل، مع جملتها الواحدة التي لا تنطق غيرها، وهذه لم تساعد في إثارة تعاطف الجماهير معها.

"احنا نروح القسم!". طرح الاقتراحَ واحِدٌ من المتجمهرين، ووجد تأييدًا فوريًا من بقية المستمتعين بهذه الحادثة الصغيرة. لكن ذِكر الشرطة كان كفيلًا بإفاقة شيري من هياجها الهستيري: لا، شرطة لا.

"شرطة لأ".

قالتها في حسم، واتَّفق معها على الفور المُتحرِّش الجريح، "خلاص يا جماعة حصل خير؛ مالوش لزوم القسم". نظرت إليه في غِلٍّ، تعلم أنها إن ذهبت معه إلى القسم ستُحَطِّم حياته إلى الأبد بمجرَّد أن تذكر اسم والدها جلال أبو العز، عضو مجلس الشعب العتيد، أو أخيها الرائد معتز. ستعود إلى بيتها آمِنَةً فورًا بينما سيتعفَّن هذا الوسخ في الحبس لسنوات.

لكن ما حدث لا يجب أن يبلغ مسامعهما، سيتكفَّلان بجعل حياتها جحيمًا، لن يتركاها تخرج وحيدةً من دون السائق الخاص، سيلقي كلٌّ منهما محاضراتٍ طويلةً عن الصَّحِّ والغلط والعيب والحرام، أمها أيضًا ستخبرها كم هي بنت "قليلة الأدب" لا تليق أخلاقها ببيت آل أبو العز، ولا بُدَّ من أن ارتداءها الأبيض هو المسؤول بشكلٍ ما عن جذب المتحرِّشين. لا تحتاج إلى كل هذا، لقد تركوها وحيدةً طوال 25 عامًا، فليتركوها وحيدة للأيام الثلاثة المُقبِلة أيضًا.

انسحب المتحرِّش من الزِّحام متجنِّبًا نظراتها النارية، عندما عرض عليه أحدهم أن يأخذه لمعالجة جرحه الذي تبرز منه

عظام يده قال إنه جرح بسيط، وقفز في أول تاكسي صادفه مبتعدًا عن الأنظار.

"انتِ كويسة يا مزمازيل؟". لم تُجِب، ولم يُكرّر أيُّهم السؤالَ، خاصة وأن الدماء لم تجف على نصل المبرد، ذهبوا تباعًا. عندما أصبحت وحيدةً ألقت نظرة على مبنى فندق "سان ستيفانو" على الناحية الأخرى من الطريق؛ بدا لها موقعًا لطيفًا لنهاية شاعرية.

2.2

قبل ثماني ساعات من طيرانها الوشيك سجَّلت "شيري" دخولَها للمرة الأخيرة -أو هكذا حسبتها- في منتديات "حياتنا".

تكره ذلك المكان الافتراضي، وتكره أعضاءه بردودهم المتحذلقة ونقاشاتهم المُفتَعَلة. كانت تشارك فيه بغزارة طوال الوقت في العامين السابقين، بالذات في قسمها المُفضَّل منه: "منتدى أساطير الأولين". لكنها قَلَّلَت من ذلك في الأشهُر الأخيرة. ما فائدة قضاء ساعات في مناقشات عبثية عن موضوعات لا أهمية لها مع شخصيات افتراضية تفتعل الخطورة! كله هراء، عَبَث، بلا معنى، مثل الدراسة والباليه والأسرة والحب. لكنَّ موضوعًا واحدًا في المنتدى لم تَستطِعْ التَّوقُّف عن المشاركة فيه: "فليُخرج كلُّ منّا ما في نفسه". ذكّرها بالمُفكِّرة السحرية في عالم "هاري بوتر"، مع كل حرف تكتبه فيه تخسر لصالحه شذرة

من روحك، بعد حينٍ من الوقت ستصبح أسيرًا له بلا فكاك، ستكتب وتكتب وتكتب حتى لا يعود في نفسك ما تخرجه فيه أو في غيره.

كانت تقلق من إدمانها الكتابةَ في هذا الموضوع، لكن كل هذه الأشياء من الماضي، ولم تَعُدْ تُقلِقُها الآن. سينتهي هذا الإدمان بعد ساعات مثلما سينتهي كل شيء.

سجَّلَت دخولها باسم "meaningless412". تجاهَلَت الرسالة الخاصة المتكرِّرة من العضو "أزرق_هو_لون_ثيابي_56"؛ لا تحتاج إلى قراءتها لتعرف أنه هنا ليخبرها بأنه يفهمها مثلما لم يفعل أحدٌ من قبل، ويعرف بالضبط ما يجول في أعماق قلبها. على الأرجح سيرى في عينيها حزنًا دفينًا مرة أخرى. رسائله كانت مَصدرَ تسليَةٍ لها سابقًا، لكن الوقت ليس مناسبًا الآن يا أزرق.

في "فليُخرج كلٌّ مِنّا ما في نفسه"، كتبت:

"إلى مَن في الأعلى أو في الأسفل أو أينما كنتم، الرسالة وصلت، شكرًا.

أنا أضحك بصوت عالٍ، أضحك من كل قلبي. لو كانت هناك فعلًا قوة ما تتحكَّم بمقاليد الكون، فهي تتمتع بحسٍّ دُعابَةٍ قاسٍ جدًّا. أُقدِّر المُزحَة الجيِّدة حتى لو كُنتُ أنا هدفها، وهذه كانت ذكيَّة.

حسنًا، أنا ذاهبة لأنتحر، شكرًا.

أنا لا أمزح، سترون.

لستُ غبيَّةً لأنتحر لمجرَّد أن أحدهم حاول الإمساك بصدري. الشوارع مليئة بهؤلاء الأوساخ الذين يحاولون تحسُّس ما تطاله أيديهم طوال الوقت. لو انتحَرَت كلُّ فتاة تحرَّش بها أحدُهم ستنتهي ظاهرة التحرُّش إلى الأبد؛ لأنهم لن يجدوا مَن يتحرَّشون به؛ ربما هي طريقة فعَّالة لمواجهة التحرُّش! لكنني لا أنصح بها.

منذ ساعَتَيْن أصبَحتُ في الخامسة والعشرين من عمري، أي صار لي ربع قرن على قيد الحياة، تسعة آلاف ومائة وخمسة وعشرون يومًا. هذا كثير، كثير جدًّا، لا أعرف كيف يتحمَّل بعض الناس أن يصيروا في الستين والسبعين والثمانين، هل هم مصابون بإعاقةٍ تَمنَعُهُم من إدراك حجم المأساة؟

ربَّما ليست مأساةً، ربما هناك ما يراه هؤلاء في الحياة لا أراه أنا، ربما أنا صاحبة الإعاقة إذًا، وهو سبب أَدْعَى إلى الذَّهاب.

تَعزو أمِّي اكتئابي إلى عدم زواجي حتى الآن، وإلى أن بشرتي "غامقة" مقارَنَةً بشقيقتي الأكثر بياضًا. الحَلُّ يَكمُن بالطَّبع في عريس أنيق وكِريم تفتيح البشرة. لن أفتقدك كثيراً يا أمي.

منذ وعيتُ على الدنيا، كان أبي يقيم شهريًّا حَضراتٍ صوفيَّةً في باحة الڤيلا الخلفية؛ يجلب شيوخه المُفضَّلين وأتباعهم، يبدأ المجلس بخطبةٍ دينية قصيرة عن موضوعات لا تُقلق أحدًا، تليها جلسات الإنشاد والمديح مع شيء من الرقص والطبل. لا يتوقَّف الإنشاد إلَّا عندما يعلن كبيرُ الطَّبَّاخين أن البوفيه جاهز لتقديم العَشاء، فيركض الجميع متسابقين للحصول على

المقـدار الأكـبر مـن اللحـم فـوق طبـق الأرز بالمكـسرات، بعد أن تمتلئ البطـونُ يعـودون إلى دغدغـة القلـوب، ويصدحـون بالإنشاد والمديـح مـرة أخـرى، لكـن بأصـوات مبحوحـة وأجسـاد مُثقَلَة.

كُنتُ أحـضر هـذه المجالـس عندمـا كنـت طفلـةً مـع أبي. كانت روحـي -إن كان هنـاك مـا يُسمَّى بذلـك، ولسـنا مجـرَّد إلكترونات تـدور حـول أَنْوِيَـة- تسـمو معهـم، أحسسـتُ وقتهـا برغـم طفولتي -أو بسـبب طفولتـي- أن هنـاك مَـن هـو أكـبر وأعـلى وأهـمُّ، وأننا في هـذه الجلسـات نرتقـي إليـه حتـى نـكاد نلمسـه.

عندمـا كنـت في التاسـعة، كان مـن حاشـية الشـيخ المُفضَّل لأبي شـابٌّ نحيـلٌ أصلَـعُ، ذو شـامَةٍ عـلى خـدِّه الأيـسر، لا يداري رأسَـه بعمامـة، يرتـدي جلبابًـا زيتيًّـا داكِنًـا عـلى الـدَّوام، وينادونه بالشـيخ طـارق. كان مُختلِفًـا بشـكلٍ مـا؛ يجلـس سـاهِمًا أغلب الوقـت، يصافـح أبي بـبرودٍ، عـلى عكـس الحـماس الـذي يصافحه بـه البقيَّـة (لكونـه صاحـب الشـأن، ومالـك البيـت، وواضـع اللحم عـلى النـار)، يخـرج مـن شروده فجـأةً ليُقاطِـعَ خُطبَـةَ الشَّيخ معترضًـا عـلى نقطـةٍ، مـا ويناقشـه فيهـا، دونمـا مُراعـاةٍ لامتعاض الجميـع، ويظـلُّ يجـادل في تلـك التفصيلـة أو غيرهـا حتـى يتململ الجميـعُ غَضبًـا، ثـمَّ في منتصـف الجـدال، كل مـرَّة، يقـول فجأة "مـش فارقـة"، ويُلـوِّح بيـده ناظـرًا في الاتجـاه الآخـر وكأنَّـه فقد اهتمامـه، تـاركًا مناقشـيه غيرَ مُتأكِّديـن إن كانـوا كسـبوا النقاش أو خسروه. عندمـا يبـدأ الإنشـاد والمديـح كان يُنشِـدُ ويرقـص ويضرب عـلى الـدُّفِّ وكأن أرواح الأولـين والآخريـن كلهـا حضرتـه، وعندما تُـوزَّع أطبـاق العشـاء يعـود لـشروده ولا يَمَـسُّ الطَّعـام برغـم إلحاح

رفاقه. سمعتُ من أبي أن أغلب الحضور كانوا يكرهون وجوده، لكن الشيخ الأكبر كان يُصِرُّ على جَلْبِه مُبرِّرًا أنه "فيه حاجة لله".

غلبني فضولي لأعرف ماهِيَّة تلك الحاجة ذات مرة، فأخذتُ طبقًا من الأرز واللحم وذهبتُ للشيخ طارق الذي جلس وحيدًا تحت شجرة بعيدة عن موائد العشاء، سارحًا في المجهول كالعادة. عندما قدَّمتُ له الطبق بَدَا متفاجئًا، ثم ابتسم، وأخذ قطعة لحم من الطبق ومَضَغَها على مهل. وتلك كانت بداية صداقةٍ قصيرةِ الأَمَدِ بيننا.

سألتُه في الحضرة التالية، بينما يأكل اللحم من طبقي مثلما صارت عادته، عن "الحاجة لله" التي فيه. ضحك باقتضاب، "اسأليه، هُوَّ اللي بيقول عني كده"، وأشار إلى الشيخ المُنغَمِس بكامل كيانه في القصعة، "أنا جاي أضيَّع وقت". ذُهِلتُ، "يعني إنت مش مقتنع باللِّي بيحصل هنا؟"، "مقتنع طبعًا، زي ما القس في الكنيسة مقتنع، والهندوسي الِّلي بيستحمَّى ببول البقر مقتنع، وزي ما كاهن الإزتك كان مقتنع وهو بيدبح بَشَر قربان للشمس، وزي ما العالِم المُلحِد في معمله بيحاول يثبت إن الحياة نتيجة لتفاعلات عشوائية من ذرَّات خبطت في بعضها بالصدفة. أو زيهم كلهم، مش مقتنع". لم أفهم حرفًا ممَّا قال حينها برغم أن كل كلمة انطبعت للأبد في ذاكِرَتي، حدَّقتُ فيه صامِتَةً، فلوَّح بيده والتقط قطعةَ لحمٍ وقال: "مش فارقة".

أفهم الآن أن كان من الطبيعي أن يلاحظ أبي وتابعوه مُحادثاتي المتكرِّرَة معه، وكان من الطبيعي أن يطلب مني تَجنُّبَه فأرفض، فأراه يهمس في أذن الشيخ الكبير يومًا مشيرًا تجاه الشيخ طارق وتجاهي، فيومئ الشيخ، وكان من الطبيعي ألّا يعود لبيتنا مرة أخرى، ويردَّ أبي عندما أسأله عنه أنهم اكتشفوا أنه مجنونٌ ومُدمِنُ مخدِّرات وطلب منه الشيخ ألّا يعود، "وراحت فين الحاجَة لله؟"، "ربنا خَد حاجته".

لم أحضر بعدها الحَضرات إلّا مَرَّةً أو اثنتين، افتقدت فيها شيئَيْن: وجود الشيخ طارق المتمرِّد عن البقية، و-لدهشتي- شعور الارتقاء غير المفهوم بالروح الذي كان موجودًا من قبل. بدلًا من هَزِّ رأسي بنشوة مع دقّات الطبل والإنشاد، عرفت الصداع. توقّفتُ بعدها عن الحضور، وصِرتُ أراقبهم من نافذة غرفتي في طابق الڤيلا الثاني، من أعلى رأيتُهم بوضوحٍ أكثر: مجموعة من الحمقى المُدَّعين، يهمهمون بما لا معنى له، لا يأتون إلا بحثًا عن وجبة عشاء دَسِمَة.

برغم ذلك ظَلَلتُ أفتقد تلك النشوة الروحية القديمة للحضرات، لا بُدَّ من أنها كانت تعني شيئًا، فهل تصبو النفس إلى ما هو غير موجود؟ بالتأكيد هناك شيء ما كان يحدث ثم لم يَعُد هناك، أفسَدَه الحديثُ عنه، أضاعه التفكير فيه.

بحثتُ في المسيحية والهندوسية ودين الإزتك ودين المعمل- الذين ذكرهم طارق في حديثه. وعندما أدركت أنه ذكرهم على سبيل المثال لا الحصر تابعتُ القراءة في -وعن- الأديان

الحَيَّـة والمَيِّتـة بـكل أنواعهـا. مـع كل ديـن جديـد كنـتُ أمـرُّ بالرحلـة نفسـها، شـبه فهـم، شـبه معنـى، شـبه نشـوة، ثـم نظـرة مـن الطابـق العلـوي وبضـع دقائـق مـن التفكـير، ليتبخَّـر كل ذلـك ويتجلَّى خـواء اللعبـة كلهـا، "مـش فارقـة". أظنُّكـم الآن فهمتـم سِرَّ نشـاطي السـابق المبالَـغ فيـه في قسـم "أسـاطير الأولـين"، حيـث كتبـت عـشرات المواضيـع عـن أسـاطير الأديـان القديمـة.

الغريـب أنَّ تَتابُـعَ المحـاولات والإحباطـات لم يـؤدِّ إلى تَبخُّـر الافتقـاد للمعنـى وتَسـامي الـروح، بـل تعاظَـمَ. صِرتُ أفتقـد المعنـى في كل شيء: لمـاذا أقـوم مـن السريـر في الصبـاح؟ لا معنـى لذلـك. لمـاذا أتنـاول الإفطـار؟ لمـاذا أدرس في الجامعـة؟ مـا فائـدة دروس الباليـه؟ مـا قيمـة العلاقـات العاطفيـة؟ لمـاذا أفعـل أي شيء في أي وقـت؟ لا معنـى لـكل ذلـك.

أحيانًـا أشـعر وكأننـي الوحيـدة في هـذه الدنيـا التـي تبـذل دقائـقَ مـن وقتهـا في التفكـير في المعنـى خلـف الأشـياء. فمـن الواضـح أن أي محاولـة تفكـير منطقيـة في أي مُعضِلَـة مـن أي نـوع، لا تسـتغرق أكـثرَ مـن خمـس دقائـق قبـل أن يتبـدَّى -بوضـوحٍ شـديد- أنَّهـا لا معنـى لهـا، وأن أي مجهـود يُبـذَل مـن أجلهـا لا طائـل منـه، سَـعْيٌ سـيزيفيٌّ عَـرض إلى الـلاشيء.

حـاوَلَ مَـن قبلنـا الوصـولَ إلى أهـدافٍ عـدَّة، نجـح مَـن نجـح وفشـل مـن فشـل، والآن أيـن هـم؟ مـا الـذي يُميِّـز مَـن نجـح عَمَّـن فشـل؟ مـاذا يُميِّـز السـعيد عـن البائـس؟

عريسٌ أنيق وكريم تفتيح بشرة، أذكى نساء العالم أنت يا أمِّي.

لكن شكرًا لقوى الكون على رسالتهم، إن كانوا موجودين، منحوني المعنى الذي أحتاج، أعتقد أني فهمت الآن كلَّ شيء؛ المعنى ليس في الشيء، بل في نهايته.

تقول الأخبار إن طقس اليوم مُستقرٌّ، ومن المفترض أن يشهد رياحًا هادئة، والحرارة ليست مرتفعة، وربما تمرُّ سَحابَةٌ أو اثنتان تُخفِّف من حِدَّة الشمس.

أُحبُّ هذا؛ أرغب في شهيق أخير من هواء مُنعِش.

آه، تذكَّرتُ: طالما كان هناك شيء وَدِدتُ كتابته هنا ولم أفعل احترامًا لقوانين المكان، القوانين الاعتباطية عديمة المعنى مثل كل شيء آخر، أظن أنه من حقي الآن اختيار كلماتي الأخيرة، حتى لو عارَضَت قوانينكم.

كس ام حياتي :)".

أغلَقَت الحاسِب. على السرير كان هناك فستانٌ أبيض تُحبُّه.

2.3

في الوقت الذي كان إسماعيل طيَّارة يبكي فيه على الهواء مباشرة، كانت شيري تواجِه صعوبةً في التَّعرُّف على بيتها. هذه المرة الأولى التي ترى فيها الشارع من منظور عينِ الطائر، ما

زالت بحاجة إلى بعض الوقت لتعتاد شكلَ العالَم من المنظور الجديد. لا بأس، لديها كل الوقت؛ فهي قد وُلِدَت من جديد.

عرفت الڤيلا من حمام السباحة على شكل حرف "S" اللاتيني. طالما تفاخَرَت أُمُّها، سيِّدَة المجتمع السكندري الشهيرة "نجوى سراج الدين"، بأنه الأرقى والأكثر حداثَةً من أمثاله بقية ڤيلّات حي "كفر عبده" السكندري الراقي.

هبَطَت في حَذَرٍ مُتَّجِهَةً إلى نافذة غرفتها مباشرة. لم ترغب في الدخول من الباب الأمامي؛ قد تُقابِل أيًّا من أفراد أسرتها الذين سيُحاصِرونها بأسئِلةٍ من قبيل "كنتي فين لغاية دلوقتي؟"، "كنتي لابسة سواريه ليه بدري كده؟". ليس الآن؛ إنها بحاجة للاختلاء بنفسها أكثرَ من أيِّ وقت.

نافذة الغرفة مُغلَقة بإحكامٍ، كَسْرُ الزُّجاج والدخول يبدو حماسًا زائدًا عن الحَدِّ.

عندما وجَدَت نوافذ الطابق الأرضي أيضًا مُغلقَة، تحامَلَت على نفسها، ووَلجَت من المدخل الأمامي، جهَّزَت سيناريوهاتٍ وهميَّةً عِدَّة لتجيب عن أسئلتهم المُرتَقَبَة.

في بهو الڤيلَّا كان أفراد الأسرة مُستَرخين أمام التلفاز، حيث يعلو صوت المذيع عمرو الشربيني الذي يُصيبها بالغَثَيان. تسلَّلَت بهدوء حتى لا يلاحظ أحدهم دخولها. قابَلَت نظراتها عيون سلوى أختها، قالت سلوى "شيري.. قولي لدادة خديجة تجيب لي عصير فريش ساقع"، "حاضر"، ثم تعالَت أصوات بقية أفراد الأسرة يطلبون مزيدًا من العصير، عدا أمها التي

تَمْتَمَت مع هـزَّةِ رأس خائِبَـة الأمـل "برضـو لابسـة أبيض؟ مفيش فايـدة!".

في غرفتهـا، عندمـا وقفـت أمـام المـرآة، شـبكت ذراعَيْهـا فوق رأسـها عـلى شـكل دائـرة كاملـة، رفعـت قدمًـا في الهـواء، وبالأخرى وقَفَـت عـلى أطـراف أصابعهـا، دارت حـولَ نفسـها دورةً كامِلَـةً، مع نهايتهـا قَفـزَت قفـزةً صغـيرة، وعندمـا صـارَت في الهـواء لم تهبط، بـل اسـتمرَّت في الـدوران، وتابَعَـت تأديـة رقصـات الباليـه الـذي امتنعـت عـن دروسـه منـذ بلغـت الثامنـة عـشرة -بعدمـا كانـت أفضـل راقصـة في الإسـكندرية في فئتهـا العمريـة- لعـدم جـدواه مثـل بقيَّـة الأشـياء بطبيعـة الحـال.

ضحكـت شـيري. كانـت سـعيدةً، لم تكـن قَـطُّ بهـذه السـعادة في حياتهـا إلَّا مَـرَّةً واحـدة، قبـل خمسـة عـشر عامًـا بالضَّبـط مـن هـذه اللحظـة، عندمـا حصَلَـت عـلى لقـب "شـيري" لأول مـرة.

كان ذلـك في عيـد ميلادهـا العـاشر الـذي تَزامَـن مـع فـوز أبيها بمقعـده في مجلـس الشـعب لأوَّلِ مـرَّة أيضًـا، المقعـد الـذي لم يفقده حتـى الآن، ولا يبـدو أنـه سـيفعل قريبًـا.

أقـام حفـلًا كبـيرًا للمناسَـبَتَيْن؛ دعـا إليـه أهـمَّ الشـخصيات مـن مجتمـع الإسـكندرية الراقـي، ومَـن تيسَّرَ منهـم مـن القاهـرة.

كانـت ترتـدي فسـتانًا أبيـض جميـلًا، بالضبـط مثـل هـذا الـذي ترتديـه الآن. دهنتهـا أمُّهـا بأطنـان مـن الكريمـات ومسـاحيق التجميـل، حتـى صـارت بشرتُهـا أَفتَـحَ بدرجَتَـيْن. في منتصـف الحفـل أصرَّت "سـندس" عـلى تشـغيل أغنيـة تـتر برامـج فوازيـر "شـيريهان"

الرمضانية التلفزيونية؛ ما أثار اندهاش الجميع، وحفيظة الأم، لكنها لم تأبَه.

في منتصف الحديقة رقَصَت. رقَصَت مُؤدِّيَةً استعراض شيريهان في الفوازير كاملًا، أدَّته بلطافة ونعومة جعلت قلوب الحاضرين ترفرف معها، شعرت وقتها بأنها تطير.

عندما انتهت من رقصتها سمعت أجمل لَحنٍ من التصفيق وصيحات الانبهار في حياتها، لدرجة أن أمَّها نفسها كانت فخورةً بها إلى حدٍّ ما. منذ تلك الليلة أطلقوا عليها "شيري" (اختصار "شيريهان")، وهو اسم أحبَّته وتمسَّكت به جدًّا، حتى بات اسمها الحقيقي (سندس) منسيًّا؛ لا يظهر إلَّا في الأوراق الرسمية فقط.

اليوم طارت شيري مرة أخرى، ولكن هذه المرة طارت حقيقةً لا مجازًا.

لم ترقص طويلًا أمام المرآة؛ جسدها مُرهَق، قضت ساعات تطير فوق البحر مع النوارس، النوارس! هناك سِرٌّ ما يتعلق بهذه الكائنات.

ألقت جسدها المُنهَك على السرير؛ أغلقت جفونها، لكن من أين يأتي النوم هذه الليلة؟ عقلها لن يتركها ثانيةً لترتاح، لكن على الأقل لا يصاحب فيضان الأسئلة في أعماقها الآن هذا الشعور الثقيل ذو القبضة السوداء التي تعتصر قلبها، لا بُدَّ من أن هذا الجزء منها وقع ومات اليوم، بينما طارت هي.

لماذا طارت؟ لِمَ هي؟ لماذا الآن؟ لا يبدو الأمر عبثًا لا معنى له مثل بقية الأشياء، لا يمكن أن يكون، ليس بهذا الشكل، في هذا التوقيت! هل هي العلامة التي كانت تبحث عنها؟ هل جاءتها الإجابة أخيرًا من القوى التي تحكم الكون؟ كيف؟

إنها النَّوارس.

انتفَضَت شيري من رَقدَتِها مع الفكرة الأخيرة، ومع عُنفِ انتفاضتها ارتفَعَت في الهواء بضعةَ سنتيمترات، بسبب المفاجأة أطلقت صوتًا خائفًا قبل أن تتذكَّر أن هذا صار أمرًا طبيعيًّا، إذا أمكن وصفه بالطبيعي: الطبيعي الجديد.

خافت أن تجذب صرختها غير المحسوبة أحدَهم ليطمئنَّ عليها، فعادت سريعًا إلى سريرها وانكمشت، ولمَّا مرَّت دقائق ولم يأتِ أحدهم؛ تجاهَلَت شعور خيبة الأمل المحدود في الخلفية، وعادت إلى التفكير في النوارس.

إنها النوارس، لا بُدَّ من أنها المسؤولة عن شكل ما، ذلك النورس الذي اختفى تحت سطح الماء، تلك كانت الرسالة، وهي لم تفهمها بدقَّة، الرسالة كانت تخبرها بوجوب الموت لتأتي الحياة، بالطبع، بالطبع، يبدو الأمر واضحًا جدًّا الآن، يبدو أكثر وضوحًا من الكون كله؛ مثلما صُلِبَ المسيح، مثلما صلب "أودين" نفسه، مثلما قطِّع "ست" أخاه أشلاءً؛ كان عليها، مثلهم جميعًا، أن تموت لتُبعَث.

الفكرة كانت أقوى وأجمل من أن تتحمّلها؛ نهضت وصارت تدور حول نفسها في غرفتها، تجلس وتنهض وتطير وتنام. إنه

التطهير، إنه البَعثُ، ماتت سندس، ماتت شيري، أصبَحت الآن روحًا جديدة، روحًا نقيَّةً كامِلَةً، طائرة.

لكن، لماذا؟

لم تَعُد الأمور "مش فارقة"، صارت فارقة بشكل ما هذه المرة. هذه حياة جديدة لا مجال فيها للهراء، لكل شيء معنى، هناك دور كبير بانتظاري، دور كبير جدًا، أكبر من كل شيء، أكبر من الحياة.

إنها النوارس.

بالطبع هي النوارس، الأمر كله واضح، بعدما وَقعتُ من فوق الفندق طاز بجواري نورس، أذكره بوضوح، أذكرها بوضوح، كانت أُنثى، نعم، كانت أنثى، إنها النورس الأم، هي مَن بعثتني ومنحتني الأجنحة، هي مَن رفعتني فوق الآخرين؛ لأن دوري القادم مُهمٌّ وكبير.

ما هو دوري القادم؟ لا أعرفه بالتحديد، لكني أدركه، في مكانٍ ما بداخلي أدرك كل شيء، كل شيء، أخبرتني النَورسُ الأمُّ بكل شيء، ولكني سأتذكَّر التفاصيل في الوقت المناسب. أذكر الآن مثلًا أنها أمرتني بأنه يجب عليَّ تبليغ العالم، أجل، هذا ما قالته لي النورس الأم، روح الوجود، يجب أن أبلِغَ العالَم، أبلِغُه بماذا؟ لا يهمُّ، سأشرع في التبليغ، وستُمليني الأم ما أنا بحاجة إلى قوله فور أن أشرع في قوله.

هرعَت نحو جهاز الكمبيوتر في ركن الغرفة، ولمّا انطلق هدير التشغيل سمعت صرخات فرح وجزع وضحكات طويلة، نظرت من النافذة ورأت أفراد أسرتها يطيرون فوق حمّام السباحة، نظَرَت إلى مرآتها، رَأَت نفسها ببشرَتِها القمحية التي لم تعد تبدو سيِّئةً إلى هذا الحَدِّ وفستانها الأبيض. رأت على ظهرها جناحَيْن من الريش الأبيض! ابتسَمَت.

2.4

سجَّلَت الدخول في المنتدى، للمرة الأخيرة بالفعل هذه المرة. ولأن مزاجها كان رائقًا فتحت الرسائل الخاصة. الأولى كانت من "The_Godfather_2211" كبير مشرفي المنتدى، بحروف ضخمة لونها أحمر، كان يخبرها بأنه مسح ردَّها الأخير لاحتوائه على ألفاظ نابية، ولولا تقديره لحالتها النفسية لَطَرَدَها من المنتدى.

الرسالة الثانية كانت كالعادة من "أزرق_هو_لون_ثيابي_56" يخبرها بمدى قلقه عليها، وكيف كان يبكي طوال الوقت خوفًا من أن تنفِّذ تهديدها، وأنه لو كان يعرف وسيلة اتصال بها لحاول أن يتواصل معها بشكل أكثر فاعليَّة ليساعدها على تجاوُز المحنة والابتعاد عن التفكير في الانتحار.

لم تُبالِ بأيِّهما، كلاهما تفاصيلُ باهتةٌ من عمرٍ انقضى بلا مكانٍ في الحياة الجديدة، لكنها لم تمنع ابتسامة صغيرة من الارتسام على وجهها بسبب الرسالة الثانية.

كتَبَت في "فليُخرج كُلُّ منّا ما في نفسه" أقصرَ رَدٍّ لها هناك على الإطلاق:

"عرفت الحقيقة،

وسأخبر بها الجميع.

تعالوا إلى:

http://www.what_the_mother_larus_had_told_me.blogspot.com ".

2.5

كتَبَت في مُدوَّنَة "ما أخبرتني به الأم"، بحروفٍ سوداءَ سميكة، على خلفية عبارة عن صورة تُظهر البحر والسماء وطيور النورس تطير في الأفق:

"مرحبًا.. أنا رشا.

أو أنا مَن عرفتموني باسم رشا. لا أدري مَن اقترح الاسم ولماذا، فجأةً وجدتُ الجماهير المُتجمِّعَة أسفل الفندق تناديني به، على أي حال... لا يهم؛ فقد تخلَّيتُ عن الأسماء الأرضية كلها. أنا الآن مولودة جديدة، نقيَّة، طاهرة، بلا هُويَّة أو ممتلكات أو متاع يُثقِلني.

أنا كاهنة النورس الأم روح الوجود، وابنتها، وكذا بوسعكم أن تكونوا جميعًا، فقط إن اتَّبعتموني، إن اتَّبعتموها.

أكتب هذه الكلمات من ظُلمَةِ غرفتي المُغلَّقة، بينما يُحلِّق الناس في الخارج. أسمع من مكاني صيحات الانبهار وبكاء الخوف وضحكات الفرح، أرى من شرفتي النّاسَ يحتضنون بعضهم في الهواء، ويرقصون الفالس على سجّادة كُحليّة مُرصَّعة بجواهر هي النجوم.

يحتفل الجميع، إلّا أنا، رغم أنني الأكثر سعادةً والأجدر بالاحتفال؛ ذلك لأني كُلِّفت بدور أَهمّ، دور أعظم، لا يحتمل أن أُضيِّع من وقتي دقيقةً في الاحتفال، حُمِّلت رسالة وعليّ التبليغ.

قبل بضع ساعات، في حياتي القديمة، كنت قد يَئِستُ من هذه الحياة أيّما يَأسٍ، وقرَّرتُ أن أنهيها إلى الأبد. بلا تردُّدٍ قَفزتُ، مثلما رأيتموني على الشاشات، وأظنُّني مِتُّ بالفعل في الطريق إلى الأرض، فقط لتتلقَّفَني النورس الأم، وتَهَبَ لي حياةً جديدة، حياةً نقيَّةً من شوائب الماضي وأحزانه وتفاهاته، حياة لها معنى.

اختارتني الأم، ومنحتني هِبَتَها؛ جعلتني أَوّلَ مَن طار، جعلت لي أجنحة لا تُرى، مثلما جعلت لكم جميعًا بعدها بساعات.

اختارتني قبلكم فقط لأن دوري هو الأكثر أهمية في المرحلة القادمة من هذه الحياة: المرحلة النّورَسيّة.

قد يقول بعضهم إنني لم أكن أوّلَ مَن طار، وإنما كان مُدرِّس الألعاب. هذا حقيقي، ومنطقي، قالت لي الأم، من بين كثيرٍ ممّا قالت، إنها أعطت الأجنحة الأولى لشخصٍ تافهٍ

اختارته عشوائيًّا، فقط للتجريب، فهذه كانت النسخة الأولى من الأجنحة الخَفيَّة التي خلقتها سيدتي. وعندما اطمأنَّت لنجاح التجربة، وضعت أجنحتها عليَّ، أنا، حامِلَة أجنحتها ومبلغة رسالتها والناطقة باسمها والداعية إلى جماعتها. منحتني الأجنحة الحياة، واختصَّتني بالحقيقة، كل الحقيقة، وجعلت في قلبي النور، وعلى ظهري حِمل التبشير".

سمِعَت ضحكات معتز وسلوى عالية، حتى أمها يبدو أنها تشاركهم الاحتفال، أحسَّت بالرغبة في مشاركتهم، لكن عليها أن تُنهي التدوينة أوَّلًا؛ الأهم، فالمهم.

تابَعَت الكتابة:

"بينما تحتفلون وترقصون وتُحلِّقون فوق الأسطح والشوارع، هل توقَّف أحدكم لوَهلَةٍ وسأل نفسه عن السِّرِّ الذي حمله عاليًا بين النجوم؟ مِن أين جاءتنا هذه النعمة؟ مَن وهبنا إيَّاها؟ وهل هي دائمة، أم مصيرنا هو العودة إلى التراب الذي طالما عشنا فيه؟

احتَفِلوا وارقصوا واشربوا وتضاجعوا؛ لا جُرمَ عليكم. لا ترغب النورس الأم إرادة الوجود بكم شرًّا، بل هي تريدكم سعداء مبتهجين، مُحلِّقين. لكن يجب أن تعلموا أن هذه ليست إلا هدية، نعمة من الأم، إن شاءت رفَعَتها مثلما أنزَلَتها بمشيئتها، ومثلما جَعَلَت لكم في السماء سبيلًا ستترككم لتقعوا على أنوفكم بين الوحل، مثلما كنتم ومثلما كان آباؤكم وأجدادكم قبلكم.

لتَجَنُّب هذا المصير؛ اتبعوني، اتبعوها.

سلِّموا أرواحكم للنورس الأم، تقبَّلوها مُخلِّصَتكم المنتظَرة. ومثلما وهبتكم الأجنحة ورفعتكم إلى السماء الأولى، سترفع منكم المؤمنين بها إلى السماء السابعة. ستضمُّهم إلى جوارها، وسيُحلِّقون في كَنَفِها خالدين مُخلَّدين. أما أولئك ذوو القلوب المغلقة والعقول المتقلِّصة، من الطين وإلى الطين يعودون.

تابِعوني، وسأخبركم بما قاله النورس.

للاشتراك في قائمتي البريدية والحصول على تنبيهاتٍ على التدوينات الجديدة، برجاء وضع بريدك الإلكتروني هنا

للرسائل والاستفسارات: priestessoflarus@hotmail.com".

رغم أن جسدها كله كان ينادي بالنوم، فإنها تجاهَلَت الإرهاق وخرجت من النافذة، حلَّقَت هابِطةً إلى الحديقة. لكن أحدًا لم يكن هناك.

2.6

من: Assem_ElShenawy_72@yahoo.com

إلى: priestessoflarus@hotmail.com

2005/09/28 - 04:32 ص

"العزيزة meaningless412

أعتذر عن مناداتك بهذا الاسم؛ لم أعرفك بغيره طوالَ فترة مشاركتك في المنتدى. رغم الأسى الكامن في معناه، أو ربما يجدر بي القول الكامن في "لا معناه"، فإنه لطالما شَكَّل لي مصدرًا -لا أظن بوسعِكِ تَخيُّلَه- من العواطف الجياشة، عواطف لم أكُن أظنُّها بداخلي، لكن يبدو أنني ممتلئ بها حتى الحافة. والسبب أنه كان دومًا مرتبطًا بأعذب الكلمات وأرق الردود، والكلمات التي تحمل ذلك الشجن العذب الجميل الذي يغمرني عند قراءة ما تكتبين، ما كنتِ تكتبين. آسف على مخاطبتك باسمٍ هَجَرتِه، ربما إن عرفت اسمك الحقيقي سأُحبُّ مناداتك به أكثر من أي اسم آخر.

أنا مَن تعرفينه باسم "أزرق_هو_لون_ثيابي_56"، ذلك الشاب اللحوح الذي كان يُزعِجُكِ برسائله التي قَلَّما أَجَبْتِها في المنتدى. أتفهَّم هذا تمامًا، فلا بُدَّ من أن فتاة بمثل جمالك ورقتك ورهافتك وشخصيتك القوية الذكية المثقفة- تتلقَّى مئات الرسائل من المُعجَبين وطالِبي الصداقة البريئة أمثالي، من أين لك بالوقت الكافي للرَّدِّ على الجميع؟ هنيئًا للمحظوظ -إن كان هناك واحد- الذي ينال ردًّا على كل رسالة.

يمكنك أن تناديني بعاصم، عاصم الشناوي، هذا إن رغبتِ في الردِّ أصلًا، أَعِدُكِ بالتراجُع والصمت إن طلبتِ مني هذا، وإن كنتُ لا أحبِّذ أن تفعلي.

قرأت يا عزيزتي تدوينَتَكِ عمَّا قالته لك النورس الأم روح الوجود، قرأتُها مرَّةً ومرَّتَين وعشر مرات، ربما قرأتها مائة مرَّة

في الساعات القليلة السابقة. وأعترف بأنني حتى الآن لم أستطع هَضمَها بالكامل.

أعمل في السعودية وأقيم هناك، لكنَّني في الأصل من الصعيد، من أسيوط. وبحسب ما رأيت وسمعت، لم يَطِر الناس في السعودية ولا في أسيوط، ولا في أي مكان في العالم إلا في سَكندريَّتِك الطيبة الغريبة. رفيقي في السَّكَن سَكندريٌّ، شاهَدْتُ معه عبر مكالمات الڤيديو أفرادَ أسرته يطيرون في بيتهم، ولكنه على الرغم من ذلك -مثلي ومثل الجميع- لا يُحرك طرفًا إلا بإذن الجاذبية وموافقتها. عرفتُ كذلك من أسرتي عن بعضٍ من أهل مدينتنا يعيشون في الإسكندرية، مات منهم رجلٌ وابنه؛ قفزا معًا من النافذة لينضمَّا إلى الطَّائرين، ولم ينجحا. يبدو أن ما أصابكم، أو ما منَحتكم إيَّاه النَّورسُ الأمُّ، جعلته حَصْرًا على السكندريين في بلدهم.

أنا أُصدِّقُكِ أيتها الصديقة العزيزة، أصدقك لأنني أعرفك، أعرف أن هذه الروح الملائكية لن تقول إلا الصدق؛ إن قُلتِ إن الشمس لم تشرق اليومَ سأُصدِّقك وسأبحث عن تفسير آخر لهذا الضوء الأصفر الحارق، فما دُمتِ قلتِ فقد صدقتِ.

لكنني أعترف بأن الغيرة تملؤني، وربما تملأ قلوب الجميع أيضًا. إنكم تُحلِّقون، تعيشون الحلم الذي راوَدَ كُلَّ إنسانٍ مَرَّ على هذه الأرض، لو لم يَغِرْ منكم الخَلقُ ويحسدوكم على الطيران، علامَ سيفعلون؟ لا بُدَّ من أن هناك حكمة. لا شَكَّ في هذا، لا أظُنُّ النورس الأم اصطفَت السَّكندريِّين اعتباطًا. أتمنَّى

أن تُفصحي لنا عن هذه الحكمة قريبًا، وتخبرينا إن كُنَّا سنطير نحن أيضًا مثلكم.

اعذريني على الإطالة، أتمنَّى أن أنال منك شَرَفَ الرَّدِّ، وإن لم يحدث، فمتابعة كتاباتك التالية عمَّا أخبرتك به النورس الأم سيكون لي خيرَ عَزاء.

مُرفَقٌ برسالتي لوحة صغيرة مُرتَجَلَة، رسمتها بالأمس بِوَحيٍ من مشهد طيرانك الجميل وتدوينتك التي لَمسَت روحي، أتمنَّى لو أعجبتك.

صديقك، دائمًا وأبدًا: عاصم الشناوي".

***

قَرَأت الرسالة في ظهيرة اليوم التالي، بعد استيقاظها مباشرة.

كانت الرسالة الثالثة، بعد أولى ساحِرَةٍ وثانية واعِظَة، لم تقرأ أيّهما حتى نهايتها.

بعدما قرأت رسالة عاصم كاملة، تذكَّرَت أن النورس الأم أخبرتها بأن الطيران سيكون منحةً حَصريَّةً للسكندريين في الإسكندرية فقط، مُؤقَّتًا، كامتحانٍ أوَّلي يُميِّز المؤمنين حقًّا من الكافرين والمنافقين. تأكَّدَت من تعديل تدوينتها لتضمين هذه المعلومة.

فتحت الصورة المرفقة؛ لوحةٌ بقلم رصاص، وخطوطٌ متعرِّجة على سكيتش رسم، مُلتَقَطَة بكاميرا رقميَّة متوسطة الجودة، تُظهر فتاةً تطير برفقة طائر في السماء بين مبنى عالٍ

وشاطئ البحر، لا تُشبِهها الفتاة، ولا يشبه الطائرُ النّورسَ، ولا يشبه المبنى الفندق، لكنها لم تهتَم، تأمَّلَت اللوحَةَ طويلًا.

نهَضَت، خَلَعَت فستانَها الأبيض الذي أتمَّ على جسدها أربعًا وعشرين ساعة؛ اغتسلت، تبادَلَت همهماتٍ على سبيل تحيَّة الصباح أو المساء مع أختها التي قابَلَتها مصادفةً في المطبخ، خلال تحضيرها شطيرة للإفطار. عادت إلى غرفتها، وقرأت الرسالة مرة أخرى بينما تأكل، وتأمَّلَت اللوحة.

وبَكَت.

***

من: priestessoflarus@hotmail.com

إلى: Assem_ElShenawy_72@yahoo.com

2005/09/28 - 02:14 م

"(أيُّها الناس، اسمعوني جميعًا، سأخبركم بحكايةٍ عن شابٍّ صغيرٍ عاش في عالم أزرق، كل ما يراه كان أزرق، طوال الليل والنهار، مثلما كان هو نفسه كذلك. كان منزلُه أزرقَ، بنافذة زرقاء صغيرة، وسيَّارتُه زرقاءَ، وكُلُّ شيء بالنسبة إليه أزرق. لأنه لم يكن لديه مَن يتحدث إليه).

العزيز أزرق،

هل تعرف هذه الأغنية؟

غنَّاها فريق أمريكيٌّ مغمور في نهاية التسعينيات يُدعَى "إيفل 65"، باعت الأغنية مائتَيْ نسخة بعد صدورها، وسرعان ما نَسِيَها الجميعُ، وعدَّها الفريقُ فاشِلَةً مثل بقية أعمالهم. لكنَّ مُصادفةً قادت مُشغِّل أغانٍ في إذاعة محليَّة إلى تشغيلها في لحظة ملَّ فيها من أغاني المحطَّة المتكرِّرة، وفي خلال أيام أصبحت من أكثر الأغاني نجاحًا في جميع أنحاء العالم.

مصادفة بسيطة حوَّلَتهم من بضعة شباب مَنسيِّين إلى كياناتٍ أكبر من الحياة. أحب هذه الحكاية، وأحب اللون الأزرق.

أهلًا بك عزيزي أزرق، أفضِّل مناداتك بهذا الاسم، وإن كنت لا أُفضِّل أن تناديني بـmeaningless412 مرَّةً أخرى. السبب ببساطة أنك ما زِلتَ أزرق، أمَّا أنا، فلم أعد meaningless قطُّ، بل العكس تمامًا.

من بين مئات رسائل المؤمنين الجُدُد المتتالية، كانت رسالتُكَ على قلبي هي الأطيب والأجمل، وكذا كانت على سيِّدتي النورس الأم؛ تُقرِئُكَ السَّلام وتُبشِّرك بطيرانٍ قريب، لكن في الوقت المناسب. فقط كُن من المؤمنين المُقرَّبين الصابرين، تابِعْ رسائلها عبر تدويناتي، راسِلْني باستمرار بما يدور في خاطرك، ولا تقلق.

أحببتُ لوحتك الجميلة، سأطبعها وأُعلِّقها على حائط غرفتي، سَلِمَت يداك.

كُنْ من المُبشِّرين يا أزرق، انشُرْ الكلمة وتحدَّث عن النورس الأم، حدِّث مَن يهمُّك أمره وتتمنَّى له الخير والخلاص.

وتعال، تعال إلى الإسكندرية، حيث بدأ كلُّ شيء، وحيث سينتهي كل شيء.

تحياتي لك

كاهنة النورس".

2.7

رَصُّ الأطباق الممتلئة حتى حافَّتها بالأطعمة الساخنة بينما يطير المرء، كان أمرًا أكثر من صعب، خصوصًا أن الطيران ظاهرة لم يعرفها الناس إلَّا منذ عدَّة أيام. تمنَّى النادل لو كان بوسعه خدمة ضيوف النادي بالطريقة العادية، ماشيًا على قدميه، لكنه لا يستطيع أن يخالف تعليمات إدارة النادي. على نادي سبورتينج أن يحافظ على مكانته كواحدٍ من أعرق النوادي في المدينة وأرقاها، عليه أن يكون مُبتكِرَ الصّيحات الجديدة في خدمة مرتاديه، وليس مُتَّبِعَهَا. وعندما اتَّضح أن بعض العاملين لا يستطيعون الطَّيرانَ كزملائهم؛ نُقِلَت خدمتهم إلى حيث لا يحتكُّون بالأعضاء؛ ما سينعكس حتمًا على رواتبهم في الشهور القادمة. نجح النادل أخيرًا في وضع الأطباق كلِّها في سلام، لكن قبل أن تخرج منه زفرة الارتياح، انسكب من كأس الماء المثلج

بعضٌ من محتواه على رأس الرائد معتز أبو العز الذي كان منغمسًا في حَكي أحداث "الهروب الكبير" لأسرته.

قَطَعَ مُعتز حديثه؛ نظر إلى النادل نظرةً خاوية، انخفض الأخير بسرعة مُعتذرًا بألف "آسف" في الثانية، طار معتز بحركة مباغتة ممسكًا في خناق النادل.

"مش تحاسب يا خول"؟

شهقَت مدام نجوى وغطَّت فمها بِيَدٍ يُزيِّنها خاتمٌ يلمع حَجَرُه أكثر من قمر هذه الليلة، "موزو! عيب!"، لكن موزو لم يأبه لمشاعر أمه المرهفة، وأخذ يسبُّ النادل ويسرد تاريخ أسرته الجنسي والعقلي المعيب. عندما صفع معتز النادِلَ، أخرج صوتُ الصَّفعَة شيري من شرودها، بعدما كان عقلها في غرفتها، حيث تتمنَّى أن تكون الآن، تكتب عمَّا تخبرها به النورس الأم روح الوجود، وترد على رسائل المؤمنين والمُحبِّين. "معتز، حرام عليك، سيبه"، فكَّرَت أن تنهض فتَحول بينه وبين ضحيته، لكن محمد، أخاهم الأكبر، نهض بتثاقُلٍ وحال بين أخيه والنادل الذي كان يبكي الآن.

جاء مُشرِفُ الوَرديَّة المسائية طائرًا على عَجَل، إن جاز التعبير، واعتذر لمعتز باشا على خطأ عامله الفادح، مؤكِّدًا أن النادل سيُعاقَب على إهماله، وأن عشاء الأسرة هذه الليلة سيكون هديَّةً من النادي، على سبيل الاعتذار، لأسرة "جلال باشا أبو العز"، "هو صحيح جلال باشا مجاش مع حضراتكم ليه؟ عسى أنه يكون بخير".

بعدما انتهى الموقف، قال معتز لأخته الصغرى: "لمَّا أكون بتكلم مع حد، صوتك ميطلعش، فاهمة والَّلا لأ؟"، أشاحت عنه وجهها مُغاضبة. تجاهَلَها متابعًا سَرْدَ حكايته:

"المهم، بعد ما مأمور سجن الحضرة قال محدِّش حيخرج الحوش لغاية ما نركِّب فيه سقف، قال يمكن يحصل شغب واعتراض من المساجين وبتاع، وأمر العساكر يستعدُّوا. بس محصلش أي دوشة، وقال إن ده طبعًا بسبب هيبته واحترامه وسط المساجين. (وضحك معتز ضحكة قصيرة ساخرة). المهم، كل المساجين يومها قالوا عايزين نستحمَّى، متعرفش يا أخي نزلت على جِتَتهم المعفِّنة النضافة دي منين، قال لك سيبوهم براحتهم، مانبقاش مانعين عنهم الحوش والحمَّام كمان. محدِّش كان مركِّز مين داخل ومين طالع، كده كده هُمَّا محبوسين بألف ضَبَّة ومفتاح. بس المساجين بيدخلو الحمام مابيطلعوش. بعد ساعة سمعوا صريخ! في إيه يا عم الحاج؟ طلع إن تحت شباك الحمام اللي في الدور السادس كومة جثث مساجين عريانين متكوِّمين فوق بعض...".

صدر عن مدام نجوى صوت مُعترِض، ووضعت ما تأكله جانبًا.

"مش على الأكل الحكاوي المقرفة دي".

تابع مستمتعًا بِرَدِّ فعل أمه:

"أتاري الحديد اللي قافل شباك الحمام كان مصدِّي ومتآكل؛ ولاد القحبة كسروه بإيدهم ونطُّوا، منهم اللي طار وهرب، ومنهم اللي وقع على راسه ومات".

قـال محمـد: "أنـا حاسـس مـن الأول ان الطـيران ده مصيبـة سـودا".

قالـت مـدام نجـوى: "دي حاجـة تخـوِّف خالـص. المجرمـين الـلي هربـوا دول حيروحـوا فـين؟"، "متخافيـش يـا مامـا، مـش حتشـوفي منهـم حـد في سـبورتينج ولا كفـر عبـده ولا في أي حتـة بتروحيهـا، احنـا متأمِّنـين كويـس، آخرهـم يرجعـوا ياكلـوا في بعـض، في شـوارعهم الوسـخة الـلي جابتهـم". "مـوزو! لانجويـدچ! عيـب بقـى!". هَـزَّ مـوزو رأسـه متجاهِـلًا أُمَّـه، "تفتكـر إيـه السـبب يـا دوك؟". بشـوكة لامباليـة، قلَّـب محمـد في طبقـه، "في الطـيران؟ آي هـاڤ نـو آيديـا، ومظنِّـش أي حـد عـارف حاجـة. كُلَّهـا يـوم والَّـلا اتنـين وتلاقـي علـماء مـن كل حتـة في العـالم بيـدوَّروا ورا السـبب، وحنعرفـه سـونَر أور ليـتر".

قالـت الأم بينـما تتأكَّـد أن مـا تناولتـه مـن طعـام لم يُلطِّـخ طـلاء شـفتيها، عـبر النظـر في مـرآة صغـيرة: "تفتكـر؟ مـش حاسَّـة إن فيـه سـبب علمـي، لـو فيـه تفسـير حيكـون دينـي أو سـحري أو حاجـة زي كـده"، "انتـي حتعمـلي زي المجاذيـب الـلي بابـا سـهران معاهـم في البيـت!"، "متفكَّرنيـش... كل مـا افتكـر الـلي بيحصـل في الڤيـلا دلوقـت رُكَبـي بتترعـش، يامـا قلـت لـه يـا جـلال روح لشـيوخك جوامعهـم، مـش تجيبهـم بيتـي بمجاذيبهـم، تقولـش بكلِّـم حيطة!"، "شـيوخه بيقولـوا إن الطـيران معجـزة مـن معجـزات أوليـاء الله الصالحـين بتـوع اسـكندرية"، "والله يـا ميمـو أنـا ممكـن أصـدَّق أي حاجـة، بـص حواليـك... بنـي آدمـين دول ولا دِبَّـان؟ ماعـادش فيـه حاجـة غريبـة بعـد المنظـر ده".

بِفَـمٍ ممتلـئ بالطعـام قـال معتـز: "يمكـن تكـون البومـة"، "بومة إيـه؟"، "صفحـة كـده ع النِّـت عاملاهـا واحـدة مجنونـة، بتقـول ان الطـيران منحـة مـن البومـة، بتقـول عـلى نفسـها كاهِنـة البـوم الأولى". قالـت شـيري: "قصـدك النـورس".

صمـت الجميـع، نظـروا إليهـا مندهشـين، وكأنهـم اكتشـفوا لِتَوِّهـم وُجودَهـا معهـم. انكمشـت في مجلسـها هربًـا مـن نظراتهـم المُتفحِّصـة، ندمـت عـلى تدخُّلِهـا. تلـكَّأَت نظـرةُ معتـز عليهـا قليلًا، "وانتـي عرفتـي منـين؟"، "سـمعت صحـابي بيتكلمـوا عنهـا"، قالـت الأم: "وانتـي أصـلًا ليـكي صحـاب!".

"ماعنديش صحاب، بس عندي أتباع، عندي مؤمنين".

لكنهـا كلـمات لم تخـرج مـن فمهـا، وإنمـا نهضـت دون تعقيـب، تناوَلَـت حقيبتهـا وذَهَبَـت.

"مـش قلنـا يـا مامـا تِخفِّفـي كلامـك شـوية مـع شـيري؟"، "بـس اسـكت إنـت كـمان، دي بنـت قليلـة الأدب".

3

المُهَندِسُ والشَّيطان

3.1

ذاتَ ليلةٍ صيفيَّةٍ كئيبةٍ، قبل خمس سنوات، قابل المهندس علي الشيطانَ لأوَّل مرة.

حدث ذلك كالتالي:

انقطع التيار الكهربائي في الثانية صباحًا عن الحي، مات جهاز التكييف، وشيئًا فشيئًا ارتفعت الحرارة ورطوبة الغرفة المُغلَقَة بإحكام، حتى استيقظ المهندس الشاب فجأة غارقًا في العرق. شعر فورًا بوحدةٍ عاتِيَةٍ تكتسح كيانه، وكأنه الأخير من

فصيلةٍ مُنقَرِضةٍ، ثَقُلَ قَلبُه حتى كاد يسقط في معدته، وضاق تنفُّسه.

عندما لَمَسَت يَدُه جسدَ زوجته النائمة بجواره، تضاعف شعوره بالوحدة. نهض من السرير، تحسَّس طريقه للحمَّام في ظُلمَةٍ كأنها ظُلمَةُ الخَلقِ الأولى، ارتطمت أصابع قدميه العاريتين بقطع الأثاث ثلاث مرات، جَزَّ على أسنانه كاتمًا صيحةً متألِّمةً في المرة الأولى، وحانِقَةً في المرة الثانية، ويائسة في الثالثة، وكَتَمَ صيحةً رابعةً بعدما لم ينزل من الصنبور ماءٌ.

خلع فانلَّةً غارقة في العَرَق وألقاها جانبًا، مضى في اتجاه الشرفة ملتمِسًا هواء الليل الطبيعي، لكن قبل أن يصل داهَمَته نوبَةُ حُزنٍ ثقيلةِ الوَطء، فانهار على أريكة قريبة، تلك التي تُحرِّم زوجتُه الجلوسَ عليها إلَّا لاستقبال الضيوف المُهمِّين، دفن وجهه بين كَفَّيه وأخذ ينتحب، تأكَّد من كتم نهنهته حتى لا يوقظها.

وعندما انتهى فتح عينه، مَسَحَ دموعه، وكان الشيطان هناك.

قال له: "أنت فاشل، وحتفضل فاشل لحد آخر لحظة في عمرك". ثم ضحك ضحكة حادَّةً طويلة، واختفى. وكان ذلك لقاءهما الأول.

لم يخبر زوجته عن الشيطان، وهي بدورها عَزَت بُكاءه في الليل وما تبعه من صلاة طويلة وقراءة للقرآن، إلى خبر رسوبه الثالث في امتحان الماجستير الذي تلقَّاه باكرًا في ذلك اليوم،

وأخبَرَت أُمَّها في محادَثَةٍ هاتفيَّةٍ في اليوم التالي، لم تهتم خلالها بخفض صوتها لكي لا يسمعها "كويِّس ان طلع منه أخيرًا رد فعل، بدل البرود الغريب اللي طهَّقني في عيشتي. بس مش عارفة أقول له إزاي يا ماما يوطِّي صوته وهو بيعيَّط بالليل؛ مش بعرف أنام منه".

مرَّت الشهور التالية بلا ظهور جديد للشيطان، ورغم أنه لم يَنْسَ اللقاء الأول، فإنه جاهد لقَمْعِه في أعماق عقله. نجح في ذلك نسبيًّا، وظلَّت محادثاته مع أسرته وزملائه وأصدقائه تدور في فَلَكِها الطبيعي؛ عن تقصيره في الدراسة بدليل رسوبه الثالث، وتَقاعُسه في العمل، وكيف يجدر به أن يعمل بجدٍّ أكثر، وكيف أنه لا يراعي مُتطلَّبات بيته المادِّيَّة كما يَجدُر بمهندسٍ في مركزه. كان يوافقهم جميعًا بالطبع. وذات مساء شتويٍّ غزير المطر، كان يقود سيارته عائدًا من عمله، بعد وَصلَةِ تقريعٍ طويلة من مديره المباشر أمام زملائه ومرؤوسيه؛ لارتكابه خطأً تصميميًّا في حسابات الأحمال كان يمكن أن يؤدِّي إلى انفجار محوِّل جهد عالٍ، مُكلِّفًا الشركة الملايين، وربما أرواح بعض العمال.

يومها رافَقَه الشيطان طوال رحلة العودة جالسًا في المقعد المجاور؛ ينظر في عينيه مباشرة ويبتسم في سخرية. ردَّد الباشمهندس الآيات والدعوات محاولًا تَجاهُلَ عيون الرجيم الحمراء، لكن حضورها كان كاسحًا؛ هَمَسَ الشيطانُ: "فاشل".

تعـدَّدَت بعدهـا زيـارات الشـيطان وصـارت أكـثر انتظامًا، على العكـس مـن خيـوط حيـاة عـلي التـي أخـذت تنفلـت من يده واحـدًا بعـد الآخـر.

لم يَـرُد عـلى تعليقاتـه السـاخرة، وتحـاشى النظـر إليـه مباشرة؛ حافَـظَ عـلى رَباطَـة جأشـه، أو مـا حسـبها كذلـك، أمـام الجميع، إلى أن رسـب في الماجـستير للمـرة الرابعـة.

كان يومهـا يتنـاول طعـام الغـداء مـع زوجتـه وحماته وشيطانه، باسـتثناء رنـين الملاعـق في الأطبـاق وضحـكات الشـيطان، لم يتحـدَّث عـلي أو السـيدتان، كان واثقًـا مـن تَبادُلِهـنَّ لنظـرات السـخرية منه كلـما نظـر بعيـدًا.

اهتـزَّ هاتفـه، وعليـه ظهـر اسـم والـده، تمنَّـى لـو تجاهلـه كما يتجاهـل الشـيطان، لكنـه تلقَّـى المكالمـة. صـوت الأب كان عاليًـا بمـا يكفـي لتسـمعه المرأتـان بوضـوح رغـم المسـافة، سَـمِعنَ لَومَه لابنـه عـلى تضييـع أموالـه كل هـذه المـرَّات في محـاولاتٍ لا طائِلَ منهـا؛ إذ مـن الواضـح أنـه ليـس ذكيًّـا مثـل أخوتـه الذيـن حصلوا عـلى الماجـستير مـن أوَّل مـرة، وكيـف أن عليـه أن يركـز مجهوده في عملـه حتـى لا يفشـل فيـه أيضًـا، "مديـرك كَلِّمنـي واشـتكى لي منـك، عيـب، إنـت المفـروض كِـبِرت عـلى العَبَـط ده".

كان يـردُّ عليـه بالإيجـاب عندمـا أفلتَـت مـن حماتـه نصـف ضحكـة فشـلت في كَتمِهـا، أمَّـا الشـيطان، فـكان يتقافـز في رقصةٍ ضاحكـة ويـدور مُغنّيًـا: "يـا فاشـل... يـا فاشـل". عندهـا ألقـى الهاتـف في وجهـه، والتحـم معـه في صراعٍ جسَـديٍّ عنيـف.

لم يقاوم عندما قيّده مُمرِّضو المستشفى، بل بكى، وكان ذلك بكاءه الأول في حضور آخرين منذ طفولته. بكى ولام الشيطان الذي يرقص فرحًا على إفساد حياته، ورَبَّتَت حماته على ظهر ابنتها، وتَمْتَمَت بأشياء عن حَظِّها التَّعِس الذي جعلها تُفضِّل المهندس الفاشل المجنون على الطبيب الذي صار له الآن بدلًا من العيادة ثلاثة.

3.2

اقتباس من مقال بعنوان "الفصام: أساطير وحقائق"، كتبه الدكتور بيتر نبيل، أخصائي الأمراض النفسية والعصبية بجامعة عين شمس، على موقع "سيكولوچي بالعربي"، بتاريخ الخامس من نوفمبر 2013.

"....

فصام الاضطهاد:

أذكر هنا حالة قابلتني قبل اثني عشر عامًا في مستشفى المعمورة للطب النفسي بالإسكندرية، أظنُّها تَصلُحُ مثالًا مناسبًا لفهم "فصام الاضطهاد" (Paranoid Schizophrenia). المريض كان مهندسًا في الحادية والثلاثين من عمره، واقِعٌ تحت ضغط شديد في عمله ودراسته، وضغطٍ أكبر من أسرته التي لم يَكُن

منها مَن يدعَمه بأي شكل، بل كانوا، حسبما عرفنا منه بعدما وصلنا إلى نقطة بوسعه فيها الحديث بشيء من الارتياح، مصدر الضغط الحقيقي عليه منذ طفولته المبكِّرة، خصوصًا والده المدرس بكلية الهندسة الذي اتَّهمه دومًا بالتقصير لعدم قدرته على تحقيق نجاح أكاديمي مثله ومثل أشقَّائه. أمَّا زوجته، التي تزوَّجها بناءً على رغبة الأب أيضًا، فكانت لا ترى فيه سوى فرصة مُهدَرةٍ لتحقيق نجاح مادي واجتماعي.

بالطبع لم يكن الضغط النفسي سَبَبَ الهلاوس الفصامية التي أصابت المهندس (ع). كما قُلنا مرارًا، فإن "الأعراض الذُّهانيَّة" (psychosis Symptoms) سَبَبُها دائمًا كيميائيٌّ عضويٌّ، أمَّا الضغط النفسي، فليس إلا عامِلَ تحفيز ليتمكَّن المرض من عقل المريض.

كان (ع) مُسالِمًا كطفل، شاحِبَ البشرة، ذا شعر خشن قصير يميل للشقرة، نحيفًا، يقارب المِترَيْن طولًا، لكنك لا تلاحظ طوله أبدًا؛ لانحناء ظهره نصفَ انحناءة غالبية الوقت، وكأنه في تَحيَّةٍ مُهذَّبة لا تنقطع.

أدركتُ سريعًا أنه أبعد ما يكون عن الخطر، على نفسه وعلى الآخرين؛ لذا أمرتُ بِفَكِّ قَيدِه. لكنَّ التَّواصُلَ معه في أشهر إقامته الأولى كان شِبهَ مستحيل، فقد كان يقضي اليوم كله منكمشًا على نفسه، مثل طفل في ورطة، غارقًا في نَحيبٍ مُتواصِلٍ، لكن ما إن يقترب أحدنا منه حتى يمسح دُموعه، ويجلس منتصبًا، ويرسم على مُحيَّاه تعبيرًا جامدًا، ويجيب عن

كل الأسئلة قائلًا: "أنا تمام؛ مفيش حاجة". لكن عينه التي لا تَنفَكُّ تنظر إلى ركن الغرفة في هَلَعٍ جَليٍّ، كانت تفضحه، أحيانًا كانت شَفتاه ترتعشان وكأنه على وَشك قَوْلِ شيءٍ، لكن سرعان ما تذوب تلك الارتعاشة في ابتسامة ميكانيكيَّةٍ يُردِّد معها: "أنا زي الفل والله".

لا يَصِحُّ العلاج إلَّا بتعاوُن المريض، وهو ما لم يكن متوفِّرًا في حالة المهندس (ع). ما تناوَلَه من أدوية -بلا مُقاوَمة- ساعد في تهدئة نوبات البكاء، لكن لم يدفعه للحديث. إلى أن جاء الحَلُّ أخيرًا من طبيبٍ شابٍّ حديثِ التَّخرُّج اسمه "محمد صفوت"؛ طلب إتاحةَ فرصة للمحاولة معه، ومَنَحتُه إيَّاها بالطبع، فطالما كنتُ مُؤمنًا بأهمية مَنْحِ الفُرَصِ ونَقْلِ الخبرات إلى الأجيال الجديدة.

عرف الدكتور صفوت أنَّ تَخصُّص (ع) هو الهندسة الكهربية. غاب ليومين، وعاد حامِلًا كُرَّاسًا أنيقًا، وجلس معه.

لم يسأله عن حياته ولا هلاوسه ولا بكائه، وإنما عرض عليه مُخطَّطاتٍ لدوائِرَ كهربيَّةٍ تُحاكي طريقةَ عَمَلِ المُخِّ البشري، وطلب من المهندس أن يوضِّح له معنى رموزها وتفاصيلها. استجابة (ع) الفورية أدهشتنا جميعًا، أخذ في قراءة الدوائر وتحليلها، وخَطَّ في الهوامش مزيدًا من المُعادَلات والرسوم التوضيحية، تابع الدكتور صفوت العملية بِرُمَّتها دون تَدخُّلٍ إلَّا بالتشجيع أو إلقاء الأسئلة الذكية التي تدفع المهندس المُتحمِّس لمزيد من الشرح والتحليل. ثم كانت الجلسة الثانية بعد

أسبوع، لكن ما أحضره الدكتور صفوت من مُخطَّطات هذه المرة احتاج إلى تدخُّل الطبيب لتوضيح الجانب البيولوچي فيها؛ حتى يستطيع المهندس فَهْمَ الجانب الكهربي وتحليله، تحدَّث الدكتور صفوت مُطوَّلًا عن كيمياء المخ البشري وكيفية إدراكه العالَمَ، وما قد يُسبِّبه الخَلَلُ في هذه المنظومة المُعقَّدة من تَشوُّشٍ في رؤية العالم وحقائقه، واستمع (ع) بفضول المهندس وتركيزه.

قبل أن يذهب ترك الطبيبُ مع رفيق النقاش بعضَ الكتب التي تشرح المزيدَ عن كيفية عمل المخ بشكلٍ مبسَّط؛ لِيُسلِّي بها نفسه حتى يحين موعد الجلسة الثالثة.

بداية الجلسة الثالثة كانت مثل سابقَتَيْها، باستثناء أن نظرات المهندس المتوتِّرة لركن الغرفة كانت أكثرَ من المعتاد، وهو ما تجاهله الطبيب عَمْدًا لساعة كاملة، ثم باغَتَ المريض بسؤاله: "ما لك يا باشمهندس؟"، "أنا؟ ... أنا تمام، زيّ الفل"، "بتبُصّ على إيه؟ فيه إيه إنت شايفه وانا مش شايفه؟"، "مفيش حاجة.. كلُّه تمام"، "يا باشمهندس، عيب، مش بعد كلامنا ده كله تعامِلْني على إني عبيط، احكي لي".

سكت لوهلة، نقَّل عينيه عِدَّةَ مرّاتٍ بين الدكتور صفوت وركن الغرفة، في النهاية همس: "آي سي ذا ديڤل". أي "أرى الشيطان" بالإنجليزية. وتلك كانت المرة الوحيدة التي يستخدم فيها لغةً أجنبية في الحديث.

استقبل الدكتور صفوت جُملَتَه بثَبات، طلب منه أن يَصِفَ له شكل الشيطان. وصف (ع) بارتباك لِحيَةً قصيرةً مُدبَّبَةً، وزوائِدَ لَحميَّةً على الوجه لا يعرف إن كانت جزءًا منه أو جزءًا من غطاء رأس، وَصَفَ عينين حمراوين وعباءةً بنفس اللون يُزيِّنها رسمٌ لقُرصِ الشمس في منتصفها. بحث عن تشبيهٍ مناسب يختم به حديثه، وَجَدَه:

"عارف الشيطان اللي كان بيوسوس للأطفال إنهم يجرَّبوا المخدرات، في إعلانات القناة الخامسة واحنا صغيَّرين؟ هو بالظبط".

ابتسم الدكتور صفوت؛ لم يُعلِّق، وأدرك (ع) أنه مريض.

بعدها كان العلاجُ سهلًا، أو بمعنى أدقّ: كان علاج هذا المريض بالذات سهلًا مُقارَنَةً بما يَحدُثُ مع غالبيَّة حالات الفصام والأمراض الذهانية بشكل عام.

لكن علاج الفصام يظلُّ أمرًا في غاية التعقيد، هذا إن سَمَّيْنا ما نفعله علاجًا في الأساس؛ كلمة علاج توحي بأنَّ ما يُعالَج الفرد منه سينتهي ويذهب عنه بعد علاجه، وهو ما لا يحدث مع الفصام. للأسف لم يجد العِلمُ علاجًا له بعد، وإنما أقصى ما نستطيع تقديمه هو محاولة تقليل الأعراض بالأدوية الكيميائية إلى أقل حَدٍّ مُمكِنٍ، وتأهيل المريض نفسيًّا واجتماعيًّا لينخرط في المجتمع مرة أخرى، أمّا الهلاوِسُ والأعراض الذُّهانيَّة، فلا تختفي بالكامل؛ أقصى ما نطمح إليه مع المريض المُتعافَى هو

أن يَصِلَ إلى إدراك زيف هلاوسه، وأن يتعلَّم تجاهُلَها والمُضيّ قُدُمًا في حياته.

بعد اقتناعه بمرضه، لم يكن من الصعب إقناع (ع) بالالتزام بالعلاج. تربيته الصارمة على يَدِ أبٍ تَحَكَّم في كُلِّ تفاصيل حياة ابنه، حتى بعد بدء الأخير في تكوين أسرته الخاصة؛ جعل منه شخصًا سهلَ الانقياد.

لكن هذا الانصياع نفسه كان عَقَبَةً أساسيَّةً في العلاج. فرغم أنه من السهل التزامه بالأساليب العلاجية، فقد كان بحاجة إلى بلوغ دَرَجةٍ من النمو العقلي تجعله قادرًا على اتِّخاذ قراراته بنفسه والاضطلاع بشؤون حياته باستقلالٍ نِسبيٍّ؛ لذا كان التأهيل النفسي هو الجانب الأصعب في علاج (ع).

من المهم هنا الإشارة إلى أن الدعم العائلي جزءٌ محوريٌّ من علاج مريض الفصام، تقبُّل أفراد الأسرة للمريض ودَعْمُه بالمشاعر الطيِّبة والتَّفهُّم لما يعانيه يكاد يكون أهمَّ من العلاج في غالبيَّة الحالات، ولكنْ ليس في حالة (ع).

كانت زوجته قد حصلت على حُكمٍ بالطلاق منه بعد حجزه في المستشفى بأشهر قليلة، أمَّا والده فكان يتجاهَلُ كُلَّ محاولاتنا للتواصل معه، وعندما استطاع الدكتور صفوت، باستخدام الحيلة، مُقابَلَتَه في مَحلِّ عمله بالجامعة، قال له الأب بلا مُوارَبَة: "أنا ماعنديش عيال مجانين"، ولمَّا أجابه الطبيب بأن "اللي إنت بتسميه جنون ده مرض جيني، وراثي في المقام الأول"، طَرِدَ من مكتب مدرس الهندسة القديم بلا رجعة.

تجنَّب الدكتور ذِكْرَ نتيجة محاولات الاتصال بأسرة (ع) أمامه، لكن عندما ألحَّ في السؤال اضطرَّ لإخباره بما جرى من والده وزوجته؛ ما أدَّى إلى تدهور حالة المريض لعدَّة أيَّام امتنع فيها عن تناول الطعام والعلاج أو الحديث مع الطبيب، ثم استيقظ ذات يوم في أفضل حال له منذ دخوله المستشفى.

استجابته بعدها للعلاجين الكيميائي والنفسي كانت مُدهِشَة. وفي أواخر أيامه في المستشفى، في جلسته الأخيرة مع طبيبه ولجنةٍ من كبار دكاترة القسم، برئاستي، قال (ع) عن أسرته، بابتسامةٍ لن أنساها ما حَييتُ، "كانوا أَثْقَل من الذنب على ضهري والله".

فصام جامودي/كاتاتونيك:

لا تُحاوِلْ تحريكَ مريض الكاتاتونيك من مكانه؛ فَرَدُّ فِعلِه يمكن أن يكون أعنفَ ممَّا تَتخيَّل. في 2008 قابَلتُ حالةً في...".

3.3

عندما طلب منه موظَّفُ البنك إعادةَ التوقيع لثالث مرَّة، حسب أنه لن يحصل أبدًا على آخر ما تبقَّى له في حسابه من جنيهات. سيظلُّ يُوقِّع ويوقِّع ويوقِّع، ولن يُطابِقَ تَوقيعُه أبدًا نظيرَه القديم المُخزَّن في بيانات حسابه البنكي. سَيُلقون به

خارجًا، وسيعيش مُفْلِسًا، بلا أسرة ولا وظيفة ولا سكن. لكنَّ الموظف رضي بالتوقيع الثالث، وسمح للمهندس السابق بأن يسحب ما بَقِيَ له من مُدَّخرات.

***

رغم أن عبد الله التمرجي لم يكن من ألطف الناس تعامُلًا مع المرضى، فإنه وجد في نفسه مزيجًا من الشفقة على الشاب الذي تبرَّأت منه أسرتُه، والاحترام للمهندس الذكي الذي يظهر في النقاشات العلمية مع الدكتور صفوت، وشيء من الأُبوَّة تجاهه عندما يراه جالسًا في حديقة المستشفى ساكنًا، متأمِّلًا العالَمَ من حوله بعيون حزينة مستسلمة.

شيئًا فشيئًا صار التمرجي ذو السِّتِّين عامًا الشخصَ الأقربَ إليه في المستشفى.

فور خروجه ساعده في استئجار شقَّةٍ على سطح عقار بسيط، ومحلٍّ في نفس العقار بالقرب من سكنه في حي غبريال.

لم يعرف علي قبلها بوجود حيٍّ بهذا الاسم في الإسكندرية، ولمَّا ركب مع صديقه التمرجي قطارَ أبو قير لأول مرة مُتَّجِهَيْن إلى هناك، كان مُنبَهِرًا كطفل يزور مدينة الملاهي لأول مرة، لم يعلم أيضًا بوجود قطار داخلي في المدينة، وهو ما علَّق عليه عبد الله ضاحكًا: "أمَّال لو خدتك زرزارة حتعمل إيه؟". لم يرد عليه علي، تمنَّى ألَّا يضطرَّ إلى أن يأخذه عبد الله إلى زرزارة أبدًا؛ لا تبدو مكانًا يحب أن يعرفه.

ساعده عبد الله في تأثيث سكنه الجديد بقطع الأثاث والأجهزة المستعملة، وفي شراء ما احتاج إليه من أدوات لإقامة ورشته الجديدة، رفع معه لافتة "إصلاح أجهزة كهربائية"، وعلى سبيل الهدية أقام له حَفلَ افتتاحٍ محدودًا أمام الورشة؛ استقبَلَا فيه أهالي الشارع ليعرِّفهم هو إلى جارهم الجديد. أمّا أهم مساعدات التمرجي الطيب لصديقه، فكانت الكذبة البيضاء التي نشرها بين سُكّان الحي عن الساكن الجديد: كان مهندسًا مرموقًا في شركة قاهرية كبرى، وكان له زوجة من الإسكندرية أحبَّها حبًّا جمًّا، لكنها ماتت بمرض خبيث على حين غرَّة، وحَزِنَ عليها حزنًا شديدًا أصابه باكتئاب عنيف؛ ما يُفسِّر مظهره المزري بتلك اللحية الكَثَّة التي شابَ نصفها، وعينيه الغائرتين، وظهره المحنيِّ.

بعدما شُفِيَ أخيرًا من اكتئابه كان زَهِدَ في الحياة والوظيفة والقاهرة، وجاء ليعيش في مسقط رأس زوجته الراحلة بعيدًا عن زحام الحياة.

وسرعان ما انهالت على الورشة مَراوِحُ وخَلّاطاتٌ ومَكانسُ كهربيّةٌ نامت وبحاجة إلى مَن يوقظها، وشرع المُهندِسُ في العمل، لكنَّ محاولاته الأولى باءت بالفشل، والسبب، مثلما تراءى له، كان واضحًا: من دون صندوق العُدَّة؛ لن يفلح أبدًا.

صندوق العدَّة الأسود الصغير ذو الغطاء البلاستيكي الأصفر، كان أوَّلَ ما اشترى في حياته من أدوات عَمليَّة مع بداية دراسته. كان تميمةَ حَظِّه، لطالما اعتقد أنه لن يفلح أبدًا في مشروعٍ

عَمليٍّ من دونه. كان الشيء الوحيد الذي يتفاءل به في حياته ويعطيه قدرًا من الثقة بالنفس، في حياته كلها. لكن أين صندوقه الآن؟

آخر ما يذكره عنه أنه كان في شقَّته الزَّوجيَّة؛ هل يسأل طليقَتَه عنه؟ أَمْ رُبَّما أعادت أشياءَه إلى شقَّة أهله؟ مجرَّد فكرة تواصُلِه معهم نَفَخَت الحياةَ في عروق شيطانه المُروَّض.

لم يجد بُدًّا من الذهاب إلى أهله، ولكنَّ يَدَه لم تَجسُر على طَرْق الباب، فمضى وعاد لاحقًا برفقة عبد الله.

صعد التمرجي وحيدًا بينما يقف علي في انتظاره بمدخل العمارة لا يجسر على اتِّباعه، لينزل التمرجي بعد عشر دقائق حامِلًا صندوقه؛ أخذه منه صامتًا.

لم يكن عبد الله بحاجة للحَكْيِ عن كيف طَرَدَه أهلُه ما إن ذكر اسم ابنهم، وأنه استطاع إقناعهم -بصعوبةٍ- بأن يأتوا له بالصندوق في مقابل ألَّا يسمعوا اسمه مرة أخرى أبدًا.

أيقظَ مروحةً، ثم مكنسةً وخلَّاطًا، ووضع صندوق عدَّته على رَفٍّ عالٍ جانِبيٍّ في المحل بحيث يتوسَّط مجالَ رؤيته طوال الوقت.

عندما وقف أمام مرآة الحمام، وشرع في حلاقة لحيته، تذكَّر كيف كان والده يُوبِّخه عندما يتركها بلا حلاقة، فاكتفى بتشذيبها، وقرَّر ألَّا يزيلها أبدًا.

بعد بضعة أشهر، وبينما كان عبد الله يشرب معه الشاي في الورشة، بعد صلاة العصر، جاءت فتاة عشرينية مليحةٌ حامِلَةً جهازَ خَلّاطٍ لا يعمل، أخذه منها، وشرع في فحصه.

اقترب منه صديقه التمرجي ونَكَزَه بكوعه، "إيه رأيك فيها؟ حلوة البنت، هه؟"، وجد أن سلك الخلاط مقصوصٌ بفِعلِ فاعِل، "أجوِّزها لك؟ أبوها صاحبي". ابتسم، نَهَرَه عبد الله، أصلح السِّلكَ وصَرَفَها دون أن يتقاضى منها ثمَنَ التَّصليح.

وذات ليلةٍ صيفيَّةٍ كئيبَةٍ انقطع فيها التيَّار الكهربي وماتت المروحة، استيقظ المهندس غارقًا في عرقه، وكان الشيطان جالسًا على طرف السرير. رحَّب به كصديقٍ قديم، قال له: "تعرف إنك أنقذت حياتي؟".

عاد إلى النَّوم مُطمَئِنًّا.

3.4

في ظهيرة الثامن والعشرين من سبتمبر 2005، فتح علي وَرشَتَه، وكان يكنس عَتَبَتَها عندما مَرَّ أمامه واحِدٌ من سُكَّان الشارع، طائرًا، وألقى عليه تحيَّةَ الصباح.

أغلق ورشته فورًا، وصعد إلى مسكنه، اتَّخذ في ركنه مكانًا قصيًّا، وجلس.

بعـد دقائـق نهـض باحثًـا عـن دوائـه، عـدَّ الأقراص أكـثر من مـرَّة ليتأكـد مـن تناوُلِـه جرعَتَـه الكاملـة هـذا الصبـاح، وفحص تاريـخ الصلاحيـة، كان الـدواء عـلى مـا يـرام، لمـاذا إذًا تزيـد الهـلاوس؟ اعتـاد عـلى تسـكُّع الشـيطان حولـه مـن حيـنٍ إلى آخر، ولم يَعُـد يُلقـي لـه بـالًا، بـل إنـه كان يناقشـه أحيانًـا إذا واجَـهَ مشـكلةً مُسـتَعصِيَةً في أحـد الأجهـزة المعطوبـة في الورشـة، وكأنـه مسـاعده؛ لا ضَرَرَ منـه.

حياتـه في الأعـوام الأخيرة، منـذ خروجـه مـن المستشـفى، مَرَّت بهـدوء ويُسْرٍ وبـلا مُنغِّصـات، لمـاذا إذًا تزيـد الهَـلاوِسُ؟

ضحـك الشـيطان ضحكتـه السـاخرة القديمـة، همـس في أذنـه: "كل يـوم بِتِتجَنِّـن أكـتر مـن اليـوم الـلي قبلـه".

لن يسمح بذلك.

في اليـوم التـالي فتـح ورشـته، عـزم عـلى المُـضيِّ في حياتـه كـما هـي، وعـلى تجاهُـل الهـلاوس كُلِّهـا، الجديـد منهـا والقديـم. تجاهل تَحليـقَ النـاس فيـه، لم يُلـقِ بـالًا لأحاديـث النـاس عـن الطـيران، جعـل جـلّ تركيـزه في عملـه. ولمـا رأى النـاس منـه ذلـك ظنُّـوا أن تَصرُّفَـه نابِـعٌ مـن أنـه قاهـريٌّ مـن "الماشِـيَة"؛ احترمـوا مشـاعره، وصـار مَـن يـأتي منهـم إلى ورشـته يـأتي عـلى قدميـه.

حافـظ عـلى تماسُـكِه أمـام الهـلاوس الجديـدة لبضعـة أيَّـام، ضاعـف مـن جرعـة العـلاج، لكـن شـيئًا لم يتغـيَّر، مـا زال النـاس يقفـزون مـن الأسـطح، وتلعـب بهـم الرِّيـحُ كأوراق الشـجر أمام عينيـه، والأدهـى أن الجميـع مبتهجـون.

ذهب لرؤية الدكتور صفوت بصحبة صديقه التمرجي، لم يُخبِرْه عن هلاوس الطيران، لا سِيَّما أن عبد الله ذاته جاءه مُحلِّقًا، قال له إنه بحاجة لاستشارة الطبيب بشأن العلاج.

أخذ عبد الله يحكي له طوال الطريق كيف يطير أحفادُه الأشقياءُ في الشَّقَّة طوال الوقت، وعن غُلْبِ زوجته ريفيَّة المنشأ في ملاحقتهم، وكيف أنه حَلَّ الموقف بربطهم جميعًا في حبالٍ طويلة مُثبَّتة في الأرض، تجذبهم منها الزوجة، فلا يبعدون عن يدها أبدًا.

تساءَلَ علي عمَّا يقوله عبد الله في الحقيقة بينما يستبدل عقله المريض هذه الهلاوس بكلامه؟ لم يُعلِّق خوفًا من افتضاح تطوُّر مَرَضِه.

قال الدكتور صفوت: "إنت كويِّس يا باشمهندس؛ لا فيه هلاوس ولا حاجة؛ الناس بتطير بجَدّ".

أيُعقَل! هل من الممكن فعلًا؟

"وبعدين لازم تبقى عارف معلومة مهمَّة: الهلاوس المرضية دايمًا سهلة، لا يمكن تصمد قُدَّام أي تفكير منطقي، عمرها ما تتطوَّر لسردية مُحكَمَة التفاصيل زي اللي إنت بتحكيها. طيران الناس ده واقع برغم جنونه الظاهر، إنت نفسك تقدر تطير يا باشمهندس... لما تكون مستعد، جرَّب".

عاد وحيدًا بعد أن بدأ عبد الله في ورديَّته. فكَّر في كلام الطبيب، لم يكذب عليه الدكتور صفوت من قبل، ربما لم

يساعده إنسانٌ مثلما فعل هذا الطبيب، بالتأكيد هو على حَقٍّ، لكن كيف؟ كيف تَجاوَزَ النَّاسُ العاديُّون -بلا أي معدَّات خاصة- مُسلَّمات نيوتين؟ هل نقص من الأرض جزءٌ من كُتلَتِها مَثَلًا، فضَعُفَت جاذبيَّتها؟ ولكن إنْ كانت المشكلة في قوى الجاذبيَّة، فسيظهر تأثيرها في الأشياء كُلِّها بالتَّساوي.

انحنى والتقط حجرًا؛ تركه يسقط. سقط مثلما تسقط الأشياء كلُّها، إلَّا البشر، ويا ليتهم حتى كل البشر! ربما كان سيعزو الأمرَ حينها إلى طفرةٍ بيولوچية أو ظاهرة فيزيائية جديدة ميَّزَت البشر عن غيرهم، لكن لم يَطِرْ إلَّا قِلَّة منهم، في مكانٍ واحد فقط. أيُّ فيزياء هذه!

همس الشيطان: "مش ممكن كلام الدكتور جُزء من الهلاوس؟".

التقط الحَجَرَ مرَّةً أخرى ورَجَمَه به، مَرَق عَبرَه، ووقع على الأرض؛ ضحك الرجيم.

استعاذ بالله منه، تجنَّب التفكير في كلامه، وهي محاولَةٌ كانت ناجِحَةً بقدر كلِّ محاولات البشر في تَجنُّب التفكير فيما يُضايِقُهم. ذهب إلى مكتبة متخصِّصة كان يبتاع منها المراجِعَ إبَّان دراسته للماچستير؛ ابتاع كُلَّ ما وجده من مراجع الفيزياء التي تتضمَّن كُلَّ نظرياتها، من كلاسيكية نيوتين إلى انعدام يقين فيزياء الكم.

انعزل في شَقَّته أيامًا مع مَراجعه وشيطانه؛ لا يردُّ على طارقي بابه السائلين عن مصير أجهزتهم المحبوسة في ورشته.

بحث في الكتب عن تفسيرٍ علميٍّ منطقي للطيران، لم يجد إلا تفسير الشيطان الذي لا ينفكُّ يُردِّدُه "إنت مجنون، محبوس في المستشفى، مربوط في سرير، ومفيش حاجة من دي بتحصل غير في دماغك".

ابتاع مراجع الأحياء والتشريح والجغرافيا والطقس، بحث في كتب الدين وكتب السحر، بلا جدوى. ضاعَفَ جرعات دوائه وأبحاثه وانعزاله. كل لحظة تَمرُّ كانت تُسهِمُ في تأصيل التفسير الذي قدَّمه الشيطان أكثر وأكثر، ربما هو بالفعل مُقيَّدٌ في سرير يسيل الزَّبَدُ من شِدقَيْه ولا تدرك حواسُّه ما يحدث حوله، بينما وعيه غائبٌ في عالَمٍ وليدِ الخيال يطير فيه الناس. تُرى، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ يسافر في الفضاء؟ يعود إلى الماضي ويكلِّم الموتى؟

تمنَّى الموت.

عندما فتح المهندس علي نافذة شقته في الطابق السابع، كان نوى حَسْمَ كلَّ شيء. سيقفز، وسيستيقظ من هَلاوِسِه في سريره بالمستشفى كما يستيقظ الحالِمُ بالسقوط قبل أن يبلغ الأرض، أو سيقع على رأسه، وينتهي الأمر بِرُمَّتِه.

لم يستيقظ، ولم يَمُت، بل طار.

4

"التَّعميد يعني"، Like Baptism

4.1

كانت أيَّام الطيران الأولى مثل علاقة الحب الأولى.

الأكثر فوضى، الأكثر ارتباكًا، الأكثر سعادة.

كان الناس سعداء ذلك النوع من السعادة الذي يكتشف صاحبه، بعد شعوره بألم في عضلات وجهه، أنه لم يتوقَّف عن الابتسام لساعات عشرٍ مُتتالِيَة. سعادة لم يعرفوا لها مثيلًا من قبل، وفي الغالب لن يعرفوا مثلها مرَّةً أخرى. ربما مَسّ بعضهم شيء من هذا الشعور المبتهج في أزمنة لاحِقَةٍ أو سابقة، لكنها

تكـون، في الغالـب، مثـل أي شـعور طبيعـي، مشـاعر شخصية حميميـة لا تعنـي سـوى صاحبهـا ومَـن حولـه، كسعادة الزواج مـن حبيـب أو تحقيـق هـدف قديـم أو الحصـول على إعفاء. أمّـا تلـك السـعادة السـاحقة الغامـرة التـي أصابـت كُلَّ هؤلاء السـكندريين فجأة عندمـا طـاروا معًـا، في نفـس اللحظـة، فهذه لا يَخْبُرُهـا الواحِـدُ كثيرًا في حياتـه، يعيـش غالبيَّـة البشر ويموتون دون أن يشـعروا أو يشـهدوا لهـا مثيـلًا.

لكـن.. لم تشـمل هـذه السـعادةُ الجميـعَ. ظلَّـت حصرًا على سُـكَّان المدينـة المولوديـن فيهـا، والذيـن نالـوا القـدرة على الطيران بـلا أي مقدِّمـات، دون حتـى أن يطلبوهـا. أمَّـا أهلهـا المولـودون خارجهـا، فلـم يشـاركوا البقيَّـةَ سـعادَتَهم، بطبيعـة الحـال. بوسعك أن تتخيَّـل شـعورهم بسـهولة، ربمـا أسـهل مـمَّا تتخيَّـل سـعادة الآخريـن، فالشـعور السـيئ أقـرب إلينـا مـن الطيـب؛ يكفـي أن تتذكَّـر لحظـة ظُلْـمٍ مَـرَرتَ بهـا، كزيـادة راتـب جميـع زملائك عـداكَ، فحتـى إن كان راتبـك يكفيـك، وحتـى إن ظـلَّ أعلى من رواتبهـم بعـد الزيـادة، وحتـى إن كنـت تحـبُّ زُمـلاءَكَ حُبَّك لنفسـك وتتمنَّـى لهـم الخيـر؛ سـيرغم التسـاؤل نفسـه على دورة تفكيرك ويحتـل مقعـد القيـادة، وسـتظل مسـتيقظًا لليـالٍ مزعجة طويلـة تفكـر "هـو أنـا ابـن البطـة السـودا يعنـي!".

يمكـن القـول إذًا: كان غالبيـة النـاس سـعداء. ولِـمَ لا يسعدون؟ فهـم يُحلِّقـون.

كانوا يفعلون غالبية الأوقات في تلك الأيام؛ لا تلمس قَدَمُ الواحدِ منهم الأرضَ إلّا لوهلة يلتقط فيها أنفاسه، وما إن يستجمع شيئًا من القوة حتى يرتفع مرة أخرى. طار الناس في مجموعات، أو في أسراب إن كان ذلك هو التعبير الأدق، طوال الليل والنهار. مَن طار منهم وحيدًا كان يبحث في السماء عن غيره، مُتوتِّرًا، ولا يطمئن قلبه إلا برؤية آخرين ينضمُّ إليهم، حتى إن لم يكن يعرفهم من قبل.

في الأيام الأولى، كسر الطيران الثلج بين الأغراب؛ صاروا يُغنُّون ويرقصون ويمرحون ويبكون، يحتضنون بعضَهم في الهواء ويربتون على الظهور ويُقبِّلون الوجنات. مجرَّد رؤية آخر يطير في الهواء كان أكثر من كافٍ لاعتباره من أقرب الأصدقاء وأكثرهم حميمية، وهي علاقة لا تدوم بعد أن تلمسَ الأقدامُ الأرضَ ويعود الناس إلى البيوت.

ظهر أكثر من مرَّة عَلمُ البلاد تُلوِّح به يَدُ واحدٍ أو أكثر من المُحلِّقين، وهو أمر لم يفهمه مَن تابعوا المشهد من الأرض، لكن الأسراب بالأعلى لم تشعر فيه بأي غرابة.

وكانوا أيضًا مرتبكين.

ارتطموا ببعضهم، وبالمباني العالية والشرفات وشبكات أسلاك الدش والإنترنت ولافتات الإعلانات والغسيل المنشور، والصلوات الصاعدة، والبلايا الهابطة. ومع كل حادثة من هذا النوع، مهما كانت أليمةً أو حتى نتج عنها جرح أو كسر، كانت الضحكات تتصاعَدُ، فلا يوجد ألَمٌ يطغى على النشوة الجديدة، في بدايتها.

ارتباكهـم كان منطقيًـا؛ فلـم يوجـد في المدينـة مـن لـه خـبرة سـابقة في الطـيران، ليعلـم النـاس قواعـده وطُرُقـه المُثـلَى. ولم يذكر التاريـخ وقائِـعَ عـن بـشرٍ يطـيرون بـلا أدوات خاصـة وظـروف اسـتثنائية في أي زمـان أو مـكان. حتـى في الحكايـات الخياليـة كان مَـن يطـير هـو فـرد أو أفـراد اسـتثنائيون ذَوو قـدرات خارقـة، أبطـال عِظـام أو أشرار جبابـرة، أفعالهـم عظيمـة لا يملـك إزاءَهـا النـاسُ سـوى الانبهـار، بينـما يختبئـون خلـف أقـرب جـدار. إنمـا مُحلِّقـو الإسـكندرية لم يكونـوا إلَّا بـشرًا عاديـين ضعفـاء، بـلا أهميـة مَلحميَّـة. حتـى فِعْـل الطـيران نفسـه كان محـدودًا بقدراتهـم الجسـدية، مثـل الجـري والسـباحة. أكثرهـم قـوة ولياقـة لم يبلـغ بتحليقـه أبعـدَ مـمَّا يسـتطيع الوصـول إليـه بجريـه على قدميـه، ولا أسرع، لم يُحرِّرهـم الطـيرانُ مـن قيـود جغرافيـة، ولم يَطِـرْ أحدهـم حـول العـالم مثـل أبطـال الكتـب الخارقـين.

طار الناس، وأَحَبُّوا الطيران، وحسبوا السماء مُلكَهم.

4.2

لكن الحياة لم تكن بالكامل ورديَّةً.

يحـكي العلـماءُ عـن تجربـة وضعـوا فيهـا أمـام فـأرٍ زِرَّيْـن، أحدهـما مُتَّصِـلٌ بمركـز النشـوة الجنسـيَّة في رأسـه، والآخـر يمنحـه طعامًـا. يقولـون إن الفـأر بعدمـا تعلَّـم وظيفـة كُلٍّ منهـما، أخـذ يضغـط عـلى زر النشـوة بـلا توقُّـف، حتـى مـات جوعًـا. سـواء

كانت هذه التجربة حقيقية، أو عِظَةً شعبية في إطار مُعاصِر؛ فهي قد تُفسِّر شيئًا من الفوضى التي عَمَّت الإسكندرية في أيام الطيران الأولى.

سجَّل أسبوع الطيران الأول 3,576 إبلاغًا عن جريمة سرقة، 3,569 منها كان أصحابها قد خرجوا ليحتفلوا بالطيران ونسوا نوافذهم مُشرَعَةً، مُرَحِّبَةً بكل مَن تُسوِّل لهم أَنفُسُهم التَّعدِّي على حرمات الغير، وهم كثيرون مثلما نعرف جميعًا. و2,304 حالة تحرُّشٍ جِنسيٍّ تتراوح بين التَّلصُّص على النساء من خارج النوافذ، وتصل إلى التَّعدِّي الجنسي المباشر بعد اقتحام مَخادِعِهنَّ، وشائعات غير مُوثَّقة عن حالات تَحرُّشٍ مُشابِهَةٍ بالرِّجال. و913 حالة ضياع أطفال كانوا قد خرجوا وحدهم أو مع ذويهم في الاحتفالات السماوية بالمعجزة الجديدة، لكن تاهوا وسط الزحام، أو امتدَّت لهم أَيدٍ خاطِفة استغلَّت هرج الزحام نفسه، سيعود أكثر من ثلثهم بقليل إلى أسرهم الباكية في الأسابيع التالية، وسيظل البقيَّة مُختَفين.

وسجَّل أسبوع الطيران الثاني انتعاشًا غير مسبوق في تجارة تدعيم النوافذ بالقضبان الحديدية.

شهدت أقسام الطوارئ في المستشفيات عشراتٍ من حالات السقوط وتَحطُّم العظام، في الفترة التي لم تَكُن فيها حقيقة حصر الطيران على السكندريين المولودين في الإسكندرية قد ترسَّخَت بَعدُ. تراوَحَت الإصابات بين كَسْرٍ طفيف في ذراع أو قَدَمٍ وحتى الشلل التام، ومات خمسة عشر.

شهِدَت عدّة مناطق مُشاجراتٍ بين أفرادٍ أو شِلَلٍ أو عائلات مُتناحرين، وهي مشاجرات عادية طبيعية كانت تحدُث بصفة يومية في شوارع الإسكندرية الشعبية، لم تكن حتى تثير حفيظة السكان الذين اعتادوها كما يعتاد المرءُ بردَ الشتاء أو قيظ الصيف، أو رُؤساءَ البلاد، لكنَّ نُشوبَها في ظل ارتباك الفيزياء الذي تشهده المدينة؛ جعل لهذه المناوشات بُعْدًا مَلحميًا فيما يتواجه المُتعارِكون فوق الرؤوس بأسلحتهم اليدوية وسِبابهم السَّكندريِّ البليغ. فصار الواحد منهم بدلًا من أن يُلقي غريمَه فيُحطِّم به واجهة مَحلٍّ أو نافذة سيَّارة مركونة مثلما كان يحدث قديمًا- يُلقيه عبر نافذة مُغلَقَةٍ فيقع فوق مائدة كان يتناول عليها أفراد أسرة غَداءَهم، في مشهدٍ يليق بفيلم هوليودي كوميدي عن الأبطال الخارقين، فيلتقط هذا الغريم ما تطوله يده من أدوات المائدة أو أطباقها، ويطير خارجًا من النافذة المُحطَّمة مُلقيًا بما يحمل على غريمه، ويستكمل الصراع.

أمَّا الحادثة الأشهر من تلك الفترة، فكانت محاولة مريضٍ بالفصام لإضرام النار في معامل قسم الهندسة الكهربية بكلية الهندسة، بعدما احتجز نصفَ مُدرِّسي القسم رهائنَ لأربع ساعات، من بينهم والده نفسه مُدرِّس هندسة التَّحكُّم الآلي. استطاعت الشرطة القَبضَ عليه قبل انتشار الحريق من معمل التحكُّم لباقي أرجاء المبنى. قال المريض/ المجرم للشرطة في أثناء التحقيق معه: "أنا مش مجرم، كل ده خيال وهلوسة جُوّه دماغي، إنتو مش شايفين الناس بتطير إزاي؟ مستحيل ده يبقى حقيقة، إنت نفسك مش حقيقة. أنا كنت بحاول تدمير

المقابل الخيالي للمكان اللي بدأت منه كل مشاكلي الحقيقية، عشان أفوق وأرجع للواقع وأقدر أكمل علاجي في المستشفى".

ألقى العديدون اللومَ على الطيران في انتشار هذه الحوادث، ودافع آخرون عن الظاهرة الجديدة بأن ليس لها شأن بالأحداث، بل السبب هو طِباعُ الناس وأخلاقهم السيِّئة. طار الناس ونسوا مدارسهم ووظائفهم وعلاقاتهم وحياتهم، طار الناس بما فيهم من خَيرٍ وشَرٍّ وحَصافَةٍ وحماقة، مثلما كانوا دائمًا، ومثلما سيظلون أبدًا.

4.3

"It's a superstition"

قالها الروائي السكندري الشهير بلقب (صوت الثغر)، تعليقًا على النقاش الدائر بين رُكَّاب الميكروباص التويوتا المتعطِّل على بُعْدِ كيلومترات قليلة من بوَّابة الإسكندرية، بخصوص عادة التحليق عند بوابات المدينة، والتي صار العائدون إليها بعد غياب يحرصون عليها. انتظر أن يسأله أحدهم عمَّا يعني، أو يتعرَّفه آخر، لم يفعل أحدهم. تابَعَ "خرافة يعني، طقس رمزي يُتيح للسكندري العائد من غربة طويلة إنه يغسل روحه ويطهَّرها من آثامها وما علق بها من غبار، قبل ما يرمي نفسه في حضن أمه اللي هجرها من زمان، فتغفر له وترفعه لفوق، فوق بقية العالم". ثَبَّت نظَّارَته بحركة أنيقة، هَزَّ رأسه

بحكمة، لم يُعِرْه أحدهم انتباهًا. ختم بحروف مُحبَطة "Like Baptism، التعميد يعني".

سكت، نظر خارج النافذة بحثًا عن لافتة تخبره كم بقي من الكيلومترات على الوصول. لا بأس، إنهم عوامٌّ بسطاء على أي حال، لا يعرف أيُّهم مدى قيمة الأديب المرموق القابع بينهم الآن وأهميته، لا بُدَّ من أن أيًّا منهم لم يقرأ كتابًا في حياته. بعد قليل سيصل إلى المدينة، سيقابل أصدقاءه من صفوة القوم: الشعراء والكُتَّاب والفنانين، ومُحبِّيهم، على مقاهي وسط البلد الفاخرة، هناك يعرفونه ويُقدِّرونه حَقَّ قَدرِه، يعرفون أنه كاتب الإسكندرية الأهم. لم يتأثر لقب صوت الثغر بالأعوام الخمسة عشر التي قضاها في القاهرة، ما زال المتحدِّث بلسان المدينة القديمة وسُكَّانها الأصليين البسطاء. تدور رواياته في كرموز وغيط العنب والمكس وكوم الدِّكَّة وبحري. ربما لم يَزُرْ أيًّا من تلك الأحياء منذ ما يزيد عن العشرين عامًا، لكنه نشأ هناك، يعرف كل شبرٍ فيها كما يعرف اسمه، شوارعها محفورة في قلبه، لا حاجة به لقضاء مزيد من الوقت في هذه الأماكن ليكتب عنها. لا يَضرُّه جهلُ مجموعة من السفهاء الذين شاركهم بالمصادفة ميكروباص لفترة من الزمن، ولن يؤثِّر فيه؛ فهو صوت الثغر، هكذا تقول قوائم المبيعات، وهكذا يقول النقاد، وهكذا تقول الجوائز.

مرَّ الوقت كما تتحرَّك السيارة، ببطء. كان الكل يتململ، ولا يكاد يتحمَّل مرور الدقائق الباقية على الوصول والتحليق. رغم قرب بوابة المدينة، فإن الازدحام في اتجاهَيْ طريق

القاهرة الإسكندرية الصحراوي كان مثل ذلك الذي يُعطِّل شرايين المدن الرئيسية في ساعات الذروة. على مداخل المدينة تدفَّق كَمٌّ لا حصر له من السيارات المُحمَّلة بالسكندريين العائدين من شتَّى البقاع ليطيروا مع أهلهم، والإعلاميين الذين جاءوا ليسرقوا صورةً أو يُسجِّلوا حَدَثًا، والمُتخصِّصين في كل المجالات العلمية وغير العلمية، الباحثين عن تفسيرٍ لأغرب ظاهرة حدثت للبشر منذ الخَلْقِ الأوَّل، وحتَّى الناس العاديين الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذا الأمر أو غيره، الذين جاءوا فقط ليشاهدوا المعجزة بأعينهم التي لم تستطع تصديق ما رأته على الشاشات.

والاتجاه المقابل لم يَقِلَّ ازدحامًا؛ غُصَّ طريق الخروج بالمهاجرين للمرة الثانية، أولئك الذين كانوا يَعدُّون أنفسهم من أهل المدينة، بعدما عاشوا فيها أعمارًا اعتادوا خلالها على مُعايَرَةِ أهلها لهم بأصولهم الريفية والصعيدية والنوبية والبدوية وغيرها، وأخذوها على محمل المزاح. لكن بعد الطيران صار الأمر لا يُحتَمَل، وأخذ أهل المدينة المُحلِّقون ينعتون أولئك الذين لا يفعلون بـ "الماشية"، والمهذَّبون منهم، الذين رفضوا وصفَ جيرانهم بلَقَبٍ يُشبِّههم بالحيوانات، أصبحوا يطلقون عليهم "الأغراب"، وهو ما عَدَّه المُلقَّبون به أكثرَ إهانةً من الماشية. في النهاية شعر غالبيتهم بأن المدينة تعلن بوضوحٍ عدمَ ترحيبها بهم؛ فباتوا يحملون ما يستطيعون من متاع، ويرحلون.

"حمد لله ع السلامة يا حضرات".

قالهـا السـائق بنـبرة ذات معنـى، نبّهَـت الـرُّكابَ إلى بلوغهم بوابـة المدينـة، وأن الوقـت حـان لجمـع الأجـرة. بعـد عشر دقائق قضاهـا صـوت الثغـر في البحـث عـن فَكَّـة في جيوبـه، والمجادلة مـع السـائق في نقـاشٍ انتهـى بتنازُلـه غـيرَ مُسـامِحٍ عـن عشرة جنيهـات. كتـب حتـى الآن ثـلاث مقـالات عـن الطـيران، وينـوي الـشروع في مُسـوَّدَةٍ لروايـة جديـدة عـن الموضـوع نفسـه، لكنـه كان أذكى مـن أن يَنـشُرَ أيًّـا مـن هـذا قبـل أن يدخـل المدينـة بنفسـه ويطـير مـع الطائريـن. ربمـا سـبقه آخـرون في الكتابة والتعليـق، لكن الأسـبقية لا تهـمُّ حينـما تكـون صـوتَ الثَّغـر، مهـما تأخَّـرتَ، فالعالم كلـه في انتظـار رأيـك. لا شـكّ أن الكثيريـن في حـيرة مـن أمرهـم، لا يسـتطيعون تكويـن رأي فيـما يحـدث؛ لأن قلمهـم المُفضَّـل لم يُدْلِ بدلـوه بعـد.

لكنـه في الحقيقـة، برغـم المقـالات المكتوبـة بالفعـل، قَلِـق. ثمَّـة أمـر مـا مريـب في الأمـر كلـه. مـا الـذي يعنيـه أن يطـير النـاس؟ هذا غـير طبيعـي. وطالمـا هـو غـير طبيعـي فهـو خاطـئ. هـذا ليـس ما نشـأنا عليـه ولا سـعينا لأجلـه. لا بُـدَّ أن في هـذا أذًى مـن نـوع ما للنـاس، أذًى لا شـكّ سـيصيبه أيضًـا إن طـار معهـم. في الحقيقـة هـو لا يرغـب في الطـيران ولا تجربتـه، ولا العـودة إلى المدينـة في هـذه الظـروف المُشـوَّشـة غـير المفهومـة. لم يكـن (الوضـع الراهـن) مـن قبـل هـو أفضـل الأوضـاع، ولكننـا تعلمنـا أن نعيـش معـه، اكتشـفنا مسـالكه وخَبُرنـا التَّحايُـلَ عليـه، اصطنعنـا لأنفسـنا حيـاةً لا بـأس بهـا عـلى الإطـلاق برغـم كل شيء. مـن المفـترض والطبيعـي

أن تكـون تلـك الأعـوام هـي أعوامنـا؛ احتفـاءً بنـا عـلى مـا صرنـا إليـه، تمجيـدًا لنجاحنـا وتربيتًـا عـلى ظهورنـا. لكـن بـدلًا مـن ذلـك يحتفـي العـالم بشـويَّة عيـال يركبـون الهـواء. هـذا خاطـئ وغريـب ومريـب. بَيْـدَ أنَّـه يعلـم جيـدًا أن الإعـلان عـن ريبتـه هـذه عـلى الملأ لـن تعـود عليـه بالخـير. أولى مهـارات التعامُـل مـع الوضـع الراهـن التـي تعلَّمَهـا منـذ صغـره كانـت التَّكيُّـف. سـيتكيَّف مهـما كان الوضـع مُريبًـا، لاحقًـا سـيجد لرأيـه مَنفـذًا وسـياقًا مناسِـبَيْن، لكـن الآن سـيركب الهـواء إن لَـزِمَ الأمـرُ.

بعـد عبـور البوابـة مبـاشرة ركنـت السـيارة جانبًـا، مـع باقـي السـيارات التـي عَـبَرَت للتَّـوِّ معهـا. انفتـح البـاب، وراقـب صـوتُ الثَّغـر في تَحمُّـسٍ مـا سـيحدث، ولمَّـا بـدأ النـاس في الترَّجُّـل منهـا قـال: "it's a superstition"، ثـم تَذَكَّـر أنـه قالهـا مـن قبـل، سَـكَت.

تقـول الأسـطورة الشـائعة، وهـي أسـطورة حديثـة العهـد والتكويـن، إنَّ عـلى العائديـن للمـرة الأولى بعـد التحليـق أن يكـون طيرانهـم الأول هُنـا، عنـد عتبـة المدينـة، عنـد الخَـطِّ الفاصـل بـين نِطاقَـيْ المَشيِ والتحليـق، أول نقطـة يسـتطيع عندهـا السَّـكندريُّ الارتفـاعَ عـن الأرض، وأنَّ مَـن يتجاهـل هـذا الطقـس لـن ينـال الطـيران أبـدًا. لم يَختَـبِر أحدُهـم صِحَّـةَ هـذه القاعـدة مَجهولـةِ المصـدر بشـكلٍ مُمَنهَـج، بـدلًا مـن ذلـك صـارت سُـنَّةً احتفاليَّـةً يحـرص عـلى اتِّباعهـا العائـدون.

آثـر صـوتُ الثغـر أن يكـون آخـر المُترجِّلـين مـن الميكروبـاص -الـذي صـار الآن "مـشروع"، كـما تُسـمِّيه ألسـنة السـكندريين-

وبقي ليشهد تفاصيل المعجزة بتَمهُّل قبل أن يُرغِمَ نفسه على الاشتراك فيها. تأمَّل أبًا يحمل طفله ذا الأعوام الثلاثة، قفز به في الهواء، ثَبَتَا على ارتفاعٍ أقلّ من نصف المتر عن الأرض؛ توتَّر الأب، لكن أحدُهم طَمأنَه بأن هذا أقصى ارتفاع يمكن الوصول إليه عند حافَّة المدينة، لكنه سيطير أعلى مع توغُّله في قلبها. ترك الأبُ طِفلَه في الهواء بحرص شديد، على ارتفاع سنتيمترات قليلة من الأرض؛ حتى لا يتأذَّى إن وقع، ثَبُتَ الطِّفلُ في الهواء، بكى في البداية، وأخذ يُحرِّك أطرافه في عصبية، لكن بعدما أخذ في الارتفاع التدريجيِّ تَحوَّل بكاؤه إلى ضحكات سعادة مُمتزِجَةٍ بهتافات والِدِه التشجيعية والمحيطين به. لاحظ الكاتبُ الكبير أن زوجة الرجل وأم طفله لم تخرج من السيارة، واكتفت بتشجيع زَوجِها وطفلها من الداخل، خَمَّن أنها غيرُ سَكندريَّةٍ تُوفِّر على نفسها عَناءَ المحاولة والإحباط. تمنَّى لو بَقِيَ مثلها في السيارة، لكن لتكون صوتَ الثَّغر عليك أن تتحمَّل ضريبة ذلك. فَكَّرَ بينما يترجَّل من السيارة في استخدام هذا المَشهد في افتتاحية روايته القادمة، عن ماذا ستكون؟ علاقة سُكَّان المدينة بالأغراب؟ قصة حب بين شابٍّ من المدينة وفتاة من الماشية؟ فكرة لطيفة، بينما يقفز فكَّر في اسمٍ مناسب للرواية، ثم وقع صوت الثغر أرضًا وتحطَّمت نظَّارَتُه.

4.4

بعـد سـنوات طويلـة، وبينـما يهـرب مـن القفـص، سـيتذكَّر إسـماعيل طيَّـارة ذلـك المسـاء البعيـد الـذي جـاء الجنـود فيـه ليأخـذوه مـن مقهـاه المُرتَجَـل عـلى سـطح بيتـه.

تكـوَّن مقهـى "ع الطايـر" مـن المقاعـد الخمسـة الخشـبية التـي تراصَّـت مـن قبـل حـول مائـدة السـفرة المتهالكـة في شَـقَّة أمـه، المائـدة التـي أصبحـت بدورهـا نَصبَـةَ شـاي وقهـوة وعصائـر سريعـة التحضـير في ركـن السـطح، وسـبعة مقاعـد اسـتعارها مـن فِراشـة الحـاج محمـد محمـود الفَـرَّاش مقابـل إيجـارٍ رمـزيٍّ وَعَـدَ بـه ولم يدفعـه حتـى تلـك الليلـة، رغـم مـرور خمسـة أيـام عـلى افتتـاح مقهـاه، وثلاثـة مقاعـد بلاسـتيكية رخيصـة شَـكَّلَت كلَّ مـا اشـتراه مُـدرِّس الألعـاب للافتتـاح، ومصطبـة تسـتند إلى سـور السـطح صنعهـا مـن بقايـا أخشـاب قديمـة وجدهـا مُلقـاةً عـلى قارعـة الطريـق، يجلـس عليهـا الزبائـن غـير المُهمِّـين الذيـن يكتفـون بطلـب واحـد شـاي، ويسـخرون مـن حديـث أوَّل مَـن طـار، هـؤلاء يُعاقَبـون بالمسـامير البـارزة الصَّدِئَـة، وشـظايا الخشـب الرفيعـة في ملابسـهم ومُؤخِّراتهـم.

قبـل الافتتـاح، لم يكـن المجلـس عـلى السـطح مَقهًـى، ولم يكـن لـه غَـرَضٌ تجـاري، وإنمـا كان جَناحًـا مُعَـدًّا عـلى عَجَـلٍ لاسـتقبال الضيـوف الذيـن انهالـوا عليـه كالغَيـثِ في أيـام الطـيران الأولى.

تحرَّج من استقبالهم في شَقَّة أمِّه المتواضعة حيث يعيش، وبناءً على نصيحتها جهَّز السطح بما يلزم ليستقبلهم هناك، بينما تُضايِفُهم الوالدة بالمشاريب. لكنها غيَّرت رأيها بعد يومين، وأعلنت أن صِحَّتها لن تُمَكِّنَها من خدمة هؤلاء، إضافةً إلى انتهاء مخزون البيت من الشاي والسكر، ولن تدفع مليمًا آخر في ضيافة شخص لا تشاركه الجوارَ أو الدم. ولما لم يكن إسماعيل محورَ اهتمام أي كائن حي، باستثناء أمه بالطبع؛ فلم يَكُن ينوي إغلاقَ أبوابه أمام السَّاعين إليه.

توسَّل إلى العجوز طويلًا لتعود عن قَرارها بلا جدوى. لكنَّ الحَلَّ جاء في النهاية على هيئة اقتراح محمد بسيوني، القهوجي السابق الذي تمَّ طَردُه من كل مقهى عمل فيه لاختلاسه أكياس السكر وبيعها في السر، أَنْ يضع لافتةً ويقيم نَصْبَة على سطح بيته، يقوم فيها بسيوني على خدمة ضيوف إسماعيل، والأرباح مُناصَفَة. وافق إسماعيل فورًا على الاقتراح، وقرَّر مراقبة استهلاك السكر بنفسه.

كالحُجَّاج جاءه الناس من كل مكان، يلتمسون الإجابة من "أوَّل مَن طار".

كيف طِرتَ يا إسماعيل؟ ولماذا؟ ولماذا طار الناس من بَعدَك؟

عندما سأل نفسه تلك الأسئلة أوَّلَ مرةٍ، أجابته أمه العجوز التي لم تندهش من طيران ابنها والآخرين، بأريحية وتلقائيةِ مَن عاش هذه الحياة عِدَّة مَرَّاتٍ حتى فَكَّ كُلَّ شفراتها:

"عشان إنت طيب يا وَلَا وروحك خفيفة... ريشة كده، ريشة". وبالتفسير نفسه، وبإيمان مُطلَق بما يقول، كان مدرس الألعاب يجيب عن أسئلة مريديه من أهل المدينة القادمين من أعلى، وضيوفها الصَّاعدين على السُّلَّم. حدَّثَهم بِثِقَة وابتسامة وسيعة عن كيف أصبحنا أطيبَ الناس وأخفَّهم ظِلًّا وروحًا وأكثرهم حُبًا وأعلاهم مزاجًا، ومن حُبِّ الأرض لنا صَفَحَت عنَّا وأطلقت سراحنا لنذهب عنها ونعود إليها كما نشاء.

بدا التفسير منطقيًّا جدًّا للأهالي بينما يردِّده إسماعيل الجالس القرفصاء في الهواء فوق رؤوسهم ككاهنٍ بوذيٍّ بلغ النيرڤانا، خصوصًا عندما يدعوهم للاقتراب منه، فيرتفعون بدورهم مُتحلِّقين حولَه في دائرة تأمُّليَّة مَركَزُها حِكمَةُ مُدرِّس الألعاب. أمَّا غير المصدِّقين الحانقين الذين لم تُطلِق الأرضُ سَراحَهم، فهناك دائمًا واحدٌ منهم يسأل السؤالَ نفسه عن سبب بكائه كطفل في برنامج المذيع الأصلع، وعدم قُدرَتِه على الطيران هناك. بنفس الثِّقة يجيب إسماعيل:"عشان الهوا بَرَّه اسكندرية تقيل وزِفِر، مطرح نَفَس باقي الخلق التُّقال، زي حضرتك كده، فلمَّا بنتنفِّسه، بنتقل وبنهبط وبنلزق ع الأرض، برضو زي حضرتك كده".

وهي إجابة غالبًا ما تُضايِقُ السائل، وتدفعه إلى المغادرة مُهَروِلًا دون إكمال الشاي، وسط ضحكات أهالي المدينة على طريقة مغادرته البدائية ماشيًا على قدمين.

لكن بسيوني القهوجي نبَّهه إلى أن سخريته تُسبِّب خسائر مادية كبيرة لعزوف قطاعٍ كبير من الزبائن عنه، فصار أكثرَ دبلوماسيَّةً في ردوده، وصار ينهي حديثه بالدعاء للجميع بالطيران، وتوقَّف عن استخدام لفظة الماشية. في النهاية كان بحاجة للحفاظ على "لقمة العيش" القادمة من المقهى؛ لأنها لقمة عيش أحلى من تلك التي تُوفِّرها الوظيفة الحكومية المَقيتة، خصوصًا بعد أن صار مقهاه قِبلَةً سياحية يَؤُمُّها زُوَّارٌ مُهمّون للغاية من خارج الإسكندرية، ومن خارج مصر أيضًا.

أكثر المجالس تفضيلًا عنده كانت مجالس "العلماء"، اللقاءات العلمية التي كان يقيمها مع زوَّاره من العلماء المصريين والعرب والأجانب، علماء الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والميكانيكا والهندسة والرياضيات والجغرافيا والچيولوچيا والمناخ والبحار والفلك والتاريخ والآثار والاجتماع والنفس والمنطق والفلسفة والدين والطاقة الداخلية والخارجية والإبر الصينية والطب البديل، وخبراء الجمال والموضة. كان يستمع إليهم طويلًا، بالاستعانة بأحمد بسيوني شقيق القهوجي، طالِب كلية السياحة والفنادق الذي اجتاز نصفَ دورة لغة إنجليزية بنجاح؛ ما أهَّله ليؤدِّي دورَ المترجم الخاص لأول مَن طار، يستمع لنظرياتهم وتساؤلاتهم وأفكارهم المُعقَّدة من الخارج، الخاوية من المعنى في الداخل، ثم يهزُّ رأسه في تفهُّمٍ مع ابتسامة عَذبَة بعدما يتأكَّد من أنه لم يَعُد لدى أحدهم ما يقوله، ثم يرتفع جالسًا القرفصاء كعادته، ويفسِّر لهم

بصوتٍ رخيمٍ خِفَّة أرواح السكندريين وعلوَّ أمزجتهم، مُفنِّدًا كلَّ نظرياتهم وعلومهم الوضعية الزائفة، كما يراها.

استجاب بأريحية لكل مَن طلب إجراء أي نوع من الفحوص عليه، ما دام هذا الطلب متضمِّنًا تَبَرُّعًا رمزيًّا لصندوق المقهى. قدَّم للعلم خُصلات من شَعره، وعينات من مُخلَّفاته العضوية، وقطرات من دمه، وبصقات من لعابه، وحتى بعضًا من مائه، بل وقدَّم ذات مرَّةٍ عَيِّنَةً من النخاع الشوكي لدراستها، مُتحمِّلًا ما وصفه بأنه أسوأ ألمٍ شعر به في حياته. ولكنه رفض بإباء عروض من طلبوا منه السفر إلى الخارج لفحصه، مُعلِنًا بشكل قاطع أنه لن يخرج من الإسكندرية، لن يُعرِّض نفسه لتنفُّس هوائهم الثقيل مرة أخرى، أو على الأقل لن يفعل بإرادته الحُرَّة؛ فالجنود لم يهتمُّوا بسؤال إسماعيل طيَّارة عمَّا يرغب فيه أو لا يرغب عندما جاؤوا ليأخذوه.

دخل الجنود العمارة للمرة الثانية في تاريخها، في الثانية صباحًا من ليلة أكتوبرية مُنعِشَة. كان إسماعيل يُدخِّن ويحصي حصيلة اليوم من المقهى عندما حَطَّم الجنودُ بابَ السطح بكعوبهم السميكة. ولأنه لم يكسر أي قانون من قبل، طار بحسن نية ووقف مستكينًا بين يدي قائد الجنود، وردَّد في خضوع: "أؤمرني يا باشا". لم يأمره الباشا بشيء، وإنما أمر الجنودَ بتكبيله ومنعه من الطيران، وقبل أن يفهم مُدرِّس الألعاب السابق شيئًا كان مُصفَّدًا ومحمولًا على أعناق الجنود، ولما بلغوا الشارع رموه في مؤخِّرَةِ شاحنة عسكرية فارغة؛ أغلقوا بابها عليه، وانطلقت به إلى جهةٍ غير معلومة.

الجُزءُ الثّاني

طَيرانٌ مَحْدودٌ

5

اجتماعٌ خَطيرٌ جدّا

5.1

توقَّفَت ثلاثة ميكروباصات أمام المقهى، انفتحت أبوابها في الوقت نفسه، ترجَّلَت منها عِدَّة شوارب مهيبة يتدلَّى منها رجال، بينما ظلَّت نظارة الشمس الـ "راي بان" في مقعد الراكب بجوار سائق السيارة الأولى، لم يُكلِّف صاحبُها نفسَه حتى عناء النظر إلى ما يحدث. اقتربت الشوارب من المقهى.

دارت عيون الرُّوّاد كلهم في اللحظة ذاتها تجاه "السيد جزَرَة"، قالت نظراتهم "بمن وشيت هذه المرة يا ابن الوسخة!"، ردَّ

عليهـم بنظـرة مرتبكـة تنتقـل مـن وجـه إلى آخـر، وتؤكِّد "والله ما أنـا"، لم يصدِّقـوه.

اصطحبـت الشـوارِبُ رُوّادَ المقهـى كلهـم إلى العربـات الثلاث، مَـن سـأل منهـم عـن السـبب كانـت تجيبـه الصَّفعـات، غمغـم أحدهـم "طالما خَدونـا كُلِّنـا، يبقـى حيرجَّعونـا كلنـا، مـش معقـول يعنـي يقبضـوا عـلى القهـوة كلهـا".

تمسَّـكوا بهـذا التفسـير الـذي لا يسـتند إلى أي منطـق، وظلَّـت نظـرات الغضـب والوعيـد مُصوَّبَـة إلى السـيد جـزرة الـذي وقـف يشـاهد الموقـف كلـه مبهوتًـا، لكنهـم في النهايـة صدَّقـوا أنـه ليس المسـؤول هـذه المـرة بالفعـل، حينـما حملتـه الشَّـوارِبُ وألقَـت بـه وسـطهم.

انطلقت الميكروباصات الثلاثة مبتعدةً.

5.2

خلـع نظَّارتـه ذات الإطـار الذهبـي ووضعهـا أمامـه عـلى مائـدة الاجتماعـات الطويلـة الفاخـرة، بعدهـا لم يَعُـد مـن وزيـر الصحـة إلَّا بقعـة غامّـة ملوَّنـة تتحـرّك. وَدَّ رئيـس الـوزراء لـو كان بوسـعه خلـع أذنيـه مثلـما خلـع نظارتـه، فـلا يسـمعه مثلـما لا يـراه.

"ده مـرض؛ الـلي أصـاب الإسـكندرانية ده مـرض، وجالهـم لوحدهـم عشـان تكوينهـم الـجـيني مختلف بشـكل خلَّاهـم عُرضَة

للإصابة بڤيروس جديد يُفقِد الإنسان كُتْلِتُه، فيفرح بالطيران يومين، لغاية ما تفشل أعضاؤه كلها ويموت".

لِمَ الصُّراخ؟ ما الداعي لكل هذا الحماس؟

تنهَّد رئيس الوزراء، ارتدى نظَّارَتَه وهو لا يكاد يفعل، أجاب وزير الصحة بهدوء مُتعمَّد، عسى أن يصيب الرجل مثله، "يعني إنتم وصلتم لسبب المرض أخيرًا يا دكتور؟ عزلتوا الڤيروس مثلًا وتقدروا تعملوا له لقاح؟".

كانت مائدة الاجتماعات بيضاويَّةَ الشكل، على أحد رَأسَيْها جلس رئيس الوزراء، وعلى الرأس الآخر جلس الرجل الوحيد الذي لا يرتدي بدلةً رسمية في الغرفة، أو بمعنى أدق الشخص الوحيد الذي لا يرتدي بدلة رسمية مَدَنيَّة، يُقلِّب قلمًا ذهبيًّا بين أصابعه بسرعة ويَهزُّ قَدَمَه اليُسرى أسفل المائدة في نفاد صبر. وحول المائدة تناثَرَت مقاعد باقي الوزراء.

"إيه؟ لأ، لسَّه... بس قَرَّبنا، نظرية المرض ما زالت نموذج تفسيري لتحديد أبعاد الموقف يا افندم، لكن البحث مستمر و...".

قطع حديثَه صَوتُ قلمٍ ذهبيٍّ أُلقي على المائدة بعنف. عَمَّ الصمت إلَّا من صوت دحرجة القلم حتى وقع على الأرض، جاء من أقصى الغرفة أحدُ المساعدين مهرولًا، التقط القلم ووضعه على المائدة أمام صاحبه، ثم هرع ليختفي حيث جاء. أخذ قلمه بحركة عصبيّة وعاد للعبث به، قال دون أن يرفع عينه لمواجهة مَن ينظرون إليه: "نظرية المرض تم تفنيدها من

قِبَل باحثي وأطباء المؤسسات العسكرية من أول أيام ظاهرة الطيران، ماتضيَّعش وقتك يا دكتور، إنت عارف إن إمكانيات المؤسسات العسكرية أبعد بكتير من المُتاحَة ليك ولوزارتك".

بُهت الوزير الطبيب، هَمْهَمَ بكلماتٍ غير مفهومة مُؤمِّنًا على كلمات صاحب القلم الذهبي، وسرعان ما صَمَتَ وانكمش في مقعده. اعتدل بقية الوزراء وانتصبت ظهورهم وانشبكت أصابعهم وتأهَّبوا، حتى رئيس الوزراء أعاد تثبيت نظارته فوق أنفه واعتدل في مجلسه ليبدو مهتمًّا. يعرف الجميع أنه سيتابع حديثَه، هو فقط لا يستطيع مقاومة التأثير الدرامي الذي يُحدثه الصمت الوجيز بين الجُمل. رفع عينيه أخيرًا وواجههم، استكمل حديثه في كريشندو بدأ بالكاد مسموعًا، وسينتهي كطلقات رصاص.

"أول من طاروا من السَّكندريين محجوزين دلوقتي في هيئات بحث عسكرية فائقة السرية، تُجرى عليهم كل الأبحاث والفحوصات الممكنة وغير الممكنة، ولسَّه محدِّش وصل لأي نتيجة من أي نوع، وبصراحة ده مخلِّيني قلقان، قلقان جدًّا... الطيران أمر خطير، مينفعش يكون متاح للعامَّة والمدنيين؛ دي حاجة تضر بمصلحة الوطن وأمانه، لازم تبقى متاحة بس للعسكريين".

حافظ رئيس الوزراء على نظرته مُصوَّبة نحو عيني صاحب الأوسمة الذي يتابع خُطبَتَه، وخلع نظارته مرَّةً أخرى بهدوءٍ مُحاذِرًا أن يبدو عليه عدم الاهتمام بما يُقال، وَضَعَها على المائدة،

تحوَّل العالم مرة أخرى إلى مزيج غير واضح من الألوان؛ هكذا أفضل بكثير. هو لا يأبه بالطيران ولا بالإسكندرية، ويعلم جيِّدًا أن غالبية الحاضرين مثله لا يفعلون، لكنها أوامر رئيس البلاد، الذي قرَّر بالأمس إعلانَ أن ما يحدث هناك أمر ذو شأن كبير وخطورة تستدعي اجتماعًا عاجلًا لمجلس الوزراء، عاجل لدرجة استدعائه من فرنسا بعد يومين فقط من بدء إجازته السنوية. التعليمات كانت واضحة: يجب رفع ملف الطيران على قمَّة أولويات الحكومة في الفترة التالية؛ فهي حكاية مُسلِّية، وتَصلُحُ لشغل الناس لفترة لا بأس بها، فترة نستطيع فيها التركيز على أمورٍ أهم. انبثقت فجأة من تشكيلات الألوان أعينُ صاحب الأوسِمَة، بَدَت واضحةً جَليَّةً برغم التشويش الذي يَعُمُّ الرؤية، تنظر إليه مباشرة وكأن صاحبها يدرك مَلَلَه ويلومه عليه، وضع نظارته بسرعة وكأنه يعتذر، ركَّز كامل انتباهه على ما يُقال.

"ونكون قادرين على استغلالها في أي مكان، مش في مدينة مُعيَّنة ولا بناس مُعيَّنين. سبب الطيران حيتعرف، عاجِلًا أو آجِلًا، وساعتها المعرفة دي لازم تبقى حصريَّة عندنا مش مُتاحة للجميع، خصوصًا الأجانب الِّلي بيِلفُّوا ويدوروا في المدينة براحتهم تمامًا، بكاميراتهم وأبحاثهم وتجاربهم، كأنها بلد أبوهم. والَّلا انت إيه رأيك يا معالي وزير الثقافة؟".

كانت شَفَتا وزير الثقافة انفرجتا لثانِيَةٍ وكأنه يَهمُّ بقول شيء ما، فقط لتَنطَبِقَا بسرعة بعدما غيَّر رأيه كما يبدو، ولكن صاحب الأوسمة لاحَظَ ذلك، وعلَّق عليه فورًا ليضع وزير الثقافة في بقعة النور.

"مع رأي حضرتك طبعًا، تمام كلامك يا سيادة الفريق".

"بس انت كنت عايز تقول حاجة؛ قولها، متتكسفش".

"لا يا افندم مفيش حاجة خالص".

"قول يا راجل مَتخلِّيش في نِفسَك حاجة".

تردَّد وزير الثقافة، لكن النظرة المُطَمْئِنَة على وجه سيادته منحته شيئًا من الاطمئنان، استجمع شجاعته وقال: "فكَّرت لوهلة، لوهلة وجيزة.. ليه منسيبش الناس تطير؟ مش شايف الأمر خطير للدرجة دي، خلِّينا بس ننظَّم الأمور شويَّة و...".

"انت عبيط يا سيادة الوزير؟".

بعد صمته الذي دام طوال الاجتماع، حتى حسبه بعضهم غير موجود، كان تدخُّل وزير الداخلية مباغتًا.

"انت مين عشان تحدِّد خطورة الوضع من عدمه؟ إيه خبرتك؟ عمرك واجهت الموت دفاعًا عن بلدك؟ كنت بتعمل إيه واحنا نازلين كل يوم من بيوتنا مش عارفين راجعين إمتى؟ كنت قاعد على مكتبك، لابِس روب وبتشرب ويسكي وتكتب شعر... اللي بيحصل في اسكندرية في منتهى الخطورة، مش حنسيب البلد تولّع عشان حضرتك شايف الموضوع بسيط".

تَكَهربَ الجَوُّ العام وارتعش الوزراء في مقاعدهم. خلع رئيس الوزراء نظارته ووضعها في علبتها وأغلقها، دفن وجهه في كفِّيه، ولعن اللحظة التي ترك فيها عالم البِزنِس وانضمَّ إلى الحكومة. كان من القِلَّة المُدرِكة لسبب ثورة وزير الداخلية؛

زوجته كانت سَكندريَّة الأصل والمنشأ، بينما هو من محافظة ريفية لا تشتهر بالسُّمعَة الحَسَنة وسط باقي المحافظات. كَونُه يعيش مع زوجته في العاصمة منذ أكثر من ربع قرن لم يُنسِها أصلَها السَّكندريَّ، ولم تنفكَّ تُعيِّرُه به في كل فرصة؛ فخورةً بمدينتها وكأنها حفيدة الإسكندر ذاته، وتتحدَّث عن أصله الريفي بغرور باشا تركيٍّ في بدايات القرن السابق. تحمَّل منها هذا طويلًا. ولكن ما لا يستطيع تحمُّله هو هَجْرُها إيَّاه لتعود إلى مدينتها وتقيم عند أختها نجوى وزوجها عضو مجلس النواب جلال أبو العز، وتطير معهم.

"مُعدَّلات الجريمة في اسكندرية فاقت كل الحدود، كل الحدود، من ساعة ما بدأ الطيران، الناس بتدخل البيوت من البلكونات والشبابيك، تسرق وتغتصب وتنتهك الأعراض، معادش في حُرمة ولا خصوصية للبيوت. وكل ده كوم وعَبَدَة النورس كوم تاني، تِعْرَف عَبَدة النورس يا وزير الثقافة؟ دول عيال معاتيه بيعبدوا طائر النورس وبيقولوا إنه اللي خلق الدنيا، وبيغتصبوا البنات وبيدبحوا الأطفال ويشربوا دَمُّهم، جرايمهم في كل حِتَّة من اسكندرية، وتيجي انت تقول لي الطيران مش خطير للدرجة دي؟ انت جاهل يا حضرة الشاعر، جاهل وضَيِّق الأفق ومنعدم البصر والبصيرة".

خَرَسَ وزير الثقافة، وابتسم صاحب القلم الذهبي.

5.3

كتب الروائي السكندري الشهير بـ "صوت الثَّغر" في عموده الأسبوعي بجريدة "الرأي":

جَهلٌ جَمعيٌّ

على الصِّدق تَعاهَدنا.

من البداية، منذ أمسكتُ بالقلم للمرة الأولى وكتبتُ، مُجاهِرًا بما في قلبي، بلا زينة ولا ألوان؛ ما جعلني أقضي فترةً مُحترمةً من سنوات شبابي وراء القضبان، عُرِضَت عليَّ الصفقات وسَمِعَت أذناي التهديدات، لكني لا رضيت ولا رضخت، ولم يَكتُب قلمي إلَّا الصدق. كم مَرَّ من الزمن؟ ربع قرن؟ أكثر؟ عُمرٌ كامل! عمر كامل لم أتردَّد فيه عن قول الحق ولو للحظة، وحَسبتُ أني لن أفعل فيما تبقَّى لي من أيام، لكني كنت مُخطِئًا؛ فهناك ما يُثقِلُ قلبي ولا ينطلق به لساني، للمرة الأولى في عمري لديَّ ما أخشى قوله.

لا تتسرَّع في إلقاء الأحكام، لم يتمكَّن الوَهَنُ بَعْدُ من قلب صوت الثغر العجوز، ما زلت قادرًا على مشاكسة هذا ومُناطَحَة ذاك.

خوفي ليس من صاحب سلطة ولا سَجَّان، بل من أهلي، منكم يا أهل سكندريتي الحبيبة، خوفي من زعلكم. لي شهور

أرغب في قول ما أنا على وشك قَوله، أرغب في توضح حقيقة شعوري، لكن لأنني أعرف أن ما سأقوله لن يعجبكم، كَتمتُه في صدري، وكتبت عن الحب والحياة وأحزان مواطن ما بعد الحداثة، لكن مواطن ما بعد الحداثة ليس ما يشغلني، وإنما مواطن ما بعد التحليق.

اليوم حسمتُ أمري، حَقُّكم عليَّ ليس قولَ ما يُعجِبُكم، وإنما قول الحقيقة؛ فَعَلَى الصِّدق تعاهَدنا:

أنا لا أحب الطيران، وأحسبه أمرًا خبيثًا. ها قد قُلتُها، ارجموني إذا شئتم.

قبل أن أُجرِّبَه أوَّلَ مرَّة، حسبته سيكون إدماني الجديد؛ فقد قضيت طفولتي في أحلام يقظة أرى نفسي فيها مُحلِّقًا مع الطيور، أحلامٌ شارَكني فيها كلُّ بني الإنسان على الأرجح. لكن ما إن ركبتُ الهواء لأول مرة -حقيقةً لا مجازًا- حتى عرفت فورًا أن هذا ليس لي، ليس للبشر.

صَدَقَ مَن شبَّه التحليقَ بالغوص في البحر، وإن كان التشبيهُ الأدقُّ هو الغرق. عندما طِرتُ: ضاق صدري ولم يَعُدْ بوسعي التنفُّس، وشعرتُ بالضغط على كل أعضاء جسدي وكأنها على وشك الانفجار، ارتعشت بردًا رغم حرارة الجو، انقلَبَت معدتي رغم خُلوِّها، زاغ بصري رغم قُوَّته، كانت أصعب لحظات حياتي وأثقلها، ثوانٍ حسبتُها دهورًا، ولمَّا لَمَسَت قدماي الأرضَ الأمَّ الحبيبة، عُدتُ إلى الحياة.

لكنَّ الكُلّ حولي كانوا يحتفلون؛ الكل يقفز ويطير ويغنِّي ويرقص، حفلت المدينة بالسعادة الهستيرية. ظَنَنتُ أنني الأحمق الوحيد الذي كره التحليق، كَرِهتُ أنني عجوزُ الفَرَح، المُتذمِّر الوحيد وسط بهجة الجميع؛ لذا ضغطتُ على نفسي وطِرتُ، افتعلتُ الضحك والفرح واحتفلت مع المحتفلين بسيف الحياء، بينما يصرخ جسدي طالبًا الأرض في كل لحظة، وأنا لا أجرؤ على مَنحِه ما يريد، ما يحتاج. في النهاية تَعلَّلتُ بمشغوليّات الحياة، وهربت إلى القاهرة، مُظهِرًا الأسفَ، مُبْطِنًا الارتياحَ.

أول ما فعلت في القاهرة كان زيارة طبيبي الخاص لإجراء فحص عام، ليفاجئني بتعليقه: "وكأن عمرك زاد عشرة أعوام، صار قلبك قلبَ شيخٍ في الخامسة والسبعين، ماذا كنت تفعل يا أحمق!". الحق هو ما قلت يا دكتور، كنتُ أحمقَ، كنتُ أُرغم نفسي وجسدي على ما لا أتحمَّل ولا أحب، حمدًا لله على أني توقَّفتُ عن الطيران سريعًا، بإرادتي الحُرَّة، وإلَّا لَتوقَّف قلبي المُجهَد عن الشيء الوحيد الذي يُجيدُ عَملَه: النبض.

شهور طويلة مرَّت منذ أيام الطيران الأولى، كَتمتُ فيها حقيقة شعوري في صدري، ولم أكن أنوي التصريح به أبدًا إلى أن قرأت عن مبدأ في علم النفس الاجتماعي يُدعَى "الجهل الجمعي Pluralistic Ignorance".

خُذْ عندكَ هذا المثال: أنت في حافلة مزدحمة، ترى فتاة متوتِّرةً، تتحرك بعصبية، تنظر إلى من حولها بعيون مستغيثة،

ثمّة رجل قريبٌ منها لدرجة مريبة، هل يتحرَّش بها؟ هل هي بحاجة لمساعدة؟ تفكّر في مساعدتها، لكن قبل أن تفعل تنظر في وجوه بقيَّة الركاب، كيف يتصرَّف الآخرون بخصوص ما تتعرّض له الفتاة؟ يبدو الجميع ثابتين في أماكنهم غير مُبالين! هل فَقَدَ الناس أخلاقهم إلى هذا الحد؟ لا، غير معقول، ربما لا تتعرّض الفتاةُ لما يضايقها، ربما لا يوجد ما يثير القلق وأنت وحدك الذي أسأتَ تقدير الموقف، ربما لو حاولتَ مساعدتها لبَدَوتَ أنت المتحرِّش اللَّزِج الذي يحاول مضايقتها، لو كان هناك ما يستدعي التدخُّل لفَعَلَ الآخرون؛ لذا تنفض عن نفسك هذه الأفكار، تَقِفُ في حالك، وتفتعل الثَّباتَ والجمود كَمَن لا يبالي.

في الحقيقة، كل ركاب الحافلة مَرُّوا بنفس تَسَلسُل الأفكار الذي مررتَ به لِتوِّك؛ كلهم حسبوا الفتاة بحاجة إلى مساعدة، لكن لمَّا لم يجدوا من الآخرين رَدَّ فِعلٍ؛ فعلوا مثلهم، وافتعلوا الثبات واللامبالاة على وجوههم؛ يخشى الواحد منهم أن يتدخَّل فيبدو أحمقَ. بينما الفتاة هناك تَمرُّ بألعنِ لحظات حياتها.

هذا يا سادة هو الجهل الجمعي، عندما يشعر الجميع بأن الأمور ليست على ما يرام، لكن لا يوجد مَن يجرؤ على أن يكون أوَّلَ المُصرِّحين، لا يوجد مَن يجرؤ على أن يُعرِّضَ نفسه للقب "أحمق".

قفزت من مقعدي -بأقصى ما تسمح به مفاصلي الحزينة- حماسًا لمَّا قرأتُ عن هذا المبدأ لأول مرة، أدركتُ أنني وجدت أخيرًا التفسيرَ المناسب لما أشعر به حيال التحليق.

للتأكُّد من صحَّة نظريتي، تواصَلتُ مع شريحة واسعة من أهلي وأصدقائي ومعارفي في الثغر؛ صرَّحتُ لكلٍّ منهم بحقيقة شعوري تجاه الطيران. في كل مرَّة كنت أجد من مُحدِّثي بعضَ التَّمنُّع والإنكار في البداية، ثم شيئًا فشيئًا أجد خلف هذا الإنكار تحرُّجًا من قَوْلِ الحقيقة، ثم يعترف الجميع في النهاية بالحقيقة: الطيران مؤذٍ جسديًّا ومعنويًّا إلى أقصى درجة.

تواصَلتُ بعدها مع عدد من أطباء الثغر؛ حَدَّثني كثير منهم عن ارتفاع ملحوظ في الوفيات بالسكتة القلبية، وحالات عديدة لانهيار الأعضاء الداخلية، وانتشار غير مفهوم لهشاشة العظام بين صغار السن، وظهور حالات أورام سرطانية جديدة لم تكن معروفة في المدينة القديمة. وصرَّح لي أكثر من طبيب بأنهم يعتقدون بوجود ارتباط بين هذا التدهور الصحي والطيران، لم يضع أيٌّ منهم يدَه على نظرية كاملة بعدُ لعدم فهم أصل الظاهرة، ولكنهم في الطريق إلى ذلك.

أظنُّ أن ما أحاول قَولَه هنا بات واضحًا الآن: الطيران نِقمَة؛ لا أحدَ يُحبُّه، لا أحد يستمتع به، مؤذٍ إلى أقصى درجة، لكنَّ أحدًا لا يجد في نفسه الشجاعة ليقولها بصراحة؛ لذا كان حتمًا عليَّ أن أفعل، إذا كان الكل يخشى الظهور في صورة الأحمق

ساضحي بنفسي لأصيرَ ذاك الأحمقَ. إن الإمبراطور عارٍ يا سادة؛ فماذا نحن فاعلون؟

ملحوظة أخيرة: إني لأتعجّب من وقوف الدولة في موقف المتفرِّج الصامت أمام هذا السيرك، ألن يتدخَّل أيٌّ من المسؤولين لبحث شؤون الطيران وتقنينها؟

5.4

استهلَّ الشيخ حسنين خطبة الجمعة الأولى في مسجد "الصَّفا والمروة"، بعد الطيران، قائلًا: "إنْ أراد الله لنا طيرانًا، فلماذا لم يَخلُق لنا أجنحةً مثل الطيور؟".

مسجد "الصفا والمروة" واحد من خمسة مساجد في شارع محمود مرسي، ذاك الذي شهد انطلاقَ ظاهرة الطيران. تتردَّد خطبة المساجد عبر كتيبة من السَّمَّاعات المُوزَّعة استراتيجيًّا حول كل مسجد، فيَسمَع المصلي في أيٍّ منهم الخطب الخمس على التوازي، حتى إن بعضهم يعتقد بأنه يحصل بهذا على ثواب خمس صلوات في المرة الواحدة.

"قال تعالى في سورة البقرة: بسم الله الرحمن الرحيم (وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إلَى حِينٍ). هـه؟ واخدين بالكـم يـا حـضرات؟ ربّـك بيقـول "قلنـا اهبطـوا"... اهبطـوا... مـش طـيروا واتشـقلبوا في الهـوا.

مـا أنتـم فيـه يـا أخـوتي الآن ليـس إلّا بِدعَـة، بدعـة، وكلُّ بدعـة ضلالـة، هـه؟ مـش كـده والّـلا إيـه!

إن أراد الله لنا طيرانًا، فلماذا لم يخلق لنا أجنحة مثل الطيور؟

إن أراد الله لنا طيرانًا، فلماذا لم يخلق لنا أجنحة مثل الطيور؟

لقـد مسَّـنا الشـيطان يـا عبـاد الله؛ أعطانـا مـن قدراتـه الشـيطانية والعيـاذ بـالله لِيَفتِنَنـا عـن عبـادة الله، ليحيـد بنـا عـن فطرتنـا التـي فَطَرَنـا اللهُ عليهـا. واللهِ، واللهِ مـا نجـح الشـيطان في فعلتـه هـذه إلاااا لبُعدنـا عـن الله وطاعتـه، نسـينا الله وانشـغلنا عنـه بحاجاتنـا الدنيويـة، فأنسـانا أنفسـنا وتَرَكَنـا عُرضَـةً لألاعيـب الشـياطين الكَفَـرَة والعيـاذ بـالله".

رغـم ضيـق مسـاحة المسـجد، وتكـدُّس المُصلِّـين فيـه، فقـد كانـت هنـاك عـلى الـدوام مسـافة واسـعة نسـبيًّا بـين الإمـام وصَـفّ المُصلِّـين الأول. يفسِّـر الشـيخ حسـنين وجودَهـا بأنـه نابـعٌ مـن احـترام المُصلِّـين لـه، بينـما هـي في الحقيقـة وسـيلتهم لتقليل فُرَص الإصابـة بـرذاذ اللعـاب المتناثـر مـن فـم الإمـام مـع خُطَبِـه الناريـة التـي قلّـما فهموهـا.

في الصـف الثـاني كانـت هنـاك طفلـة في الرابعـة تتملمـل بجـوار أبيهـا، مُنزعِجَـةً مـن الصـوت الصـارخ وتعبـيرات الشـيخ الغاضبـة، وكان الأب يمسـك ابنتـه بشـدّة، لكـنّ قبضتَـه تَراخَـت للحظـة، بمـا يكفـي لتفلـت الطفلـة مـن يـده، وتطـير ضاحِكَـةً فـوق رأسـه

والمُصلِّين، وأخذت تفلت من محاولات الأب الذي نهض وأخذ يركض بين المصلِّين محاولًا القبض عليها، حَسِبَته يلاعبها.

"أستغفر الله لي ولكم... أستغفر الله... أستغفر الله".

قطع الشيخ حسنين خطبته وركَّز نظرته على الأب وابنته، ومعه دارت عيون المصلين عن قبلتهم مُتولِّين الرَّجلَ وابنته. أخيرًا، نجح الأب الذي احمرَّت وجنتاه خجلًا، في الإمساك بقدم الطفلة في النهاية، واتَّخذ مجلسه في الركن. لم تتوقَّف الفتاة عن الطيران، وإنما ظلَّت تدور في دائرَةٍ مركزها قدمها التي يمسكها الأب.

تابع الشيخ حسنين:

"أخوتي.. أحِبَّتي في الله

أتعرفون لماذا لم يَطِرْ أشقَّاؤنا من البلدان والقرى الأخرى؟ ذلك لأنهم لم ينسوا الله كما نسينا، لم يتركوا طاعة الله كما فعلنا، لم يجعلوا للشيطان مكانًا في حياتهم مثلما جعلنا... فحفظهم الله من مكر الشيطان، ولم يحفظنا!

أخوتي.. أحبَّتي في الله

إن أراد الله لنا طيرانًا، فلماذا لم يخلق لنا أجنحة مثل الطيور؟

أُذكِّركم وإيَّاي بالعودة إلى الله ونَبْذِ هَمَزات الشياطين، والتخلِّي عن البِدع، جميعها، ما جَدَّ منها وما قَدُم، وعدم الاستهانة بأيٍّ منها؛ فصغائر الذنوب تقود إلى كِبارِها. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم... توبوا إلى الله يرحمكم الله... وأقِمِ الصلاة...".

5.5

يجيـب السـيد مَـن يسـأله عـن سر لقبـه "جـزرة" بـأن هـذا يرجـع إلى عملـه، باعتبـاره صاحـب فَـرْش الخضـار عنـد أول الشـارع، "مـش أحسـن مـا يسـمُّوني سـيد جرجـير؟ نياهاهاهـا". لكـن في اجتماعـات رجـال الشـارع الليليـة عـلى المقهـى، كان السـؤال ذاتـه يُطـرَح كلَّ ليلـة، كأنـه نمـرة ثابتـة في مسـرح ترفيهـي، ليجيـب أحدهـم بصـوت عـالٍ يقصـد بـه أن يصـل إلى مسـامع السـيد "عشـان مـن تحـت رفيَّـع ومـن فـوق تخـين؛ شـبه الجـزرة". لم يَخِـب التعليـق في إثـارة غضـب السـيد وإحراجـه قَـطُّ؛ فيغـزو الاحمـرارُ وجهَـه حتـى أذنيـه، وهـو بالضبـط مـا ينتظـره صاحـب التعليـق ليتابـع "حتـى وشُّـه أحمـر زي الجـزرة". لا يضحـك الرجـال عـلى التعليـق، وإنمـا يترقَّبـون ثـورة الرجـل القصـير مُضحِـكِ الشـكل وشـجاره مـع صاحـب التعليـق، الثـورة القادمـة مهـما حـاول كَبْحَها، لينفجـر الجميـع في قهقهـة طويلـة تزيـد السـيد غضبًـا عـلى غضـب.

لكـن بعـد أن اتُّهِـم مجـدي السـباك بتعاطـي المخـدرات، ورشـدي الحلـواني بترويجهـا، وسـامح الدسـوقي بتلقِّـي الرشـاوى مـن المواطنـين في وظيفتـه بالشـهر العقـاري، وبعـد أن صـودِرَت كـراسي المقهـى عـدَّة مـرَّات مـن شرطـة البلديـة، والتـي تُعـرَف في الإسـكندرية باسـم "شرطـة الإزالـة"، توقَّفَـت جلسـات السـخرية مـن السـيد جـزرة الـذي لم يتحـرَّج مـن التلميـح بأنـه صاحـب التقاريـر التـي أرشـدت الشرطـة لهـذا وذاك. احتفـظ بائـع الخضـار بلقـب الجـزرة، واسـتجاب لمـن يناديـه بـه بصـدر رحـب، بعـد أن

اطمأنَّ أنه لن يكون محلَّ سخرية مرة أخرى. لكنَّ لقبًا آخر كان في الطريق.

لا تجيد "الحاجة وداد" التعامل مع ريموت التليفزيون؛ فتجعل أحد أحفادها أو أبناء أحفادها يضبطه لها في أول اليوم على القناة الخامسة الأرضية، ويرفع صوته إلى أقصى درجة، ليصل إلى مسامعها الضعيفة العجوز صوت الأذان في مواقيت الصلاة، عدا ذلك لا تهتم بما يقدِّمه التليفزيون من محتوى على تلك القناة أو غيرها، تحب فقط أن يكون هناك صوتٌ في الخلفية طوال الوقت؛ يُذكِّرها بأنها لا تزال حَيَّة.

في أحد الأيام، وبعد أن رفَعَت يدَيْها في تكبيرة إحرام صلاة العصر، جاءها صوت السيد جزرة عاليًا واضحًا من التليفزيون. كان هذا أمرًا أكثر غرابةً من أن تتجاهله، فخرَجَت من الصلاة مُستغفِرَةً ربَّها، واقتربت من الشاشة حتى كادت تلتصق بها لِتميِّز ما عليها، وكان هناك: السيد جزرة في بنطاله عديم اللون والبلوفر الأخضر الذي لم يُغيِّره منذ عرفوه، وإن كان كلاهما مغسولين ومكويين على غير العادة، يتحدَّث بوقار مُفتَعَل عن طفولته في حي العصافرة القبلية وحياته وعلاقته بالشارع وسكانه.

كانت مدام غادة، المذيعة متعدِّدة المواهب، هي كل طاقم إعداد وتقديم وإخراج برنامج "رجل من هذا الحي". ولمَّا كان عليها أن تجد أسبوعيًّا رجالًا من أحياء المدينة المختلفة ليظهر في برنامجها واسع الشهرة عظيم التأثير، كما تعتقد، كانت تلجأ

إلى قسم الشرطة في كل حيٍّ ليُرشِّح لها الضُّبَّاط والجنود رجالًا موثوقًا في أمانتهم وشرفهم؛ جديرين بالظهور في التليفزيون القومي؛ لذلك كان الرجال من كل أحياء مدام غادة مرشدي شرطة. لم تعرف الحاجَّة وداد كل هذا ولم يكن ليثير اهتمامها، هي فقط وجدت الأمر كله مضحكًا للغاية، مضحكًا إلى درجة أنها غرقت في نوبة طويلة من القهقهة منعتها من العودة إلى الصلاة حتى كاد المغرب يؤذِّن، لكنها استعاذت ربها من الشيطان، ولحقت بالفرض قبل ضياعه.

في الأيام التالية، تأكَّدَت من نشر رؤيتها لجزرة -الرجل من هذا الحي- على الشاشة بين نسوة الشارع كلهم، اللواتي وجدن الأمر مضحكًا لنفس الدرجة. أدَّى هذا إلى ازدهار تجارة السيد جزرة في الخضار؛ إذ صارت النسوة يُفضِّلن التَّسوُّق من عنده فقط لمناداته قائلين: "يا راجل من هذا الحي".

كان السيد جزرة في تلك الفترة بلغ أوجَ مَهابَتِه، بعد أن صار رجال الحي جميعًا يخاطبونه باحترام ويخشون جانبه، وصارت جمعية المسجد العمومية في الشارع تتركه يأخذ نصف محتوى صندوق التبرُّعات أسبوعيًّا، وتجلَّت هذه الهيبة في أبهى صُوَرِها عندما توسَّط له الباشا في قسم المنتزه لإطلاق سراح ابنه الذي قُبِض عليه متلبِّسًا بتهمة حيازة المخدِّرات وتعاطيها والاتجار بها، وعندما عاد "أحمد السيد جزرة" إلى الوقوف على ناصية الشارع -أو إمَّة الشارع، باللغة المحلِّيَّة- يبيع البرشام مثلما كان يفعل بالضبط قبل القبض عليه، عرف رجال المنطقة أن جزرة بَلَغَ مكانةً لن يستطيع أحدهم مجابهته فيها.

حينما صارت النسوة يناديئنه باللقب الجديد، تلقَّاه بزهو في البداية، مُعَلِّلًا ذلك بأنه صار ألمع نجوم الشارع بعد أن حقَّق مكانةً إعلامية لم يصل إليها أيٌّ من رجالهن. ولكن لأن السخرية محلها العيون قبل الأفواه والكلمات؛ سرعان ما أدرك أنه محور نكتة كبيرة لا يفهمها. لم يجرؤ على التشاجر مع النساء، وظلَّ وجهه في احمرارٍ دائم طوال الوقت أمام أعينهن المتهكِّمة. أما تقاريره التي كتبها بخطِّه الرديء وكلماته الركيكة عنهن، فوجدت صدى عند البشوات بالفعل وكان لها تأثير كبير؛ صار البشوات كلهم ينادونه بلقب "رجل من هذا الحي".

حتى عندما أخذه الرجال/ الشوارب مع رُوَّاد المقهى لم يتخلَّص من اللقب.

فعندما لم يجد الرجال ردًّا ممَّن ألقوا القبض عليهم بشأن تُهمَتِهم أو المكان الذي يأخذونهم إليه، عادوا ليلقوا باللوم على بائع الخضار المنكمش رعبًا وسطهم.

"واخدينَّا على فين الناس دي يا جزرة؟"، "يعني إيه متعرفش؟ تلاقيك إنت اللي مبلَّغ عنَّا"، "لو كان هو اللي مبلَّغ عنَّا مكنوش خدوه معانا"، "شكلهم عرفوا أخيرًا إنه معفِّن مالوش لازمة، فحشروه معانا"، "أُمَّال رجل من هذا الحي على خيبة إيه بقى؟"، "جزرة... جزرة من هذا الحي"، "بص وِشُّه احمرّ إزاي؟ آه يا جزرة يا عرص، مابقاش ليك عين تبصّ في وشّنا يا وسخ".

وعندما استمرَّت الرحلة وقتًا أطول وخرجت من حدود المدينة، وأدرك الرجال أن الأمر أكبر من وشاية محلية أو قضية محدودة الشأن، بلغ بهم توتُّرُهُم وقلقهم مَبلَغَه، وقرَّر أحدهم أن يفتتح الحفلة بصفع السيد على قفاه. ولمَّا لم يتدخل أيٌّ من ركاب السيارة الأصليين ليوقِفَه، تتابعت الصفعات على القفا السميك الأحمر المنكمش.

وبينما كانت السيارات تمضي في الصحراء الغربية في الفجر، كان الرجال استسلموا للنوم، تعبًا وقهرًا، أمَّا السيد جزرة، فكان يبكي.

5.6

بلا جدوى حاول جزرة أكثر من مرَّة التواصُل مع العاملين في "مركز بحوث الطيران" من ضُبَّاط وجنود وأطباء وباحثين- ليوضِّح أنه ذو علاقات مهمة مع البشاوات في قسم المنتزه، وأنه شخص لا غِنى عنه هناك. لكن الوقت لم يَطُل قبل إدراكه أن البشوات هنا من نوع يختلف عن البشوات هناك، وعليه أن يضع علاقاته تلك في أماكن حدَّدوها له بدقَّة. في النهاية استسلم ورَكَنَ للإذعان مثل الجميع.

كانت الخُطَّة أن يُبنى مركز بحوث الطيران في قلب الصحراء الغربية، بصخور ورمال من شواطئ الإسكندرية، وأن يُعْزَلَ عن العالم الخارجي تمامًا، فلا تدخله ذرَّةٌ من هواء إلَّا ذاك الذي

تضخُّه أجهزة التكييف، من خزانات عملاقة مُلِئَت في الأماكن التي سَجَّلَت فيها أجهزة القياس أقصى ارتفاعٍ بَلَغَه المُحلِّقون في المدينة؛ وذلك بهدف توفير عناصر البيئة السكندرية الطبيعية للمحتجزين؛ لتحفيز قدرتهم على الطيران خارجها. لكن لضيق الوقت والميزانية بُني المركز بمواد بناء عادية، باستثناء قاعة واحدة في الطابق الأخير منه، جُعِلَت حوائطها من صخور المدينة. واستُبدِلَت خزَّانات الهواء العملاقة في الخُطَّة الأصلية بأسطوانات أكسجين كالتي يحملها الغوَّاصون، وقد مُلِئَت بهواء المدينة ليتنفَّس منها المُحتَجَزون بالمركز في أثناء محاولات تحفيزهم اليومية.

أمَّا العَيِّنات التي كانت تُجرى عليها التجارب، فتشكَّلَت مِن أوَّل مَن طاروا، على رأسهم إسماعيل طيَّارة وزُوَّار المقهى عديم الاسم في العصافرة الذي قالت عنه التقارير -التي قدمها السيد جزرة- إنه أول مكان شهد ظاهرة طَيرانٍ جماعي في المدينة، إضافةً إلى ما يزيد عن 150 عيِّنة سكندرية أخرى متنوِّعة من مختلف الأعمار والحالات الصحية والاجتماعية، ومن كِلا الجنسين، في محاولة لإضفاء دقَّةٍ إحصائية كافية لنتائج الأبحاث المرتقبة، الإيجابية بإذن الله.

وُزِّعت العَيِّنات على العنابر، مُقسَّمةً حسب الجنس والفئة العمرية، ثم لاحقًا حسب صِلَةِ القرابة الأسرية بين بعضهم، ثم حسب الطول والوزن، ثم حسب لون البشرة والميول الفكرية. مُنع الاختلاط بينهم حينًا، وسُمح به أحيانًا. كل يوم أو كل بضعة أيام، يدخل العنابر واحِدٌ من ذوي المعاطف البيضاء؛

يأخـذ عيِّنـات الـدم والشـعر والبصـاق والعـرق والبـول والـبراز، يقيـس الضغـط والحـرارة والـذكاء وسرعـة دقَّـات القلـب وذكـورة الرجـال وأنوثـة النسـاء، يفعـل هـذا وهـم كُسـاة أو وعـراة، ثابتـون أو متحرِّكـون، مُمدَّدون أو جالسـون أو واقفـون أو مقرفصـون أو مُعلَّقـون في الهـواء بالحبـال، عـلى أمـل أن يطـيروا، وهـو مـا لم يحـدث.

يجـري كل هـذا في صمـتٍ تـامٍّ مـن العيِّنـات وطاعـة عميـاء لأوامـر ذوي المعاطـف البيضـاء، محـاولات الاعـتراض الأوليـة كانـت تـؤدِّي إلى ذهـاب الطبيـب/ العالِـم ليعـود لاحقًـا بصحبـة جنـدي أو أكـثر، وربمـا صاحـب رتبـة عاليـة تضمـن طاعـة الأوامـر بـلا نقـاش.

تناقَلَـت ألسـنة "العَيِّنـات" همسًـا، مصـدره إسـماعيل طيـارة، ومفـاده أن المعاملـة السـيئة التـي ينالهـا المحتَجَـزون لـن تـؤدِّي إلى الطـيران حتـى لـو أحـضروا لهـم الإسـكندرية كلهـا هنـا، ولا سـبيل لتحفيـز الطـيران إلَّا عـبر المعاملـة الطيبـة و"تظبيـط المـزاج". وبعـد مُـضيِّ شـهور بـلا نتيجـة إيجابيـة تُذكَـر، بلغـت هـذه الأفـكار أذنًـا مصغيَـةً تعلـو كتفًـا تُزينـه النجـوم والسـيوف والنسـور، ووجـد فيهـا صاحـب هـذه الأذن منطقًـا مـا. وبالتدريـج بـدأت قيـادات "مركـز بحـوث الطـيران" في اتِّبـاع سياسـة تدليـل العَيِّنـات؛ حظيـت العنابـر بأثـاث يليـق بأجنحـة الفنـادق الفاخـرة، وجُلِبَـت الوجبـات مـن أفخـم المطاعـم، عمادهـا الرئيـسي، طبعًـا، مـن أطعمـة الإسـكندرية البحريـة، أقيمـت احتفـالات صغـيرة وعـروض سـينمائية ومباريـات كـرة ترفيهيـة، حتـى إن القيـادات غَضُّـوا البـصر عـن دخـول السـجائر المَحشـوَّة، عـلى ألَّا يتـمَّ ذِكـرُ ذلـك في أي سـجلات رسـمية بالطبـع.

لوهلة من الزمن صارت حياة العيِّنات في المركز أطيب من حَيواتِهم السابقة خارجها، حتى إن بعضهم لم يَعُد يتمنَّى أن يخرج من هنا، وهيَّأ إسماعيل طيَّارة نفسه، بعدما نال من التدليل ما فاق نصيب الجميع، أن يصير أوَّلَ الطائرين خارج الإسكندرية مثلما كان أَوَّلَهم فيها.

لكن هذا كله كان بلا جدوى.

5.7

بعد خمسة أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وثماني ساعات من التحفُّظ على السيد جزرة مع رُوَّاد المقهى، نادى الصول حسن في طابور الصباح على "السيد أحمد سلامة"، وكرَّر النداء ثلاث مرات، دون أن يتلقَّى أي إجابة.

ترك الطابور وذهب إلى مكتب الإدارة القريب، ليعود بعد دقائق مناديًا "السيد جزرة". لأن جزرة لم يتعوَّد على مناداته باسمه الحقيقي الكامل بصوتٍ عالٍ، وربما أيضًا نَسِيَه؛ لم يستجب للنداء الأول، أمَّا النداء الثاني، فتجاهله أوَّلَ مَرَّةٍ عَمدًا، خوفًا. لكنَّ زملاؤه في الطابور تَطوَّعوا بدفعه للأمام رغمًا عنه وتقديمه قربانًا للصول حسن، تمنَّوا لو يبدؤون يومهم برؤية "الرجل من هذا الحي" مُكدَّرًا. أشار إليه الصول بأن يتبعه، ففعل. ولما بلَغا مكتب اللواء قائد المركز، مَدَّ له اللواء هاتفه

المحمـول دون أن يُكلِّـف نفسـه عنـاء النظـر إليـه؛ تلقَّـفَ الهاتـف بأصابـع مرتعشـة متعرِّقـة، ووضعـه علـى أذنـه.

"إزيَّـك يـا جـزرة؟"، بـكى السـيد وتَهـدَّج صوتـه بينـما يجيـب "معتـز باشـا!".

5.8

في جلسـة البرلمـان التـي عُقـدت في اليـوم التـالي لاجتـماع مجلس الـوزراء، تحـدث أعضـاء الحـزب الحاكـم عـن الانفـلات الأمنـي الذي يُسـبِّبه التحليـق في الإسـكندرية، والفـوضى التـي عمَّـت المدينـة، وارتفـاع معـدَّلات الجريمـة. وتحدَّثـوا عـن الجواسـيس الأجانـب المُتنقِّلـين في شـوارعها بحريـة مُلتَقطـين الصـور والأفـلام لأبنائنـا ونسـائنا وأسرارنـا، وكيـف أن هـذا سـيضرُّ حتـمًا بأمننـا الوطنـي، مُناشـدين الحكومـة التدخُّـلَ لإنقـاذ الإسـكندرية. أمَّا نُـوَّاب الأحزاب الدينيـة، فقـد تحدثـوا عـن ظاهـرة "البدعـة النورسـية" الجديـدة، عـن الذيـن اتَّخـذوا مـن عبـادة النـورس دينًـا، وينـشرون حكايات وثنيـة جاهليـة عـن الخلـق والديـن والدنيـا. وذكـروا الحكايـات المؤكَّـدة المتناقلـة بـين النـاس عـن طقـوس أتباع النـورس الشيطانية الدمويـة، وكيـف تنتـشر هـذه الفتنـة بـين شـبابنا وتفسـد أخلاقهـم وتذهـب بدينهـم. تحدَّثـوا أيضًـا عـن اسـتباحة حُرمَـة البيـوت، وكيـف تسـتغيث النسـاء وربَّـات البيـوت مـن عيـون المتلصِّصين

التي تخترق نوافذهم وشرفاتهم. تحدَّثوا طويلًا عن أمورٍ عِدَّة، ولم يقاطعهم أحدٌ مثلما يحدث عادة.

أقرَّ النُّوَّاب قانونًا: لا أحد يذكر مَن تقدَّم به ولا متى، يُجرِّم طيران المدنيين لارتفاعٍ يزيد عن الأمتار الثلاثة نهارًا، والمتر ونصف المتر ليلًا، وذلك في الإسكندرية أو في أي مدينة قد يُصاب أهلها بالطيران. يُعاقَب المخالف للقانون بغرامة تتراوح بين ألفٍ، وعشرين ألفًا من الجنيهات، تُحدَّد قيمَتُها تبعًا لمقدار الارتفاع المخالِف، والسجن في حالة تكرار المخالفة. وأصدر المجلس قرارًا بطرد الأجانب من المدينة، ومنع التصوير في الأماكن العامة إلا بتصريح، ومنع غير سكَّانها من زيارتها، ومنع سُكَّانها من الخروج منها إلَّا بتصريح يذكر سبب الدخول أو الخروج في الحالتين. هنا قام أحد نواب الحزب الحاكم في شجاعة معترضًا على استخراج تصاريح الدخول والخروج؛ فهناك كثير من المواطنين الذين تُحتِّم عليهم أعمالهم السفر يوميًّا من المدينة وإليها، أو بشكل مفاجئ لا يجد معه الوقت الكافي لاستخراج التصريح. وكان وزير الداخلية موجودًا في هذه الجلسة بالذات، بالمصادفة البحتَة. ردَّ على ذلك العضو قائلًا: "قرار استخراج التصاريح هدفه الأول والأخير ضمان أمن المواطن المصري وسلامته، أيًّا كانت مدينته الأصلية، وعلى المواطن أن يكون ممتنًّا لمثل هذه القرارات التي تصبُّ مباشرةً في مصلحته. ولكن، نظرًا لاهتمامنا براحة المواطن وسلامة حياته، بقدر يقارب اهتمامنا بأمنه، وإنْ كان لا يساويه، سنعمل على وضع نظام كفء لاستخراج تصاريح الدخول والخروج فوريًّا

على مداخل المدينة ومخارجها، في ساعات... عفوًا... في سُوَيعاتٍ قليلة، بدلًا من عدَّة أيام مثلما كان من المزمع".

صفَّق الجميع.

قبل ختام الجلسة اقترح أحدهم إجراء عملية إحلال وتبديل بين سكان الإسكندرية وسكان أي مدينة مصرية أخرى. نظر الوزير إلى النائب المُقترح طويلًا، زاغت عيناه وصمت لوهلة وكأنه يتخيَّل أمرًا ما؛ ابتسم، ثم هَزَّ رأسه نافِضًا عنها خيالاتها. قال بعيدًا عن الميكروفون ضاحكًا: "طب والله فكرة حلوة، بس للأسف تطبيقها صعب، فرهدة جدًّا".

5.9

"حمد لله ع السلامة يا ابو السِّيِّد، ليك شوقة والله.

شكلك زي الخرا بالدَّقن، لما تروَّح احلقها، مش لايقة عليك، بس خلِّي الشنب، حتحتاجه. متزعلش يا سيد، عيب، انت أبو العارفين، دي مصلحة الوطن، انت نفسك اللي قَدِّمت التقرير وحكيت بالتفصيل عن طيران الناس ع القهوة، لو كنت ذكي فعلًا ومصحصح كنت بطَّلبت تقعد هناك تاني بعدها. حصل خير يا عم، خلاص؛ دول كلهم كام شهر، ده أنتم كنتم قاعدين في منتجع سياحي مش معسكر... كانوا بيدخَّلوا لكم حشيش؟ يا دين أمي! أنا عمال أضحك من ساعة ما عرفت.

المهم، احنا مارجَّعناكش هنا عشان حلاوة عيون أمك طبعًا، احنا محتاجين رجالة يا ابو السِّيد. حكوا لك في السِّكَّة عن قانون الطيران المحدود؟ كان لازم القانون ده يتطبَّق من زمان، انت عارف الشَّرمَطَة اللي بتحصل في الشوارع من العيال بتوع النورس، حاجة آخر قِلّة أدب ووساخة، أستغفر الله العظيم يعني. عارف؟ قبضنا من يومين على جوز عيال بيوزَّعوا منشورات دين النورس وهُمَّا طايرين في الهوا، بيقولوا إن النورس خلق العالم والفراخ عايزة تدمَّره، حاجة آخر مسخرة. العيال دي لازم تتجاب كلها، والقانون الجديد محتاج يتطبَّق بصرامة، بس انت عارف إن كتير من رجَّالتنا مش من إسكندرية، مواشي. محتاجين رجَّالة بتوعنا من ولاد البلد، يقدرو يطيروا ويمسكوا أي خول يكسر القانون. فتحنا باب التطوُّع من يومين، واتقدِّم عشر-تلاف واحد، تَخيَّل! عشر-تلاف بني آدم حيموتوا ويبقوا أمناء شرطة. بس ده أقل واجب، توقَّعت أكتر أصلًا، حد يطول؟ حناخد منهم كتير، بس إحنا قُلنا برضو الأولوية لرجالتنا، الناس اللي نعرفهم وربيناهم على إيدينا، محلَّات الثقة. مش انت محل ثقة برضو يا جزرة؟ أنا دايمًا أقول عليك كده، أجدع مرشد اشتغلت معاه عليَّا النعمة.

نسيت أسألك تشرب إيه، تشرب إيه يا ابو السِّيد؟ لا والله حتشرب، انت ضيف علينا يا جدع، طب عليَّا الحرام من ديني لا تشرب، يا عبنااااااااصر، هات لسيد فراولة، فراولة فريش من الغالية، على حسابي. حبيبي يا ابو السيد، روَّق كده يا جدع ماتبقاش عبيط، دي كانت فسحة مش حبسة، وبعدين

انـت مافهمتـش كلامـي؟ أنـا بقـول لـك عايـزك تبقـى معانـا، أمين شرطـة".

"أنا؟ أمين!".

"أنـا فاهـم طبعًـا قـد إيـه ده كلام صعـب، حنلاقـي منـين زِي رسـمي مقـاس الجـزرة؟ نياهاهاهـا... حنتـصرَّف، حنعملَّـك واحـد مخصـوص".

"بس أنا عندي شرط يا باشا".

"أحَّـا، شرط؟ انـت حتتـشرط عليَّـا؟ عليَّـا النعمـة أخـلِّي العربيـة الـلي جابتـك ترجَّعَـك المركـز زي الكلـب".

"العفـو يـا باشـا مـش قصـدي؛ لا مؤاخـذة، حقَّـك عليَّـا، قصـدي طلـب، ارتجـاء يعنـي".

"ارتجاء؟ ارتجئ يا سيدي".

"أحمد ابني يتعيِّن هو كمان".

"بس ده مدمن برشام يا جزرة".

"يتعالـج يـا باشـا، يتعالـج ويـتربَّى، هـو فيـه أحسـن مـن الميري يربِّيـه؟".

".... ماشي يا سيد، وأحمد ابنك".

"حبيبـي والله يـا معتـز باشـا، حبيبـي وابـن حبيبـي، ربنـا يكـرم سـعادتك، أشـوفك لـوا يـا رب".

"حبيبـي يـا جـزرة. تنسى بقـى الخـرا بتـاع جـزرة ورَجُـل مـن هـذا الحـي والهبـل ده، انـت مـن هنـا ورايـح واحـد مِنِّنـا، محـدِّش يقولِّـك الـكلام ده، غـيري طبعًـا. مـن هنـا ورايـح اسـمك الأمـين سـيد. اسـمك إيـه؟".

"الأمين سيد يا باشا".

6

سِفرُ التَّحليق

برغم مُصادَرَة الشرطة كلَّ المنشورات الورقيَّة التي وزَّعها الشَّابَّان (أ. فتحي- 19 سنة) و(ك. طارق- 22 سنة)، في ظهيرة يوم 20 يوليو بميدان محطَّة الرمل في الإسكندرية. وجد محتوى تلك الأوراق طريقه لشبكة الإنترنت على هيئة ملف PDF مجهول المصدر، وإن كان يُرجَّح أن مصدره زعيمة النوارس الخَفيَّة التي لم تُحدَّد هُويَّتُها بعد. وبسرعة فيروسية انتشر الملف بين منتديات الإنترنت والرسائل الإلكترونية، وأثار "سِفْر التَّحليق" إعجاب وسخط وفضول وقلق الكثيرين.

***

"في البدء، وُجِدَت إرادة الوجود.

وبوجودها بدأ الزَّمانُ، وكان ذلك اليوم ثلاثاء.

لم يكن في العالم شيء، ولا شكل ولا مكان، لم يكن حتى فضاء؛ فقط كانت إرادة الوجود، والزمان الذي لا يزال في يومه الأول. ثم خلَقَت إرادةُ الوجود أوّلَ المخلوقات، نفسها، على هيئة طائر نورس أنثى كونيَّة هائلة. ووضَعَت النورسُ الأمُّ إرادةَ الوجود بيضة، احتضَنَتها ستَّةَ أيَّامٍ ثم نامت، وفي اليوم السابع فَقَسَت.

انشطرت قشرة البيضة إلى شطرَيْن: صار أحدهما السماء، بما فيها من أبراج وكواكب ونجوم، والآخر صار الأرض، أمَّا سائل البيضة، فصار المحيطات التي ملَأَت العالمَ بينهما.

وبعد ثلاثمائة ألف عام، في أحد أيام الثلاثاء، استيقَظَت الأمُّ، ووجَدَت نفسها في كهفٍ على قِمَّة جبلٍ عالٍ في منتصف جزيرة، وكانت تلك الجزيرة بُقعةَ الأرض اليابسة الوحيدة بين محيطات تمتدُّ حتى الأُفُق، حيث تلتصق السماء بالأرض. شعرتُ بغرابة المشهد، لا تذكر أنها خلقت هذا العالم أو رغبت في خلقه، نعقت، ردَّد العالم صدى نعيقها، وكان ذلك أوّلَ الأصوات. عزَمَت على إعادة تشكيل هذا العالم، وانطلَقَت نحو الأفق لتمزِّق السماءَ عن الأرض وتَعبُرَهما إلى الخواء الأول، حيث سيكون بوسعها تشكيلُ الكون من جديد. مَشَت على ساقَيْها العظيمتين، إلى أن مسَّت قدَمُها الماء للمرة الأولى، جَفَلَت عندما وجدت نفسها تغوص، تراجَعَت إلى اليابسة، عندها خَلَقَت لنفسها أجنحةً، وطارت، وكان ذلك أوَّلَ الطيران.

طارت الأم فوق المحيطات، إلى الأمام في خطٍّ مستقيم، ماضيةً نحو أفق لا يقترب أبدًا. من حين إلى آخر كانت تشعر بالتعب، فتخلق جزيرةً تركن إليها وترتاح، من تلك الجُزُر تشكّلت القارات. وبعد أسبوع من التحليق وصلت إلى النقطة التي بدأت منها أوّل مرّةٍ، اندهشت، قالت: "ما هذا العالم العجيب الذي خلقته؟ كأنّه متاهة!"، وكانت تلك أول ما قيل في العالم من كلمات.

شعرَت فجأةً بأنه سيكون من اللطيف لو كان هناك من يَردُّ على كلماتها قائلًا: "نعم، إنه عالم غريب"، أو: "لا، هو عالم عادي"، أو حتى مَن يطلق أصواتًا مُبهَمَةً تدلُّ على أنه سمع كلماتها حتى لو لم يفهمها. شعرت بأن العالم صامِتٌ لدرجة لا تُحتمل، وحزن مؤلم غير مبرر. وهكذا خلَقَت الأمُّ -دون قصدٍ- الاكتئابَ والوحدة.

عندها -وبدافعٍ من وحدتها- خلَقَت الحياة. خلقت الأشجار والأعشاب والزهور، خلقت الطيور والأسماك والنمور، خلقت ما يمشي ويجري ويزحف ويطير ويعوم. خلقت الكائنات بمختلف أشكالها، الجميلة منها والقبيحة، السهلة منها والصعبة، الذكية منها والغبية. خلقت الكائنات كلها إلا اثنين، وجعلت في كل مخلوق شيئًا منها، من إرادة الوجود ذاتها. وبسرعة شديدة امتلأ العالم ضجيجًا. ذهبت عنها الوحدة، لكنها شعرت بوجع في رأسها، وهكذا خُلق الصداع.

اجتمعت مخلوقاتها حولها، ومن فرط الحب والتقدير للخالِقَة؛ عبدوها. اندهشت من فعلهم الغريب، لكنها أحبَّت شعورهم الطيب. ولمَّا كانت بحاجة إلى العودة للنوم؛ خلقت لهم طيور النورس على شاكلتها؛ ليتلقَّوا نيابةً عنها عبادة المخلوقات ومُحبَّتهم، وعادت النورس الأم إرادة الوجود إلى كهفها ونامت، في أحد أيام الثلاثاء.

بعدها، صارت طيور النورس ترعى -آمِنَةً- في سماء الكون، وتمر الطيور بجوارها، فتلقي التحية عليها وعلى ربَّة الكون، وكذا كانت تفعل الوحوش والأسماك وحتى النباتات. تُومِئُ النوارس برأسها ردًّا على التحية بتهذيب، ويمضي الجميع في حاله. لم تطلب معاملةً خاصَّةً، ولا قرابين ولا صلوات ولا عبادة مُعقَّدة من أي نوع، كانت تعلم أنها ليست إرادة الوجود الأم، وإنما فقط رمز لها. كانت طيورًا طيِّبةً مُتواضِعَة؛ أحبَّت الجميع وأحبَّها الجميع، إلَّا الدجاج.

والدجاج كان أوَّلَ ما خلَقَت الأُمُّ من كائنات، خلقته بهيًّا قويًّا عظيمًا جبارًا، ذا منقار عظيم وأجنحة هائلة وسيقان قوية، بجِلدٍ صلد كالصخور وريش حاد كالأسنان؛ يجري أسرع من الأحصنة، ويطير أعلى من الصقور، ويسبح أعمق من الحيتان. كان -من دون شك- أعظمَ ما تركت الأم على الأرض من مخلوقات. تساءل الدجاج، غير معنيٍّ بخفض الصوت لِئلَّا تسمعه بقية المخلوقات: "لِمَ علينا أن نعبد النوارس وهي مخلوقات هَشَّة ضعيفة محدودة! نحن -دون شكٍّ- أحقُّ منها بالعبادة". نصحت الصقورُ الدَّجاجَ بالتعقُّل، قائِلَةً إن النوارس

كائنـات طيبـة ترمـز إلى الأم الأولى النائمـة، فقـال الدجـاج: "بـل نحـن خيرُ مَـن يرمـز إلى الأم الأولى النائمـة"، فقـال كبـير الصقـور لينهـي النقـاش الـذي وجـده عبثيًّـا: "انتظـروا إذًا اسـتيقاظ الأم القـادم وارفعـوا إليهـا شـكواكم"، ومـضى في طريقـه.

بـدأت تحيـات الدجـاج للنـوارس تصبـح بـاردةً مُتعالِيَـةً جافَـة، ثـم بعـد فـترة صـارت تتجاهَلُهـا تمامًـا وكأنهـا غـير موجـودة، حتـى رغـم ارتفـاع أصـوات بقيـة الكائنـات بالتحيـات والتوقـير. ومـع الوقـت بـدأ الدجـاج في اسـتفزاز النـوارس علنًـا، والسـخرية منهـا ومـن ضَعفِهـا وقِلَّـة حيلتهـا. لم تـردَّ النـوارس قَـطُّ عـلى سـخرية الدجـاج.

وذات يـوم، اجتمـع الدجـاج كلُّـه في بقعـة مـن العـالم ستسـمَّى بعـد ملايـين السـنين "الإسـكندرية". جـرى الحديـث عـن كيـف صـار الوضـع غـير مُحتمـل، وكيـف يتلقَّـى كائِـنٌ هزيـل ضعيـف لا حـول لـه ولا قـوة- كلَّ التبجيـل والاحـترام، ولا أحـد يأبـه لخـير المخلوقـات وأفضلهـا: الدجـاج. قـال كبيرهـم: "نامـت الأم، ولـن تسـتيقظ مـرة أخـرى، وإن لم نأخـذ العـالم بـين أيدينـا سـيضيع إلى الأبـد". قالـوا لـه: "ومـاذا نحـن فاعلـون؟"، قـال: "عنـدي خُطَّـة".

أمرهـم بالتأمُّـل، وعلَّمهـم كيـف يغـوص الواحـد منهـم في أعمـاق نفسـه حتـى يبلـغ نقطـة النـور الواهنـة الموجـودة في أعـماق كلٍّ منهـم، الـروح، مـا تركتـه إرادة الوجـود في الجميـع مـن أثـر. ثـم أمـر الديـوك بـأن تلقِّـح دجاجاتهـا بينـما يركِّـز الجميـع عـلى إرادة الوجـود الكامنـة؛ ففعـل جميـع الديـوك.

بعدها وضعت الدجاجاتُ ألفَ ألفِ بيضة، ورقدت عليها ستة أيام، وفي اليوم السابع فقس البيض كله، وخرج منه كتاكيت صغار، إلّا بيضتين: خرج من الأولى ذَكَرُ الإنسان، ومن الثانية أنثاه، وهكذا خُلق البشر، وكان ذلك يوم أربعاء.

فرح الدجاج بمخلوقه الجديد أيّما فرحة. ربوه ورعوه ودجّنوه، وعلّموه أن يعبدهم ويزدري النورس. كانت المخلوقات الجديدة هشّةً ضعيفة دون أي قدرة خاصة تحميها، لا جلد سميك ولا فرو ولا ريش يقيها البرد والمطر والرياح، لا مخالب قوية ولا أنياب تدافع بها عن نفسها. علّمها الدجاج الجري والعوم، لكنها لم تستطع مجاراة بقية المخلوقات في أيٍّ منهما، حاول الدجاج تعليمها الطيران، لكنها فشلت في ذلك فشلًا عظيمًا؛ فالطيران كان سرًّا لا تعرفه إلا الأم النائمة، تَهَبُه لمن تشاء وتمنعه عمَّن تشاء. كانت الكائنات الجديدة لا حول لها ولا قوة، لكنها كانت ذكية واسعة الحيلة. وفور أن تعلَّمَت الكلام اخترعت الرقص والغناء. وهكذا مضى الدجاج في الكون يحمل كلٌّ منهم سَلَّةً مليئة بكائنات البشر الراقصة المغنّية مُتعدِّدة الألوان، وعرضوها بزهو وخيلاء على بقية كائنات العالم قائلين: "انظر ماذا خلقنا؟". وكان هذا بعد مرور أجيال عِدَّة على الخلق الأول، ولم تَعُد النورس الأم بالنسبة إلى أهل هذا العالم إلا حكايةً غامضة قديمة دون معنى، وهكذا انبهرت الكائنات بالدجاج الخالق المبدع، وازدهرت عبادته بين الكائنات كلها، إلّا الصقور، في حين أخذت عبادة النورس في الاندثار.

لم تتدخَّل النوارس أو تعترض، لم تَنسَ أنها ليست إلَّا رموزًا لإرادة الأم التي لم تأمرها بالتدخُّل في شؤون العباد. صارت ترعى في سماء العالم في سلام، وحدها، بعدما لم يعد هناك من يعبدها إلَّا الصقور. أما الدجاج، فطغى وتكبَّر، وطلب القرابين والأضاحي، وفرض القوانين التعسُّفيَّة والقواعد غير المنطقية. وبعدما أحكم سيطرته على العالم، أرسل إلى النوارس والصقور رسولًا من البشر يدعوهم إلى عبادته والتسليم بمشيئته. رفضت النوارس والصقور في كبرياء، وأرسلت الرَّدَّ مع الإنسان مُطالِبةً الدجاج بتركها لحالها، إلى أن تستيقظ الأم وتأتي لتفصل بينهم. عندما سمع ملوك الدجاج الرَّدَّ جُنَّ جنونهم، وأعلنوا الحرب على النوارس والصقور.

كان بوسع الدجاج خوض حربهم بنفسهم؛ فلم تنقصهم القوة ولا الكراهية، لكنهم كانوا بحاجة إلى إثبات قدرتهم وحسن خليقتهم أمام بقية الكائنات؛ فعلَّموا البشر الحقد وزرعوا في قلوبهم الغضب. ولمَّا كان الإنسان يفتقد القوة اللازمة للقتال؛ اخترع بنفسه -بوازِعٍ من الكراهية الجديدة المُكتَسَبة- السِّلاحَ وأدوات القتال، في لفتة رآها الدجاج دليلًا على تفوُّق مخلوقهم على المخلوقات الأخرى. وخرج البشر في حملَةٍ مُقدَّسة للقضاء على النوارس والصقور. وأمام الخلق كلهم، ذبح الناسُ النوارس وقدَّموا رؤوسها المقطوعة قرابينَ إلى الدجاج، أمَّا الصقور، فهربت واعتكفت في أعالي الجبال حيث لا تصل أيدي الإنسان. وفي أحد أيام الاثنين مات النورس قبل الأخير، وفي اليوم التالي استيقظت الأم، إرادة الوجود.

بمجرد استيقاظها عرفت أن الأمور ليست كما تركتها في هذا العالم؛ شمَّت رائحة التغيير، رائحة الموت. خرجت من كهفها على هيئة طائر نورس عادي، قادتها الرائحة إلى المكان الذي اجتمع فيه الدجاج قبل أعوام ليخلقوا البشر، وفيه كان تمثال لدجاجة هائلة، ينتصب في قلب تشكيلات صخرية وحجرية مجوَّفة مُرتَّبة في صفوف، لم تخلقها ولا تعرف ماهيَّتها، ستعرف لاحقًا أنهم يسمُّونها "مدينة". عند قاعدة التمثال تناثَرَت رؤوس النوارس الميتة يحوم حولها الذباب. وقبل أن تدرك ما يحدث انهالت عليها أسلحة البشر وضرباتهم وصرخاتهم وكراهيتهم، مزيد من الأشياء التي لم تخلقها ولا تعرفها. تلاشت الأسلحة كلها قبل أن تمسَّ الأمَّ بسوء، فانقضَّ البشر عليها بأيديهم العارية. أرادت أن تلغي وجود تلك الكائنات الغريبة، لكنها فضَّلت أن تفهم أولًا ما يحدث. اتَّخذَت هيئتها الكونية الهائلة، وكبر حجمها حتى صارت أكبر من جبال الأرض مجتمعة.

نظرت في أرجاء العالم، وجدت تلك الكائنات الغريبة القبيحة في كل شقٍّ منه، هدرت بصوت هائل لم يُسمَع له من قبل مثيل: "مَن أنتم؟ وأين نوارسي؟". خاف البشر وخَرُّوا راكعين، وأجابوا جميعًا في اللحظة نفسها بكثير من الكلام والكلام والكلام غير المفهوم والخالي من المعنى والمضمون، وهكذا خُلِقَت الثرثرة. صرخت الأمُّ مرَّةً أخرى آمِرَةً إيَّاهم بأن يخرسوا؛ فصمتوا. عندها جاءت الصقور، وأخبرها كبيرهم -بسرعةٍ واختصار- بكلِّ شيء. ثارت ثائِرَةُ الأمِّ وغضبت غضبًا عظيمًا، أطاحت بطرف جناحها بتمثال الدجاجة، فسحقته. نادت على الدجاج، لم تأتِ

إجابة؛ فقد كان دجاج العالم كله مختبئًا تحت الأرض في أنفاق سرية بنوها تحسُّبًا لهذه اللحظة. لكن أحد البشر أشار إلى واحد من المداخل السرية لهذه الأنفاق، وقال للأم إن الدجاج يختبئ فيها، وهكذا خُلِقَت الوشاية.

تعجَّبَت إرادة الوجود من هذه المخلوقات الخائنة التي تشي بصانعها دون أن يطلب منها أحد ذلك. بإشارة من جناحها الهائل تلاشت أسقف الأنفاق وظهر المختبئون، فطار الدجاج على الفور هاربًا في كل اتجاه، خائفًا من الأم خوفًا عظيمًا لم يسبق له مثيل، لدرجة أن كل مَن سيخاف بعد ذلك اليوم سيُلقَّب بالدجاجة.

قالت الأم: "لأُبيدَنَّ الدَّجاجَ والبشر ومن اتَّبَعهم من الخلق أجمعين"، ورفعت جناحها لتشرع في تنفيذ وعيدها، لكنها سمعت نعيقَ نورس واهِنًا. بحثَت عن مصدره لتجده قادمًا من النورس الأخير: فرخ نورس ضعيف خرج من بيضته قبل قليل، تحمله طفلة بشرية صغيرة، ترفع به يدًا متضرِّعةً إلى النورس الأم إرادة الوجود. قالت الطفلة:

"أيَّتها الأم العظيمة، خالقة الحياة ومانحة الوجود، تحياتي لك وعبادتي وإجلالي. كان منوطًا بي قتل فرخ النورس الأخير؛ لينتهي بقتله وجود النوارس في العالم. لكني لم أفعل؛ لم أقدر، منعتني شفقتي عليه ورحمتي به. أيَّتها الأم العظيمة، ربما خلقتني -وأهلي- الدَّجاجُ، لكنهم لم يخلقوا فينا الشفقة أو الرحمة، بل العنف والشر والكراهية، ما وجدته في نفسي من

شفقة أو رحمة إنما يرجع إلى ما يوجد في داخلي من إرادة الوجود، منك يا أمَّنَا. إنْ كان بقلبي شيء من الرحمة فأنت الرحمة كلها... والرحمة هي ما نرجو منك يا أمَّنَا".

كان لنشيد الطفلة والفرخ بين يديها بالغ الأثر على الأم العظيمة التي رقَّ قلبها، وبَكَت، وذرفت عيناها الهائلتان سيولًا من الدموع، شقَّت الجبال والصخور، وجرت في شتى أنحاء الأرض، وهكذا خُلِقَت الأنهار. ولمَّا انتهت من البكاء، عَفَت عن البشر والمخلوقات كُلِّها، إلَّا الدجاج؛ لعنته، ونزعت عنه بهاءه وقوته وكلَّ ما يُميِّزه، جعلته جنسًا رخوًا واهنًا مُستَضعَفًا، ورفعت عنه نعمة الطيران، فيظل يقفز ويقفز ويقفز إلى الأبد، ولا يطير. ولعنت كل من يقترب منه.

وقبل أن تخلد للنوم في الثلاثاء التالي، سألها البشر أن تمنحهم الطيران، قالت: "إن الطيران لَنِعمَةٌ لا ينالها إلا مَن يستحق، أخطأتُ من قبل بمنحها لجنس مغرور مثل الدجاج، ولن أرتكب الخطأ نفسه مرتين. سأخلد إلى النوم الآن، وسأعود بعد ألف ألف ألف عامٍ، حينها سأمنحه لناس هذه البقعة من الأرض التي شهدت وجود أول البشر، ومع الطيران سأرسل رسولة تُذكِّرهم بما كان وبما سيكون. من اتَّبَعها منكم نجا ليطير معي ومعها إلى الأبد في الأعالي، ومن كذَّبها منكم واتبع الدجاج، فعليه لعنتي إلى أبد الآبدين".

قالوا: "لن ننسى يا أمَّنَا؛ سنكون على العهد باقين".

قالت: "أتمنَّى ذلك"، وخلدت إلى النوم.

ظلَّ الناس على العهد صامدين عدَّةَ أجيال، إلى أن أتى عليهم حِينٌ من الدهر أصابهم فيه قَحطٌ شديد، وندر الطعام حتى كادوا يموتون جوعًا. عندها تجاهل بعضهم تحذير الأم وصادوا الدجاج وأكلوه، وعادوا ليقولوا للبقيَّة أن يفعلوا مثلهم وإلَّا ماتوا جوعًا؛ ففعلوا. ولمَّا ذهب القحط وعاد الرزق لم يتوقَّفوا عن أكل الدجاج، وضربوا بتعاليم الأم عرضَ الحائط. ولم يلبثوا بعدها حينًا إلا وقد أصابتهم لعنة الأم على الدجاج، صاروا كما كان الدجاج قديمًا؛ أخذتهم العِزَّةُ بالنفس وعدُّوا أنفُسَهم أجمل الكائنات وأجدرها بالعبادة وتلقِّي الثناء، بنوا المدن وجعلوا من أنفسهم ملوكًا، واستعبدوا بقية المخلوقات، وبنوا المعابد لأنفسهم ولآلهة متخيَّلة عبدوها، ولمَّا قهروا الأرض كلَّها حاربوا بعضهم على أيِّهم أجدر بالحكم والعبادة والتقدير.

ونسوا الأم".

7

التَّابِعون السَّبعَة

7.1

تلك كانت أوَّلَ مرَّة يَرسم فيها على حائط باستخدام سبراي ألوان.

في الواقع تلك كانت مَرَّتَه الأولى في الكثير من الأشياء: أول مرة يزور الإسكندرية، أول مرة يرسم جرافيتي (الحقيقة أن أول مرة يعرف فيها معنى كلمة جرافيتي كانت قبل أسبوع، حينما طلبت الكاهِنَةُ منه رسم واحدٍ)، أول مرة يقضي وقت الفجر في الشارع وحيدًا لسببٍ غير صلاة الفجر، أول مرة يخرق القانون، أول مرة ينضمُّ لطائفة دينية وَثَنيَّة، أول مرة يُحبُّ.

وضع السبراي أرضًا، تراجع للخلف خطوة مُشعِلًا مصباحًا يدويًا صغيرًا ليُعينَه على رؤية ما رسمه حتى الآن: محاولة فاشلة لمحاكاة اللوحة التي رسمها للكاهنة في السماء برفقة النورس قبل عام، هذا بكل تأكيد أسوأ ما رسمه في حياته. منقار الطائر أعوج وعينه حولاء، وجسد الفتاة في الفستان الأبيض غير متناسق، لا يقترب قَطُّ للجسد الجميل القمحي البَضّ الذي رآه في ڤيديو الانتحار الشهير، الذي يشاهده منذ ذلك الحين كلّ ليلة بينما... (أستغفر الله). ربما إن كانت كاهنته الحبيبة قد أخبرته بطبيعة مَهمَّته قبل فترة كافيةٍ؛ كان لِيستعدَّ بشكل ما، ربما كان ليتدرب بالرسم على حائط غرفته مثلًا. (هل يشم رائحة دخان؟) لكن رسائلها له لم تتضمَّن أيَّ شيء عن طبيعة المهمة التي تنتظره، كانت تكتفي بقول أشياء من نوع: "النورس تدعوك يا أزرق"، "تعال إلى الإسكندرية، لن نجتمع من دونك يا أزرق"، "النورس تُحبُّكَ يا أزرق". أهي النورس مَن تحبه أم كاهِنَتُها؟ بالتأكيد هي مَن تحبه، لا شك أنها وجدت فيه شخصًا طيِّبًا مُحِبًا ذكيًا فنانًا، ابن ناس طيبين، يعمل في الخليج، عريس لُقطة في عين أي بنت. ربما هي لا تعرف أنه ليس إلّا عاملًا في المخزن الخلفي لسوبر ماركت، تحسبه مدير فرع مثلما أخبرها، لكن هذا ما سيكون بمجرَّد أن يخضع لعملية التجميل التي ستُخفي تلك الندبة اللعينة التي تشقُّ وجنته اليسرى بالطول وتقطع الطريق أمام أحلامه. الندبة الناتجة عن جرح من الطفولة لم يهتم أهله البسطاء في أسيوط بمعالجته تجميليًا، فقط ليحكم عليه كل من يراه لاحقًا

بأنه "صايع" و"شقي" و"بتاع مشاكل". تلك الندبة اللعينة، ماذا سيكون رد فعلها عندما تراها على وجهه؟ لن تأبه بلا شك، لا بُدَّ أن حُبَّها له سيفوق الشكليات، وهذه الأشياء لا تعيب الرجال بالطبع، وهو على كل حال سيجري العملية التجميلية عمّا قريب، قبل الزفاف... بالطبع الزفاف، فهو ينوي التقدُّم لها رسميًا في هذه الإجازة، بعدما تنتهي مغامرتها الحمقاء بخصوص النورس وما شابه، ستنتهي هذه بعد بأيام وسيَنفَضُّ الجميع من حولها، ولن يبقى واقفًا بجوارها إلَّا هو، عاصم الشناوي، أزرق، أوَّلُ مَن آمن بها، حبيبها، حِضنُه سيكون ملاذها.

سَعَلَ، رائحة الدخان تتصاعد.

شعر بحركة قريبة، جفل، نظر حوله مرتعبًا، لم يكن مصدرها إلَّا قِطٌّ ضالٌّ يعبث في أكياس قمامة. لكن دقات قلبه استمرت في التصاعد. الكل يعلم عن عبدة النورس الذين اعتُقِلوا لتوزيعهم منشورات سِفر التحليق كما تُسمِّيها الكاهنة (تُرى: ما اسمها الحقيقي؟ ترفض الإفصاح عنه وتقول إنها كاهنة الأم، ولا شيء غير ذلك، سيعرف منها لاحقًا، عندما تبدأ قصة حبهم الحقيقية)، لكنها تنكر أن هَذَيْن كانا منهم، وتؤكِّد أن أتباعها جميعًا مشمولون بحماية الأم ولن يمسسهم سوء. أحيانًا ما يجد في صوتها (المتقطِّع؛ لِبُطءِ شبكات الإنترنت، والمُحمَّل بأزيز الميكروفونات الرخيصة) كمًّا من الإيمان والإقناع لا يملك أمامه إلَّا أن يصدقها؛ فيقتنع لبعض الوقت أن ثَمَّة نورسًا أُمًّا خلَقَت الكون، وعلينا عبادتها ومقاومة وسوسة الدجاج الشيطاني، لكنه

سرعان ما يعود فيطرد عن نفسه هذه الأفكار. الناس إمّا مسلمون أو مسيحيون، هناك رَبٌّ واحد نعرفه جميعًا ونتشاجر على كيفية عبادته، ما عدا ذلك هراء.

كان في غاية الإنهاك، لم يَنَم لحظةً طوال يومين كاملين، قضى أغلبهم واقفًا في طوابير: طابور في مطار الرياض، ثم طابور في مطار القاهرة، ثم الطابور الأسوأ على بوّابة الإسكندرية، حيث قضى أربع ساعات منتظرًا، وساعتين مُحتَجَزًا بعدما ارتاب فيه موظّف تصاريح الدخول، وهي مشكلة لم تُحَلَّ إلّا بعدما أوعز له أحدهم أن "يُمسِّي على الموظف". أخذ الموظف خمسمائة جنيه ليختم له تصريح الدخول قبل أن يأتي حضرة الضابط ويُخضِعَه لاستجواب أمني. دخل الإسكندرية في النهاية آمِنًا، لكنَّ رُكبَتَيْه لم تتوقَّفا عن الارتعاش حتى الآن. حاول الحصول على ساعتين من النوم على الحاشية التي تحكي رائِحَتُها شَذراتٍ من حياة كلِّ مَن تمدَّد عليها ذات يوم في الفندق الرخيص في المنشية، لكن التوتر لم يسمح له بالنعاس. مع كل دقيقة تمرُّ كان يتعالى بداخله صراخ يأمره بالهروب فورًا من هذه المدينة المريبة، حيث يطير الناس كما العفاريت. لكن إن كان ذلك الطَّريقَ الوحيدَ للوصول إلى محبوبته، ليكن.

سعل مرة أخرى، صار الدخان كثيفًا، ولا شَكَّ أن ثَمَّةَ ما يحترق في مكان قريب.

رفع السبراي، أطلق رَشَّةً هنا، ورَشَّةً هناك، ثم أدرك أنه لا يكاد يرى شيئًا من العَتَمَة والدُّخان، وأنَّ لا شيء سيجعل

هذه اللوحة البَشِعَة أفضل إلَّا مَسْحها بالكامل وإعادة رسمها من جديد. ربما يفعل غدًا، بعد الاجتماع الأول لأتباع النورس، حيث سيراها أول مرة.

ارتفع صوت ضجيج، صياح وسباب وركض.

لَمْلَمَ عُلَبَ الألوان نصف الفارغة في حقيبة سوداء، على عَجَلٍ استعدَّ للذهاب. هل سيجد تاكسي في تلك الساعة المتأخِّرة؟ كان من السهل إيجاد واحد عندما غادر الفندق في الثانية عشرة صباحًا، لكن الآن الشوارع شبه مهجورة، ورغم قرب الفندق في المنشية من محطة الرمل، حيث هو الآن في أحد شوارعه الجانبية، إلَّا أنه لا يعرف الطريق ليمشيه.

ثم انطلقت صفارات سيارات الشرطة، أم هي الإسعاف أو المطافئ؟ كلها، جاء الجميع. كل هذا لأجل رسم جرافيتي رديءٍ؟ ترك الحقيبة وركض لاعنًا النورس والحُبَّ والطيران. عندما خرج للشارع أدرك أنهم ليسوا هنا من أجله، بل من أجل فرع دجاج كنتاكي الذي يحترق في الناحية الأخرى من الشارع.

7.2

بدا التَّناقُضُ صارِخًا بين عبارَتَيْ: "Fuck Chicken" و"كسم الفراخ"، المكتوبَتَيْن بالسبراي على باب فرع دجاج كنتاكي المُغلَق في محطَّة الرمل، خاصَّةً وأن الأولى مكتوبة بحروف مُنمَّقة لطيفة الوَقْع على العين، رغم السباب الإنجليزي، في مقابل

الثانية التي ارتفعت فيها أسنان حرف السِّين غير المتساوية فوق الكاف التي سبقتها، لتقول الكثيرَ عن كَمٍّ وجَودَةِ التعليم الذي تلقَّاه كاتِبُها.

هبط مدحت مُلتَمِسًا الأرض. رغم أنه لم يَطِرْ أكثرَ من عشر دقائق حتى الآن، إلَّا أنه كان يلهث كما لو أنه كان يجري طوال ذلك الوقت. كان سمينًا مثل مُبَرمِجِ كمبيوتر، وكان مُبَرمِجَ كمبيوتر. ثماني سنوات من الجلوس أمام الشاشة، أربعَ عشرةَ ساعةً يوميًّا جعلت من جسده ذي السنوات الثلاث وثلاثين بنفس قوة وكفاءة ورشاقَة أُمِّه ذات الخمس والخمسين. كم كَرِه هذه المَهمَّة، وليس فقط بسبب المجهود الجسدي.

"يعني إيه الِّلي انت كاتبه ده يا بشمهندس؟". رفع رأسه لمصدر السؤال، حودة، رفيقه في المَهمَّة حسب خُطَّة الكاهنة. "يعني نفس اللي انت كاتبه"، "طب ما تكتب نفس الِّلي أنا كاتبه، لازم يعني عَوْجِة اللِّسان؟". نبرة صوت حودة الشعبية أثارت فيه القشعريرة. شعر أنه يشاهد فيلمًا عربيًّا من إنتاج "السُّبكي". هذا النوع من الناس مُقزِّز. "هيَّ قالِت نكتب ضِدّ الفراخ، مَحدِّدِتْش لغة ولا كلام مُعيَّن". "والِّلي انت كاتبه ده شتيمة؟ الشتيمة تبقى كده يا بشمهندس... كس...". قاطعه حتى لا يسمع الجملة كامِلَةً "أيوه أيوه فاهم، معلش، مش متعوِّد على الكلام بالطريقة دي، أسهل عَلَيَّا بالإنجليزي".

حاول الرفض عندما طلبت منه الكاهنة عبر دردشة الهوتميل، الاشتراك في فِعْلِ تخريبٍ لفرع مطعم الدجاج الشهير

طلب منها أن تُسنِدَ إليه مَهمّةً أخرى، "إيه رأيك أخترق مواقع مشهورة مثلًا، وأنزّل عليها صور للنورس وسِفر التحليق؟"، "مينفعش يا مدحت. كل المهام حتكون على أرض الواقع، علامات على وجودنا تمهيدًا للخروج القادم"، "طيّب خلّينا نفكّر مع بعض، أكيد فيه مُهِمّة تانية حتكون مناسبة ليّا أكتر"، "الأم هي اللي طلبت المُهمّات وحَدّدِت أصحابها بالاسم، حتقبل يا مدحت والّلا حترفض وتخرج من رحمتها؟". كانَ أَمْيَلَ للخيار الثاني، ولكن عامر أقنعه ألّا يفعل. عامر صديقه وزميله ورفيق سكنه، ومصدر التواصُل البشري الوحيد في حياته تقريبًا. أصرَّ عامر أن يُتابِعَ صديقُه مُغامَرَته مع النوارس للنهاية، ولمّا رفض مدحت ذكّره عامر أنه مَن وقعت عليه القرعة أن يخوض تلك المغامرة، وأن القرعة لو كانت اختارته هذه المرة أيضًا ما كان ليعترض، "فاكر لما اختارِتْني قُرعِة مين فينا ينضم لألتراس الاتحاد السكندري؟ فاكر فِضِلت مُخلِص إزاي، وفضِلْت سِتّ شهور كاملين بروح معاهم الماتشات، وبتخانق وبَتْضِرب كل مرة؟ تفتكر أتباع النورس حيكونوا أخطر من ألتراس الاتحاد؟". تلك كانت حُجّةً لا يمكن الرَّدُّ عليها. "طب مادام انت شجاع قوي كده، روح بدالي؟ قُلّهم أنا مدحت، مش حيقولولك هات البطاقة عشان يتأكّدوا من هويتك"، "معنديش مانع، أروح وتبقى خِسِرت الرهان؟". شيت، لن يخسر الرهان، لن يمنح عامر الوغد تلك الفرصة. "طب أنا حنزل أولّع في كنتاكي نفسه عشان تبقى مبسوط يا عامر". لم يَعْنِ ذلك حرفيًّا، لكنه لم يدرك أن هذا ما سيحدث بالضبط.

قال حـودة: "واقـف عـلى رجلـك ليـه؟ إحنـا في مُهِمَّـة مُتَدَّسة، سِتّ الـكُل قالـت نفضـل طايريـن طـول الوقـت". احتـاج مدحـت لنصـف دقيقـة مـن المعالجـة الذهنيـة لفهـم أن حـودة يقصـد (مُقَدَّسـة). "مَعلِـشّ كنـت باخـد نَفَسي، حطـير أهـو".

تأمَّـل حـودة رفيـقَ المَهمَّـة السـمين يسـتند إلى البـاب المغلـق بينـما يرتفـع تدريجيًـا ويلهـث، لا يفهـم لِـمَ اختارتـه سِـتُّ الـكل رفيقًـا لـه، بوسـعه القيـام بالمهمـة كامِلَـةً وحـدَه، لـن يكـون هـذا "العِجْـل" بطـيء الفهـم لـه إلَّا عائقًـا. لكـن لا بُـدَّ مـن أن لهـا حكمة مـا في قرارهـا؛ فهـي لا تقـول شـيئًا عبثًـا. بـدأ مدحـت يرشُّ السـبراي الأسـود عـلى وجـه العجـوز الأبيـض ذي الشـارب الشـهير عـلى لافتـة الفـرع. تابَعَـه حـودة لثـوانٍ، ثـم اقـترب منـه، دفعـه بيـده جانبًـا، ومـن جيبـه الخلفـي أخـرج مطـواة، طعـن بهـا عـين الكولونيـل سـاندرز. بحـركات سريعـة حاسـمة مَـزَّق اللافتـة بالكامـل.

"إحنا لسَّه حنرُش؟ إحنا نقطَّعوها عَلَطول".

استمتع بنظرة الذعر على وجه الرجل السمين.

قبـل شـهور، عندمـا جـاء الرجـال ذوو الشـوارب ليأخـذوا روَّادَ المقهـى، كان حـودة القهوجـي قـد خـرج قبـل دقائـق لـشراء لـوازم النَّصبَـة مـن شـاي وسـكر وبـن، وحينـما عـاد، رأى الميكروباصـات الثلاثـة تبتعـد، ووجـوه أهـل الشـارعْ كلهـا تُطـلُّ مـن النوافـذ والشرفـات مُتسـائِلَةً. وبينـما كان يحـدِّق في الكـراسي الخاويـة بِعَـدَمِ فَهْـمٍ، حدَّقَـت فيـه العيـون مـن الشرفـات والنوافـذ باتهـام. في البدايـة عَـدَّ نفسَـه محظوظًـا لخروجـه في تلـك اللحظـة بالـذات،

ثم أدرك بسرعة -مِن تحاشي أهل الشارع له في الأيام التالية- أن الجميع صاروا يحسبونه المسؤول عن القبض على الرجال، خليفة السيد جزرة في منصب المرشد الحكومي، وإلَّا: ما هو تفسير خروجه في تلك اللحظة بالذات وعودته فور انتهائها؟ حاولَ دَفْعَ التُّهمَة عن نفسه، لكن هذا لم يُؤدِّ إلَّا إلى تأكيدها أكثر، خاصة مع ماضيه الذي لا ينفكُّ الجميع يُذكِّرونه به "اللِّي خَلَّاك تعملها مع أبوك مش حتعملها مع زباين القهوة؟".

لكنه كان طفلًا وقتها. لماذا لا يراعون ذلك؟ كان طفلًا في العاشرة عندما ماتت أمه ذات يوم بين يَدَيْ أبيه، بائع الفراخ. قال الأب للشرطة إنها تَعثَّرَت ووقعت على رأسها فماتت. كان ضابط الشرطة على وشك إغلاق التحقيق رأفةً بالزوج المكلوم، لولا بكاء الطفل الذي تعلَّق في ساقه وتوسَّل إليه أن يأخذه بعيدًا عن هنا، وعندما سأله عن السبب حكى بين دموعه كيف كان أبوه يضرب أمه كل يوم دون توقُّفٍ، وكيف ضرب رأسها في بلاط الأرض تلك الليلة عِدَّةَ مرَّات حتى ماتت. كان طفلًا لا يفهم العارَ الكامِنَ في فِعْلِ الوشاية. لو كان أكبر قليلًا لَمَا ارتكب جُرمًا شنيعًا كهذا؛ كان ليقتل الأب بيديه العاريتين ويسلِّم نفسه للشرطة، كالرجال. لكنهم لا يفهمون، حكموا عليه بأنه واشٍ قليل الأصل دون مجال للاستئناف، خاصة بعد العثور مصادفةً على العمل السحري المدفون تحت عتبة بيتهم، فيه كانت صورة للأب المنكوب كُتِبَ عليها بالدِّماء تَعاويذَ غيرَ مفهومَةٍ، وكلماتٍ مثل "موت، غضب، دماء" محشورة في مؤخِّرة

دجاجة ميتة. ليتَّضِح أن الرجل لم يكن إلَّا ضَحيَّةَ جارٍ أضْمَرَ له الشَّرَّ، وساحِرٍ ملعون، وابنٍ عاقٍّ واشٍ.

أمام كنتاكي، قال مدحت بصوت مرتَجِف: "تمام، كفاية كده؟ نمشي قبل ما حد يشوفنا؟"، "كفاية إيه؟ إحنا لسَّه بنبتدي". واتَّجَه حودة للكيس الأسود المُلقَى في الركن الذي كان قد جلبه معه، أخرج منه عتلة حديدية. تراجع مدحت في الهواء فاصطدم بمصباح الشارع المطفأ. "حتعمل إيه؟". لم يُجِب، ووضع طرف العتلة تحت عقب الباب المعدني وأخذ يضغط عليها.

كان الجميع يتحاشى المقهى في ورديَّتِه، مثلما تحاشاه رفاقه في صباه، ولم يجرؤ صاحبها على طرده خوفًا من انتقام أو وشاية مُحتَمَلَة؛ فتركه يحصل على يوميته كاملة مقابل عَمَلِه في ورديَّةٍ لا تُدِرُّ جنيهًا. صار يقضي أيَّامَه في مقهًى مُقفِرٍ؛ يُسلِّي أوقات فراغه بِلَعْن "ديك أم دي شغلانة على دول ناس على دي قهوة"، وسرعان ما سيطر على تفكيره السؤالُ مرَّةً أخرى: لماذا اختاره القدر ليخرج في تلك اللحظة بالذات فلم يأخذوه مع مَن أخذوا من الرجال؟ لا يمكن تفسير ما حدث بالحظ السعيد؛ لم يعرف الحظ السعيد يومًا ليبرِّر به أموره الآن. لا بُدَّ من أن هناك أمرًا ما لا يعلمه، سببًا أو معنى لكونه الناجي الوحيد. لا بُدَّ من أن القدر يَدَّخِرُ له أمرًا أكثر أهميةً.

وجاء ذلك الأمر الأكثر أهميةً مع فتى وفتاة من "العيال التوتو بتوع الجامعة"؛ أخذا في التَّردُّد على المقهى، حيث

يجلسـان في الرُّكـن ويتهامسـان في حُـبٍّ حينًـا، وفي خطـورة حينًـا، كأنَّهـما يُخطِّطـان لأمـرٍ جَلَـل. لم يكـن في شـكل الفتـى شيءٌ غـير معتـاد، فالمقهـى يَؤُمُّـه رجـالٌ وشـباب مـن كل الأعـمار والفئـات، أو كانـوا يفعلـون قبـل أن يهجـر الجميـعُ وَرديَّتَـه، لكـن لم تدخلهـا أنثـى قَـطُّ. إنـه مقهًـى شـعبيٌّ في العصافـرة القبليـة، وليـس مثـل مقاهـي وسـط المدينـة أو الكورنيـش، حيـث تجلـس السـيدات بأريحيـة، ويُدَخِّـنَّ السـجائر والشيشـة دون أي احـترام للرجـال الموجوديـن، إضافـةً إلى أن الفتـاة كانـت ذاتَ شَـعرٍ مكشـوف بـلا طَرْحَـة، وملابـس ضيِّقـة لا تجـرؤ فتيـات المنطقـة عـلى ارتدائهـا. لاحظ أيضًـا أنهـا مـن كانـت تدفـع الحسـاب في كل مـرة، وبسـخاء. كانـا يسـكتان عـن تهامُسِـهما مـا إنْ يقـترب منهـما، لكـن محاولاتـه الدائمـة للتنصُّـت عليهـما أثمَـرَت التقـاط أذنيـه لكلمـة "نـورس" أكثرَ مـن مـرة؛ ليعـرف فـورًا أنهـم "مـن بتـوع النـوارس" الذيـن يتحـدَّث عنهـم التليفزيـون طـوال الوقـت، القَتَلـة المغتَصِبـين. لا، لـن يبلـغ عنهـم الشرطـة، لـن يؤكِّـدَ ظنـون الجـيران أنـه مرشـد.

في المـرة التاليـة التـي جـاءا فيهـا إلى المقهـى، كانـت الفتـاة مُنهمِكَـةً في كتابـة شيء مـا بأقـلام ملونـة، ترفـع رأسـها مـن حـين إلى آخـر عـن أوراقهـا وتناقـش رفيقهـا في شيء مـا قبـل أن تعـود إلى الكتابـة. باغَتَهـم حـودة "أنتـم نـوارس، صـح؟"، انزعـج الفتـى وهَـبَّ واقفًـا، "إيـه الـلي انـت بتقولـه ده يـا عـم انـت؟"، رفعـت الفتـاة عينيهـا عـن أوراقهـا، نظـرت في أعماقـه، ولم تنبـس ببنـت شـفة؛ لا بُـدَّ مـن أنهـا رأت قلبـه. "أنـا عايـز أبقـى معاكـم"، "بـس يـا عـم ماتلبِّسـناش مصيبـة الله يكرمـك، إحنـا لا نـوارس ولا بتـاع"،

لكن الفتاة ابتسَمَت؛ فتجاهل الفتى، وسحب كرسيًّا، جلس بجوارها. "احكي لي يا أستاذة"، "يا عم ابعد عَنّنا الله يكرمك؛ إحنا مالناش في الكلام ده"، "اقعد بس يا حسام"، "بالراحة يا أستاذ حسام؛ سيب الأستاذة تتكلِّم"، "أحكي لك إيه؟"، "أي حاجة. إنتم مين وبتعملوا إيه؟ بتقتلوا أطفال وتغتصبوا بنات زي ما بيقولوا؟". ضحكت مائلةً برأسها إلى الوراء. رأى عنقها القمحيَّ الناعم، ودَّ لو لَعَقَه. "لا... للأسف، مابنعملش كده!". تجاوَزَ خَيبَةَ أملٍ صغيرة في أعماقه. لم ينوِ قتل الأطفال، لكن لم يكن عنده مانع من بعض الاغتصاب. "أنا قلت كده برضو، "عايز تعرف إيه تاني؟"، "بتيجوا هنا ليه؟ لا مؤاخذة يعني تنَوَّروا في أي وقت، بس قصدي اشمعنى القهوة دي؟"، "هنا حَصَلِت أول حالة طيران جماعي؛ فيه حاجة مُميَّزة في المكان ده". هنا؟ حاجة مُميَّزة؟ في هذه المقهى البغيض؟ ما الذي يحدث في العالم بالضبط؟ "عايز تعرف إيه تاني؟"، "كل اللي عندك يا ست الكل".

نظرت إلى أوراقها، تبادَلَت نظرةً مع رفيقها، "لأ، متعمليش كده، مش وقته، مش جاهزين". تجاهَلَته، رفعت أوراقها وشرعت في القراءة. "في البدء، وُجِدت إرادة الوجود...".

لم يفهم الكثير ممَّا تقول، ثم مع ذِكْرِ الفراخ الشياطين، فَهِمَ كُلَّ شيء، وغمره النور.

"كس أم ديك أم الفراخ".

قالها بحنق وهو يضغط أكثر على العَتَلَة، انكسر قفل باب كنتاكي في تَكَّة عالية جعلت مدحت يرتعد. "بتعمل إيه يا أستاذ حودة؟ يمكن فيه أجهزة إنذار وكاميرات". أجاب بينما يرفع الباب كاشفًا عن البوابة الزجاجية الداخلية "إحنا تحت حماية الأم النورس، طول ماحنا مؤمنين محدِّش يقدر يلمسنا"، ثم ضرب البوابة بالعتلة فتهشَّم زجاجها من ضربة واحدة، "إلّا لو فينا حد مش مؤمن، حد قلبه مهزوز ساعتها حيقع ويوقَّع المؤمنين معاه". رفع العتلة على كتفه وحَلَّق هابطًا بالقرب من مدحت الذي أنزله الخوفُ أرضًا. "واحنا مفيناش حد قلبه مهزوز، صح يا بشمهندس؟". أومأ مدحت برأسه مؤكِّدًا على قوله دون أن تنزل عينه عن العتلة، متسائلًا في سِرِّه هل سيموت من أول ضربة منها على رأسه أم سيحتاج لضربة أخرى؟

من الكيس الأسود أخرج حودة زجاجَتَيْ مشروبٍ غازيٍّ ممتلئتين بسائِلٍ عَكِرِ اللَّون، وتتدلَّى من عنق كلٍّ منهما قطعة قماش. لم يستغرق مدحت وقتًا لفهم ما سيفعله حودة بهم أكثر من الوقت الذي أخرج فيه حودة من جيبه القَدَّاحة. همس مدحت "oh shit" بعيون جاحظة، بينما صرخ حودة "تحيا النورس" وهو يلقي المولوتوف مُشتَعِلَ الفَتيل على موائد فرع دجاج كنتاكي الخشبية.

7.3

- أنا عايزة أعترفلك بحاجة.

في مائـدةٍ بمنتصـف الـدور العلـوي مـن كافيـه دي لابيـه، الكافيتريـا المواجهـة لكورنيـش البحـر في محطـة الرمـل، جلـس فتـى وفتـاة متقابلَـين. وجـه الفتـاة الممتلـئ نسـبيًّا كان مُنتَفِخًـا وكأنـه عـلى وشـك الانفجـار، مـن فـرط الإحـكام المربـوط بـه الطرحـة مُتعـدِّدة الألـوان والطَّبقـات حولـه، حتـى أمسى مُحيَّاهـا غيرَ قـادر عـلى رسـم التعبـيرات التـي تحـاول أن تُبديهـا إلا بالـكاد. المبالغـة في اسـتخدام المسـتحضرات التجميليـة والامتـلاء الطفيـف في جسـدها الـذي يـبرزه الفسـتان الأسـود ذو الزهـور المطـرَّزة، جعـل عمرهـا يبـدو أكـثر بكثـير مـن أعوامهـا الاثنـين والعشريـن. في حركـة عفويَّـة رفعـت يدهـا اليمنـى أمـام عينيهـا وتأمَّلَـت دبلـة الخطوبـة لنصـف ثانيـة، قبـل أن تلمـح شـبح ابتسـامته فتخفـي كَلتـا يديهـا تحـت المائـدة بسرعـة.

- خير يا سعاد؟ في إيه؟

انحنـى حسـام بنصـف جسـده العلـوي عـلى المائـدة مُبدِيًـا الاهتـمام، تـردَّدَت جملتـه بصـوت عـالٍ كفايـةً ليسـمعه روَّاد الكافيتريـا جميعًـا. كان نحيفًـا ومتوسِّـط الطـول، شـعره قصـير ناعـم مُعتَنـى بـه جيـدًا، لديـه شـامة سـوداء صغـيرة عـلى خـده الأيسر، يتحـرك بتكلُّـفِ مَـن يؤمـن بوَسـامَتِه، ويعـي تأثيرهـا. أفلتـت منـه الابتسـامة رغـمًا عنـه لمَّـا لاحـظ تأمُّلَهـا للدِّبلـة، لا شـك أنهـا سـارحة

في خيـال أنهـا خطيبتـه بالفعـل. في الغالـب أصابهـا الإحبـاط لمَّـا أخبرهـا صبـاح اليـوم بالتغـيُّر الأخـير الـذي طـرأ عـلى السـيناريو الـذي سـيتحتَّم أن يرتـدوا الخواتـم في الأيـدي اليمنـى لا اليـسرى، عليهـم أن يبـدوا مخطوبـين لا متزوجـين. لا شـك أنهـا كانـت سـتحبُّ تَخيُّلَ نفسـها زوجتـه. تَذكَّـر الغيـظ عـلى وجـه شـيري عندمـا ناقشـا السيناريو، وكادت تَنـدُّ منـه ابتسـامَةٌ أخـرى لكنـه كَتَمَهـا وتماسـك. لا يجـب عـلى الممثـل المحـترف الموهـوب أن يسـمح لنفسـه بمثـل هـذه الهفـوات.

- أنا حلمت إمبارح، بـ... بـ...

قالتهـا رضـوى بصـوتٍ مرتفـع، متمنِّيَـةً ألَّا يكـون قـد اسـتاء مـن انخفـاض صوتهـا أول مـرة، وهـزَّت رأسـها ولمسـت جبهتهـا كمـن يحـاول التَّذكُّـر فـلا يسـتطيع. بحثـت عـن قـدرات تمثيليـة كامِنَـة فيها، ربمـا هـي ليسـت ممثِّلَـة موهوبـة مثلـه، نجـم فريـق المسرح في الكليـة، لكنهـا تجيـد ادِّعـاءَ المـرض؛ فتحصـل عـلى يـوم إجـازة مـن الكوافـير، وادِّعـاء المَسْـكَنَة؛ فتحصـل بالـكاد عـلى درجـة النجاح في الكليـة. ربمـا هـي عـادة مـا تكـون بالفعـل مريضـةً ومسـكينة، لكنهـا تعـرف كيـف تُبالِـغُ أحيانًـا.

- حِلِمتي بإيه؟

هـزَّ حسـام قدمـه في حركـة حـاول أن تكـون عفويَّـة، فـتردَّد صوت قرقعـة السلسـلة والأوزان المعدنيـة المُعلَّقـة بـه في المـكان. هَزَّهـا مـرة أخـرى لِلَفْـتِ نظـر مَـن لم يلاحـظ أول مـرة. لم يكـن الوحيد الـذي يرتـدي أوزان الحديـد في قدمـه، عَـدَّ وجـود خمسـة

آخريـن عـلى الأقـل مـن رواد المـكان يرتدونهـا، ولا يـكاد شارع يخلـو مـن وجودهـا في أرجـل الكثيريـن. صـارت تلـك علامـة عـلى الصـلاح والطاعـة ابتدعهـا المواطنـون الشُّرَفـاء، علامـة على أن مرتديهـا يلـزم الأرض التـي خلقنـا الله عليهـا ويتجنَّـب الطـيران المكـروه شرعًـا وقانونًـا.

- مانا خايفة أقولَّك تزعل وتسيبني.

ثـم فكَّـرَت رضـوى "لـو كنـت خطيبـي بجـد، عمـري مـا كنـت أقولَّـك حاجـة تزعَّلـك وتسـيبني". يعجبهـا حسـام كثـيرًا، بوسـامته وثقتـه بنفسـه، وشـهرته كالمُمثِّـل الأكـثر موهبـةً في فريـق مـسرح كليـة الآداب. الشـهرة التـي لم تكـن تعلـم عنهـا شـيئًا إلَّا بعدمـا حكى لهـا عنهـا بنفسـه، رغـم كونهـا طالبـة في نفـس الكليـة ونفـس العـام الـدراسي، لا شَـكَّ أن هـذا يرجـع لعـدم انتظامهـا، وقلَّـة ثقافتهـا، وجَهلِهـا بمـا يحـدث في عـالم الفنَّانـين المُثقَّفـين. كـم هـي سـعيدة ومُمتنَّـة أن الآنسـة شـيري -أو الكاهنـة؛ كـما تحـب أن يُقـال لهـا- اختارتهـا لمشـاركته في هـذه المَهمَّـة. لـولا حُبهـا الشـديد لكاهنتهـا وإيمانهـا بهـا، ربمـا كانـت لتحـاول أن تجعلـه يحبَّهـا. لكنـه بالفعـل حبيـب الكاهنـة، مَـن هـي لتحـاول أن تقـدِّم نفسـها بديلـةً لفتـاة بهـذا الجـمال والقُدسـيَّة مثلهـا؟ بالإضافـة إلى أنـه عـلى الأرجـح لم يكـن ليلتفـت إلى فتـاةٍ قليلـة الجـمال والبَخْـت مثلهـا، حتـى وإن كان وحيـدًا.

أنا؟ أَسيبِك؟ ده مش ممكن أبدًا يا سعاد.

على الفور شعر حسام بابتذال الجملة التي قال، بابتذال السيناريو كله في الحقيقة. الذنب بلا شك ذنب شيري التي رفضت مشارَكَته في كتابة السيناريو معه. "إنت حتموت وتعمل دور جوز رضوى"؛ الحمقاء تَغير من رضوى، تغير من عاملة الكوافير التي تصفِّف لها شعرها، الفتاة الفقيرة البسيطة التي تفتقر للجمال، أو بمعنى أدق تفتقر للمال الذي يمكنها من الوصول إلى الجمال؛ فقط لأن لون بشرتها أفتح. "أنا عايز أعمل جوز رضوى؟ إنتي اتخبلتي في عقلك؟"، "أنا متخبلتش، أنا كاهنة النورس الأم يا حسام، بيجيني الوحي منها مباشرة"، "العفو يا سِتِّي، بهزَّر معاكي. خلِّي السيناريو إنها خطيبتي مش مراتي، إحنا عمومًا شباب صغيرين وشكلنا مش لايق متجوِّزين. ولو مش عايزاني أعمل المهمة مع رضوى تعالي اعمليه انتي معايا"، "لأ طبعًا، أنا الكاهنة، أنا اللي أحط المُهمَّات بوحي من الأم، وتابعيني ينفِّذوا"، "طب خلاص يبقى مفيش غيرها، والَّلا عايزاني أعمله مع مدام شاهندة مثلًا؟"، "وليه انت اللي تعمله؟ يعمله مدحت مثلًا أو حودة"، "مدحت التِّخين والَّلا حودة القهوجي أبو لسان زِفِر؟ عايزة الأشكالِ العِرَّة دي تمثِّلنا في مهمة مقدَّسة وفي موهبة تمثيلية رائعة زيِّي موجودة؟ تفتكري النورس الأم حترضى عن ده؟ وبعدين مش دي رضوى الَّلي انتي عَزَمتي أمها على حفلة باباكي وأنا لأ؟"، "أنا مش عازمة حد، دي مُهمَّة مُقدَّسة زي أي مهمة تانية عشان الأم"، "عشان ترضي النورس الأم والَّلا عشان تكدَّري مدام نجوى

الأم؟"، "كده؟ ماشي، اكتِبْ انت بقى، ورِّيني شطارتك". ربما هو يؤمن بموهبته غير المُكتَشَفة بعدُ كمُمثِّل ليس له نظير، لكنه يعلم جيِّدًا أنه ليس كاتبًا جيِّدًا أبدًا. لكن لا بأس، الممثل الشاطر يبرز حتى لو كان النص ركيكًا.

- حتَّى لو قلتلك إني حلمت بالنورس الأم؟

برغم أنها جملة مكتوبة مسبقًا قَرَأَتها لأول مرة بالأمس فقط، إلا أن رضوى حَلُمَت بالفعل عدَّةَ مرَّاتٍ بالنورس. لكنه لم يكن نورسًا أُمًّا. بشكل ما، وبرغم تأكيد الكاهنة في كلامها على أنها نورس أم، إلَّا أنه في أحلام رضوى ومُخيِّلَتها ذكَر، نورس أب. هل لأن كلمة "نورس" مُذكَّرة في اللغة تشعر بهذا الإيحاء؟ ربما. أيًّا كان السبب، تراه رضوى في أحلامها طائرًا كبيرًا ذكوريَّ الملامح بشكل ما، يحتضنها ويُرَبِّتُ عليها، ويخبرها بصوت خشِنٍ حَنون أنَّ كُلَّ شيء سيكون على ما يُرام.

- متقوليش كلام الكُفَّار ده!

بَدَرَت منه نظرة سريعة فَحَصَ بها تأثير مُحادَثَتِهم على المحيطين، حاول جعلها جزءًا من إيماءةٍ تبدو عفويَّة. لا يبدو أن كثيرًا من الرُّوَّاد منتبهين لهم، وإنْ رُبَّما هناك وجهٌ أو اثنان يتابعونهم فيما يُشبِهُ الفُضولَ. كيف فاتَه أن يُرتِّب تصوير مشهدهم بالفيديو؟ الحقيقة أنه يؤمن بالفعل أن هذا كلام كُفَّار، أو بمعنى أدق: كلام مجانين. أحيانًا يشعر بأن شيري ترتجل كلَّ ما تَدَّعي أنه وحيٌ من رَبَّتِها الطائرة. يَوَدُّ لو يسألها إن كانت تؤمن بالفعل بما تقول أم هي أشطر نصَّابة في العالم؟

لم يسألها قَطُّ بالطبع، وإلّا كانت ستدرك فورًا أنه غير مؤمن بها وتتركه، كان ليخسرها. هو المستفيد الأكبر من تلك العلاقة حتى الآن. كان قد اكتشف مدوَّنَة كاهنة النورس بعد شهور قليلة من معجزة الطيران، تَواصَلَ مع صاحبتها وأظهر تردُّدًا في الإيمان، مُغرِيًا الكاهِنَةَ بمحاولة إقناعه. حسبها في الحقيقة سيِّدة أربعينية يائِسَة، ربما مُطلَّقة أو أرملة أو مُتزوِّجة يائسة من زوجها، وأكمل خياله رسمَ المشهد الوهمي بأنها ستقع في حُبِّه وستمنحه من الفواكه المُحرَّمة التي يسيل لها لُعابُ أيِّ شاب يائس من الذين لا ينفكُّون يؤكِّدون نظريات فرويد. فقط ليكتشف أنها شابَّة جميلة وغَنيَّة تَكبُره بعامين فقط، وابنة أسرة فاحشة الثراء والنفوذ. أصابه الإحباط في البداية، ثم بالتدريج شعر أن الحظَّ يهديه ما يستحق أخيرًا.

- لا يا أحمد مش كُفّار، النورس الأم جاتني في المنام، ونادتني بالإسم، قالتلي تعالي يا سعاد طيري معايا، وهاتي معاكي أحمد.

تذكَّر رضوى جيِّدًا يومَ قابَلَت الآنسة شيري لأول مرة. طلَبَت منها يومها صاحبةُ البيوتي سنتر الشهير في سموحة، أن تخلعَ طرحتها وتترك قسم المُحجَّبات اليوم لتعوِّضَ غيابَ إحدى زميلاتها. حَظُّها السعيد -وربما تلك كانت المرة الوحيدة في حياتها التي تستطيع وصف حَظِّها فيها بذلك- قادها للعمل مع الآنسة شيري، التي أبدت تَأفُّفَها من غياب زميلتها التي اعتادت عليها، وحذَّرَتها من أن تُفسِدَ شَعرَها. لم تَحتَجْ رضوى إلى التحذير، بل كانت في غاية الامتنان للفرصة التي قادتها للعمل

مـع واحـدة مـن أهـم زبائـن البيـوتي سـنتر، ابنـة عضـو مجلس الشـعب الشـهير. ربمـا إن اسـتطاعت نَيْـلَ حظوَتِهـا قـد تؤمِّـن لها عمـلًا أفضـل عنـد والدهـا؟ علَّقَـت أكـثر مـن مـرة عـلى جمال شعر الآنسـة شـيري ونعومـة بشرتهـا، لكـنَّ تعليقاتهـا اصطدمـت بحائطٍ صلـب لا يسـتجيب. في التليفزيـون كانـت ثـلاث مذيعـات متدرِّجات الـوزن ودرجـة لـون الشـعر في "تـوك شـو" نسـائي يتحَدَّثـن مع خبيرٍ أمنـيٍّ عـن "الجماعـة بتـوع النـورس"، والخطـر الـذي يُشـكِّلونه عـلى "نسـيج الوحـدة الوطنيـة". عندمـا لاحظـت تَقـزُّزَ الآنسة الخَفـيَّ مـن البرنامـج، عَلَّقَـت: "نـاس مؤذيـن أوي النـوارس دول يا مدموازيـل شـيري".

- مـش ممكـن، مـش معقـول، إنتـي أكيـد كنتـي واكلـة حاجـة تقيلـة، قُلتِلِـك ميـة مـرة مـا...

عـرف حسـام أن الكاهنـة كانـت تشـعر بالإهانـة في البدايـة مـن تـردُّدِه، حَكَـت لـه في كبريـاء عـن تابِعِهـا أَزرق، أول مَـن آمـن بهـا، والـذي يُصـدِّق كل مـا تقـول دون مناقشـة رغـم أنـه لا يطير أصـلًا. اسـتمتع بغيظهـا عندمـا قـال لهـا إن النـاس تختلـف وهـو ليـس بـأزرق، بـل في الحقيقـة يميـل للاحمـرار. ثـم بـدأ يظهـر بعض الإيمـان تدريجيًّـا، وصاحَـبَ إيمانَـه الظاهـريَّ بكلـمات ونظـرات مُجرَّبـة مـن قبـل. عـرف أنهـا، مثـل كل المرتبـكات المهـزوزات، تحتـاج لمَـن يسـتمع لهـا مُطـوَّلًا باهتـمامٍ ظاهـريٍّ، مـع كلـمات عن كَـم هـي جميلـة وذكيـة، وذات بـشرة فاتحـة في حالتهـا، والباقي كان سـهلًا. يعـرف متـى يكـون رقيقًـا حنونًـا، ومتـى يصـير صارِمًـا،

ومتى يصبح وَغدًا غير موجودًا؛ فهو -بطبيعة الحال- مُمثِّل شاطر... المُمثِّل الأشطر.

- لا يا أحمد، مَكُنْتِش واكلة، دي رؤية حقيقيَّة، أنا متأكِّدة، الأم جاتني، كانت كبيرة وعظيمة ومنوَّرَة، زي ما كانت يوم ما خَلَقِت الكون، وقالتلي العالم حيرجع زي ما كان بالظبط لمَّا خلقته أول مرة، ومش حيفضل فيه حد غير أتباعها، غير المؤمنين بيها.

بعد صمتٍ وتَأفُّفٍ لِما يزيد عن الساعة، انطلق من الآنسة شيري سيلٌ من الجُمَلِ الدفاعية الغاضبة، لم تفهم رضوى منها سوى أنها أخطأت حتمًا بالإساءة للنوارس أمام الآنسة. في منتصف حديث الآنسة صمتت فجأة، وحدَّقَت في الأرض بنظرةٍ من ندم على كل حرفٍ قالته. بحذر قالت رضوى: "أنا معرفش والله يا مدموازيل، أنا بسمع بس من التليفزيون، معرفش منهم حد"، ثم تابعَت بخُبثٍ: "هو حضرتك تعرفي منهم حد؟". هزَّت شيري رأسها نافِيَةً، ثم بعد دقائق من الصمت المرتبك قالت إن لها صديقة من بعيد على علاقة بهم، وأنها لم تسمع عنهم سوى كل خير. لم تُعْنَ رضوى حينها بالنوارس أو غيرهم، لكن عندما شعرت بالاهتمام في كلمات الآنسة؛ قرَّرت أن تهتمَّ. "طب أنا عايزة أعرف أكتر". "لأ، أنا مليش دعوة"، "والنبي يا مدموازيل، حعرف منين طيب غير من دول؟"، وأشارت بإصبع متَّسِخ بصبغة الشَّعر الفاخرة إلى المذيعة التي تحكي عن حفلات العَربَدَة وشرب دماء الأطفال في بيوت النوارس. بتردُّدٍ سألتها المدموازيل "عندك إيميل؟".

- لا يا سعاد... أنا مش ممكن أصدَّق الكلام ده.

قالها حسام بعدما نهض ببُطء، وأَوْلَاها ظهرَه ومشى خطوتين مُحدِّقًا في عدسة كاميرا وهمية، كاد أن يتعثَّر في سلسلة أثقالِه، ولكنَّه تمالَك نفسه. كانت جميلةً، ولم تكن مُملَّةً حمقاءَ طوال الوقت، حكاياتها عن النورس والوحي الإلهي -وما إلى ذلك- مُسلِّيَة فعلًا، سواء كانت هذه الفتاة نصَّابة أو موهومة، فهي موهوبة بالتأكيد. ربما لو استثمرَت موهبتها في كتابة سيناريوهات يلعب بطولتها وتنتجها له؛ ستكون قد أَسْدَت لنفسها، وله، وللبشريَّة معروفًا. وكانت جميلة الطَّعم أيضًا، لكن فقط عندما تسمح له بالتذوُّق، وقليلًا ما فعلَت (في هذه الأحيان القليلة، كانت تناديه بين آهاتها باسم طارق. تَعمَّد تجاهُلَ ذلك؛ لأنه نقاشٌ إذا انفتح قد يؤدِّي بالعلاقة إلى منعطف آخر لا يُحبُّه. ليكن طارق أو ليكن عشماوي طالما ينال ما يريد). على أي حال هذه العلاقة في طريقها إلى الانتهاء مع نهاية حدوتة النوارس بكاملها، الوشيكة؛ فالعالم سينتهي مساء الغد مثلما تؤمن -أو تدَّعي أنها تفعل- شيري، وهي تُخطِّط لخروجٍ عَلَنيٍّ لها ولأتباعها. يعلم جيدًا أن العالم لن ينتهي، لكن النوارس هم مَن سينتهون. ولديه خُطَّة للاستفادة من ذلك.

- لا يا أحمد، لازم تصدَّق، لازم تصدَّق لو عايز نفضل مع بعض، أنا رايحة للأم، والحقيقة إن أنا اللّي حسيبك لو مَجيتش.

قالتها رضوى -بعدما اقترَبَت منه بينما لا يزال يُولِيها ظهرَه- في أذنه، ووضَعَت يدها على ظهره رغم "دون تلامس" المكتوبة بوضوح في السيناريو، لم يُظهر أيَّ اعتراض. تَردَّدَت في الردِّ على سؤال الإيميل؛ من المعروف أن الفتيات المهذَّبات ليس لَهُنَّ عناوين بريد إليكتروني أو "إيميلات"؛ فتلك لا تُستَخدَم إلَّا في العبث غير البريء. لكن هذا لم يمنعها من التسلل إلى مقاهي الإنترنت مع صديقاتها بين حينٍ وحين، واستخدام الإيميل وشات الياهو في بعضٍ من هذا العبث. أَمْلَت الآنِسَةَ عنوانَ بريدها مُتردِّدة، وظلَّت كلتاهما صامِتتَيْن، مُتوتِّرتَين حتى نهاية الجلسة. لاحقًا، ستصلها بصفة منتظمة رسائِلُ تحكي لها عن النورس الأم وقصة الخلق وأهمية الطيران وشرور الدجاج. لم تكن ترد في البداية، ثم صارت ترد على استحياء، تشكر الكاهِنَة صاحبة الرسائل وتطلب معرفة المزيد. لم يَطُلْ الوقت قبل أن تتحوَّل الرسائل إلى مكالمات تليفونية تعرَّفَت فيها على صوت المدموازيل شيري، وقد صار لصوتها نبرةٌ وَدودٌ غير تلك لعميلة البيوتي سينتر، صارت تسألها عن أحوالها وعن أُمِّها وعملها وتعليمها، صارت تهديها من ملابسها القديمة وتُعِينُها ماديًا، صارت تطلبها بالاسم في البيوتي سينتر، وتنخرط معها في محادثات طويلة هامسة أمام الأعين الحسود التي تتمنَّى كلٌّ منها ولو نظرةَ اهتمامٍ وحيدة من المدموازيل. لم يَمْضِ وقتٌ

طويل قبل أن تعبد رضوى، لا النورس الأم، بل الآنسة شيري نفسها.

- متسيبينيش يا سعاد!

خُطَّته كالتالي: سيخرج مع النوارس، سيبدو رائعًا مُبهرًا متألِّقًا، رشيقًا وسيمًا ذكيًّا. ستكون هناك كاميرات عديدة بلا شك، سيتأكَّد من أن يترك أفضل الانطباعات أمام كلٍّ منها. في النهاية، عندما لن ينتهي العالَم وتتدخَّل الشرطة، سيعتذر، سيبكي ويندم، سيتحدَّث عن كيف غسلت النوارسُ عَقلَه، كيف أرغموه على الانضمام إليهم، وكيف كان يُكافِحُ شرورهم من الداخل، وكيف أنقذ العديدين من براثنهم. في النهاية لن يكون جُرمُه الفعليُّ سوى كَسرِ ارتفاع الطيران المسموح، جُرمٌ بسيط، لا تتعدَّى عقوبته الغرامة. وعندما يخرج حرًّا سيكون قد حقَّق الشهرة التي يحتاجها، وستكون فيديوهات تمثيله المسرحية القديمة قد انتشرت بين الناس، سيعرف الجميعُ كم هو موهوبٌ ذكيٌّ رائع، سَتَذوي حكاية النوارس سريعًا في ظِلِّ ما سيأتي من شهرة ونجاح. في مثل هذا اليوم من العالم المقبل، سيكون في الغالب قد أوشك على الانتهاء من تصوير فيلمه الأول ووقَّع عقد الثاني. أي دور عليه أن يبدأ به مسيرته الاحترافية؟ عليه أن يختار بحكمة؛ فالانطباعات الأولى تدوم.

تبتعد رضوى بخطوات درامية، ثم تطير على ارتفاع منخفض في طريقها للخروج.

- سعاد!
- نعم يا أحمد؟

ينحني حسام، يَفُكُّ السلاسل والأوزان ويتركها تقع على الأرض بدويٍّ عالٍ، يرتفع في الهواء.

- خديني معاكي.

من مائدة مجاورة يأتي صوت أحدهم "يَلَّا يا نوارس يا أنجاس يا ولاد الكلب"، يعلو صوت آخر "دول اللِّي حرقوا كِنتاكي امبارح!"، "إمسكوهم"، "كلِّموا البوليس".

يطير حسام ورضوى بسرعة من فوق حاجز السُّلَّم، ثم إلى بوابة الكافيتريا، يهربان قبل أن تَطالَهم الأيدي الممتدَّة تجاههم.

7.4

في نقطة بعينها، تتوسَّطُ المَمرَّ بين الباحة الخلفية للفيلا والحديقة الأمامية، بوسع مَن يُنصِتُ جيدًا في اتجاه الحديقة تمييز صوت will.i.am الخارج من النظام الصوتي العملاق، يسأل فتاته "whatch gonna do with all that junk inside your trunk?". وإن أمال السَّامِعُ رأسَه في الناحية المقابلة، وحاول تَجاهُلَ صوت الموسيقى الغربية؛ سيبدأ بالتدريج في التقاط صوت جوقةِ الرجال المتحمِّسين يُردِّدون "قلبي يحن إلى مدينة طه". لكن لن يتمكَّن هذا السامع قطُّ من رؤية مصدر

أيٍّ من الصوتين؛ فبالإضافة إلى أن ما يربط الباحة بالحديقة هو ممرٌّ ضيِّقٌ بجوار مبنى الڤيلا الرئيسي تحفُّه النباتات الكثيفة، فهو ينتهي بسياج عالٍ -زادوه ارتفاعًا بعد الطيران- ذي باب سميك موصَدٍ بإحكام. بناءً على اتفاق مدام نجوى وزوجها؛ يبقى ذلك الباب مُوصَدًا على الدَّوام، فاصلًا بين "عالمه" من الشيوخ والمريدين الذين يدخلون الڤيلا من بابها الخلفي، و"عالمنا" الراقي الأنيق الذي لا يحتمل تشويهه بظهور أيٍّ من أولئك غريبي الشكل والرائحة والنظرات.

في تلك النقطة بالضبط، كانت أم رضوى ومدام شاهندة منحنيتين تبحثان في الأرض عن شيء ما، وتتبادلان نظراتٍ مرتبكةً متوتِّرة. غير أن ذلك التوتر لم يكبَح فضولَ أم رضوى التي لم تنفك تتفحَّص مدام شاهندة من رأسها حتى أخمص قدَمَيْها؛ مما زاد من ارتباك السيدة ذهبيَّة الشَّعر ذات الفستان البنفسجي الذي يكشف ذراعيها ويغطِّي رُكبتَيْها بالكاد. عدلت أم رضوى من وضع طرحتها المطرَّزة وعباءتها السوداء البرَّاقة، وفكَّرت أن قِلَّة الاحتشام في فستان سيِّدةٍ لا يَقلُّ عمرها عن الخمسين عامًا مثل شاهندة، يرجع بالتأكيد لكونها مسيحية، "هم العالم المَسايحة دول كده"، ولم تفكر للحظة في أن أغلب السيدات غير المحتشمات -بناءً على مقياسها- في حفلة الحديقة مُسلِماتٌ مثلها بالضبط. تردَّد صوت رضوى في ذهنها يؤنِّبها "عيب يا ماما، وبعدين انتي شوفتي والَّلا عرفتي مسيحيين أصلًا قبل كده؟". هَمهَمَت مُغتاظَةً "بس يا بِت يا مُتخلِّفة انتي!".

"بتقولي حاجة يا حبيبتي؟". انتبهت مع تعليق شاهندة، "هه؟ لا متاخديش في بالك، عسل الفستان ده يا أختي"، "ميرسي يا حبيبتي، أنا لابساه بس عشان الحفلة، زي ما قالتلنا الـ... الكاهنة". كانت قد طلبت من كلتيهما ارتداءَ ملابس سواريه لِيُسمَحَ لَهُنَّ بالدخول؛ فالدعوات التي وُفِّرَت لَهُنَّ لا تكفي دون الملابس المناسبة. فستان مدام شاهندة كان مُلائِمًا، لكن عباءة أم رضوى وطرحتها قوبِلَا بشكٍّ من حُرَّاس البوابة، ولم يشفع التطريز البرَّاق في اعتبارهم سواريه. قبل أن تشرع أم رضوى في الشِّجار معهم، وهو نشاط يُشعِرها بالأُلفَة عندما تكون في مكان غريب، تدخَّلَت مدام شاهندة مُؤكِّدَةً على أن أم رضوى صديقة طفولة لمدام نجوى، وإن لم يسمحوا لها بالدخول ستكون العواقب وَخيمةً. ولأن المتحدِّثة كانت أقرب شكلًا ولهجة لأرباب عملهم؛ سمحوا لأم رضوى المتحفِّزة بالدخول.

بِصَمتٍ، وخِفَّةٍ نابعة من قلق الافتضاح، مَضَتا بين الضيوف متتبِّعَتَيْن الإرشادات التي أَمْلَتها عليهما شيري بحثًا عن البرزخ بين العالَمَيْن. أول ما تبادلتا من كلمات كان لمَّا شَدَّت أم رضوى على معصم مدام شاهندة بينما تشير بطرف خفيٍّ إلى أكثر السيدات تألُّقًا، تلك التي تقف في محور انتباه الضيوف. "مش هيَّ دي الوِليَّة نجوى؟". نظَرَت شاهندة إلى حيث أشارت، وأكَّدَت بإيماءَةٍ تَخمينَ أم رضوى. وعندما لمحتهما السَّيِّدة وظهر على وجهها التساؤل من ملابس أم رضوى التي لا تناسب حمَّام السباحة على شكل حرف S كثيرًا، سحبت شاهندة رفيقتها من يدها واختفتا من مجال رؤية سيدة المجتمع سريعًا، لِتهزَّ

الأخيرة كتفيها البيضاوين الناصعتَيْن، وتعود لتبادل الضحكات المتكلِّفة مع الضيوف.

كانت تلك أول مرة تلتقيان، أول مرة تَعلمان بوجود بعضهن في الأساس؛ فالكاهنة، التي يظل تواصلها حتى الآن مع أتباعها، باستثناء رضوى وحسام، إلكترونيًّا فقط- كانت تُبقي أتباعها بمعزل عن بعضهم؛ فيَحسَب الواحد منهم نفسه تابِعَها الأوحد الأهم حينًا، وواحدًا من عشرات الآلاف حينًا آخر.

"لقيتها"، التقطت أم رضوى كيسًا بلون العشب كان مَخفيًّا خلف حجر. فتَحَته، أخرجَت منه قيمصَيْ طبَّاخ أبيضَيْ اللون، وقُبَّعتَيْن عاليتين من نفس النوع، وتنُّورَتَيْن سوداوَيْن، ومفتاحًا لم يصعب تخمين بابه. وَضَعَتا ملابس الطَّبَّاخ فوق ملابسهن، وحَمَلَت أم رضوى المفتاحَ الثقيل الصدئ في يدها ونظرت إلى الباب. "الساعة بقت كام؟"، نظرت مدام شاهندة في ساعتها الذهبية الأنيقة، "تمانية إلَّا ربع، فاضل ربع ساعة". "طب ما ندخل دلوقتي ونخلص". "قالت إن باباها حيكون لسَّه موجود، الساعة 8 حيكون راح الحفلة الكبيرة عشان يفتتح البرنامج أو حاجة كده". لكن انتباه أم رضوى كان قد تَشتَّتَ قبل آخر الجملة، "حلوة الساعة دي يا حبيبتي"، "ميرسي يا جميل"، "جوزك الِّلي جايبهالك؟". بقدر ما كان السؤالُ مُحرِجًا، إلَّا أن مدام شاهندة، التي اعتادت الأسئلة المشابهة وصارت تُراهِنُ نفسها على لحظات مَجيئِها، صدرت منها ابتسامة فورية عفوية إجابةً عليه "لا يا روحي... جوزي مجابهاليش، معنديش جوز، أنا عانس". فهي قد اكتفت من الردود الدبلوماسية من

نوع "محصلش نصيب"، وجَدَت في العقد الأخير من حياتها أن الرد الصادم يوفِّر وقتًا ومجهودًا، لكنها لم تعْتَدْ ولم تَتوقَّع ردَّ فعل أم رضوى على تصريحها.

"يا ألف بركة! فَلَتِّي والله يا حبيبتي وربنا نجَّاكي. والنبي ما أعرف متجوِّزة مبسوطة. عارفة؟ أنا اتجوِّزت سنة واحدة بس، شُفت فيها مرار الدنيا والآخرة، قلتلهم يا تَطلَّقوني منه يا أموِّت لكم نفسي. منابنيش من الجواز إلَّا البَلْوَة الِّلي اسمها رضوى". لم تفهم شاهندة إن كان تسميتها ابنتها بـ "البلوة" أمر طيب أم سيئ، ولم تفهم أيضًا الضحكة الغريبة التي بدرت من أم رضوى بعد تصريحها؛ لأنها لم تعلم أن الأم سمعت في خيالها ابنتها تردُّ عليها "يا شيخة اتنيِّلي، إنتي تعرفي تعيشي من غيري؟".

"ربنا يحفظهالك"، ثم استدركت بعدما شعرت أنها أخطأت، "قصدي النورس الأم تحفظهالك". وطوَّح الفيل في الغرفة -أو في الجنينة- بخرطومه يمينًا ويسارًا مُهشِّمًا قوارير التغافل الهشَّة. "قوليلي يا حبيبتي، لا مؤاخذة يعني لو مفيهاش تَطفُّل، إنتي إيه إللي لَمِّك ع العيال دي؟"، "عيال؟"، "قصدي يعني النوارس وكده".

أمَّا هذا السؤال فلم تعتَدْه، الحق أنها كانت المرَّة الأولى التي تتحدَّث فيها بصوت عالٍ عن الإيمان بالنورس مع آخرين، هل هي مؤمنة بالنورس؟ لا يمكنها أن تقولَها بِحَسمٍ. هي مسيحية، مؤمنة بالمسيحية الآن مثلما كانت دومًا، مثلما يليق

بابنـةٍ لأسرة قبطيـة متديِّنـة راقيـة. قَضَت أغلـب أوقـات حياتها بـين الكنيسـة والوظيفـة المكتبيـة وجلسـات النـادي. لكـن جلسات النـادي تحوَّلَـت بالتدريـج إلى جحيـم، الـكل يتحـدَّث عـن الـزواج (أو عدمـه) والأبنـاء، ومؤخـرًا زواج الأبنـاء. لأنهـا لا تملـك أيًّا مـن ذلـك شـعرت أنهـا دخيلـة بشـكل مـا، والـكل يحـرص عـلى تذكيرها بذلـك بطريقـة أو بأخـرى. انقطعـت عـن النـادي واسـتبدلت بـه الإنترنـت، ذاك الـذي غـزا بيـوت مـصر مؤخَّـرًا كسرطـان. وظيفتها المكتبيـة وسـاعات الفـراغ جعلاهـا ماهِـرَةً في التعامـل مـع الجهاز العجيـب وشـبكته السـحرية. فتـح الإنترنـت عينيهـا؛ علَّمهـا عـن المُنظَّـمات الخفيَّـة التـي تحكـم العـالم، وجماعـات عبـادة الشـيطان، وألعـاب الأطفـال البلاسـتيكية التـي تُخفـي في طيَّاتهـا رسـومًا جنسـيةً مسـيئةً، والمشروبـات الغازيـة التـي يُضـاف إليهـا مـواد هدفهـا إصابـة المصريـين بالعُقـم، وخطـة اليهـود للتحكُّـم في عقـول النـاس عـبر شـبكات المحمـول التـي تُسـبِّب السرطـان أيضًـا، وحـدِّث ولا حـرج عـن مؤامـرات مُسـلِمي مـصر ضـد مسـيحيِّيها بالطبـع. لم تَعُـدْ تشـعر بالأمـان، ثمَّـة عـدوٌّ في كل ركـن. ثـم جـاء الطـيران.

بـكل تأكيـدٍ كان الطـيران أجمـل مـا حـدث في حياتهـا. لـولا التهابـات المفاصـل والرئـة التـي أنهكهـا التدخـين، ربمـا مـا كانـت لتلمـس الأرض ثانيـةً أبـدًا. لَيْتَـه جـاء قبـل ثلاثـين عامًـا؛ كانـت سـتعيش كفراشـة. أخـذ الطـيران مـن سـاعات الإنترنـت والعمـل، وحتـى مـن سـاعات النـوم، لكنـه لم يؤثِّـر في حصَّـة الكنيسـة مـن حياتهـا. لم تنقطـع عـن المواظبـة عليهـا إلَّا في الشـهور الأخيرة، بعدما صـار الطـيرانُ موضـوعَ مواعِـظِ الأحـد كلهـا: قالـوا إنـه حـرام ومـن

عمل الشيطان، ومَن لا يمتنع عنه يخرج من الملكوت إلى الأبد. لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، من غير الممكن أن يكون الطيرانُ إلّا نعمَّة من المسيح ذاته، أمَّا ما يُقال عنه في المواعظ ليس إلا نتيجةَ خطأ ما أو سوء فهم، أو نتيجة المؤامرات التي تحكم العالم؟

توقَّفَت عن الذهاب إلى الكنيسة، وقَلَّلت من طيرانها إيثارًا للسلامة، وعادت إلى الإنترنت. كانت مسألة وقت قبل أن يلفت انتباهها سِبابُ الإعلام الرسمي للنوارس، وخبرات السنوات الأخيرة تُعلِّمُهَا بوضوح أن ما ترفضه الأنظمة هو في الغالب الحقيقة كاملةً. وَصَلَت إلى المُدوَّنة مُتأخِّرة، بعدما تعرَّضَت للاختراق، وحَلَّ مَحلَّ تدويناتها صور صدور دجاج مشوية مع تعليق "مالقيتش نوارس جِبْت لكم فراخ...ههههههههههههه". تركت تعليقًا على الصفحة المتهَكِّمة توضِّح فيه أنها راغبة في المعرفة أكثر عن الديانة الجديدة، مصحوبةً بعنوان بريد إلكتروني. من بين مئات الدعاوى الجنسية التي تلقَّتها، كلَّمتها الكاهنة.

تحدَّثنا كثيرًا، تحدَّثنا طويلًا، بَدَت لها الفتاةُ غريبةَ الأطوار، غامضةً، أحيانًا تختفي لأسابيع، وأحيانًا تثرثر لأيام دون انقطاع. تحكي عن النورس وتعاليمه التي هي أقرب لدروس التنمية البشرية، وللتعاليم (السهلة) من المسيحية والإسلام: "حب لأخيك ما تحب لنفسك، وعامِل الآخرين مثلما تُحبُّ أن يعاملوك"، "ارحَمْ الكبير واعطف على الصغير"، إلخ... لكنها أيضًا قدَّمَت ما لم يقدِّمه غيرها؛ تفسيرًا للطيران. ربما تفسيرًا

غريبًا، لكن هكذا هي الحقائق دومًا؛ غريبة مرفوضة في عالم من المنطق المزعوم. المشكلة فقط أنَّ ما قدَّمَته الكاهنة يُنافي المسيحية تمامًا، لكنها تجاوَزَت هذه المعضلة بسهولة أدهشتها، قرَّرَت أن هذه المرحلة مؤقَّتة ببساطة، عمَّا قريب ستظهر جوانب الحقيقة الخَفيَّة الأخرى، وسيظهر أن المسيح هو مَن أرسل النورس مثلًا أو شيء من هذا القبيل، كل شيء سيحلُّ نفسه بنفسه. إلى هذا الحين لن تشارك، ولكنها لن تنزوي؛ ستكتفي بدور المتفرِّجة الصامتة، أو كان هذا ما قرَّرَته حتى البارحة على الأقل، عندما طلبت منها الكاهنة، أو أمرتها، ليست متأكِّدَةً بالضبط، بتنفيذ مَهمَّة مع سيدة لا تعرفها تُدعَى أم رضوى.

جافاها النوم؛ رقدت الليلة كلَّها بعيون تُحدِّق في صديقِ كُلِّ مَن مرُّوا ويمرُّون بأوقات عصيبة: السقف، تُفكِّر في المَهمَّة. لوهلة قرَّرَت تجاهل الأمر، لكنها فكرت في كيف أن الكاهنة تتوقَّع خروجها مثل الجميع، وكيف سيصيبها وخطتها الإحباط بعدم قدوم شاهندة، وكيف يمكن أن تحسبها إنسانة سيئة، وربما كاذبة. لم تكن شاهندة إنسانةً سيِّئَةً من قبل، ولم تكن قَطُّ كاذبةً.

رسمت على جبهتها وصدرها صليبًا دون أن تعي أنها فاعلة.

ها هي الآن تجلس أمام أم رضوى الفضولية التي تَوَدُّ أن تعرف كيف انتهى بها الحال هنا، فكَّرَت فيما قد تقوله صديقات النادي القدامى عن سبب مشاركتها إن عرفوا به،

وكانت تلك إجابتها، "عشان فاضية وماوارييش حاجة... عشان مش متجوِّزة"، ثم استغرقت في نوبة ضحك عميق. وتلك كانت إجابة أكثر من كافية ومنطقية لأم رضوى، ورأت أن نوبة الضحك نابعة من الإحراج الذي تشعر به حتمًا هذه العانس. شعرت بالفخر لأنها، على الأقل، مُطلَّقة.

"وحضرتك؟"، لم تكن شاهندة من قبل مُتطفِّلَةً فضولية في أسئلتها للغرباء، لكن سؤال أم رضوى رفع عنها حرجَ إلقاءِ مثله. "حضرتي؟"، اهتزَّ جسد أم رضوى كلُّه وهي تضحك حتى وقعت قُبَّعة الشيف عنها. "الله يكرم أصلك". ثم ذوَت ضحكتها ونظرتها المتحدِّية التي لم تفارقها منذ جاءت.

رأت في خيالها فورًا البقعة الصفراء في منتصف الحائط المتشقِّق في البيت، الناتجة عن ثمرة برتقالٍ أساءَت هَدَفها: رأس رضوى التي أعلَنَت قبل الرمية بثوانٍ إيمانها بالكاهنة ودينها الجديد. تحسَّسَت -دون وعيٍ- بقايا الجرح الملتئم في ساقها اليمنى، واحد من جروح ورضوض متنوِّعة أصابتها ورضوى نتيجة لتقلُّبِهنَّ في الأرض مُتبادِلاتٍ الضَّربَ وشَدَّ الشَّعرِ والعَضَّ واللطم والصراخ، في الأيام التالية لذاك الإعلان. بابتسامة مكسورة قالت: "عشان رضوى"، "بنتك خَلِّتِك تنضمِّي غصب عنك؟"، انتفَضَت كمَن تلقَّت سُبَّةً، وعادت نظرة القِطَّة المتحفِّزة لثانية، "غصب عني؟ أحمد يا عُمر! لا هي ولا عشرة زيِّها يقدروا يخلُّوني أعمل حاجة غصب عني". ثم لانت ملامحها ونبرتها، "إحنا أم وبنتها، بس مش أنا الأم، بصراحة هي الِّلي أمي، بتراعيني وتدلَّعني وتجيبني وتودِّيني، لغاية ما بقيت معرفش أعيش

من غيرها. هي نِفْسها أبقى معاها، نفسها أمشي ورا النورس دي، من ساعة ما اتلمّت على البت الكاهنة وهي مفيش على لسانها غير النورس الأم... النورس الأم، هو أنا مش أم كفاية يا بنت الكلب؟ بس خلاص رِكْبِت دماغها ومَعَدِتْش عارفة أتكلِّم معاها. وكل شوية تقول لي: انضمِّي لنا يا ماما، خلِّيكي معانا يا ماما، إحنا الحق يا ماما. أنا والله يا أختي ما اعرف مين الحق ومين اللي مش الحق، لا عمري كان ليَّا في يمين ولا شمال. وأنا مليش غيرها، وأخاف عليها تروح من غيري يحصل لها حاجة، وأخاف على نفسي من غيرها لو راحت مارجعتليش. نفسي ربنا يهديها وتلتفت لشغلها ودراستها، وتشوف لها عريس وتهدى بقى، بس يعني... يوه! بتعيَّطي ليه انتي كمان؟".

"لا يا حبيبتي مَبعيَّطش ولا حاجة، تحفظكم النورس لبعض"، "يا رب ياختي"، ولم تلتفت أيٌّ منهما للتناقُض بين الدعاء والتأمين عليه، فيما جَفَّفَت شاهندة دموعَها بأصابع ممتلئة ناعمة، ثم نظرت في ساعتها لتعلن "الساعة تمانية". عادت كلتاهما إلى أرض الواقع، إن أمكن تسمية حالِهما الآن بالواقع، وعَدَّلَتا من ملابس الطباخ عليهما، نهضت أم رضوى وأعانت شاهندة على النهوض، وقبل أن تولِجَ شاهندة المفتاح في الباب سألت أم رضوى "بس الراجل أبوها مَعدَّاش قُدَّامنا، يكون لسَّه جُوَّه؟"، "لأ ممكن يكون عَدَّى من الفيلا نفسها"، ثم فتحت الباب.

كان الشيخ ذو العباءة الكحلية الجديدة والنظرة الخاشعة يجلس متربِّعًا في الهواء، مستندًا بيده إلى رفٍّ على الحائط، لِئَلَّا يتعب من طول الجلوس الطائر، ولِكَيْلَا ينسى نفسه فيطير

فوق الرفِّ المثبت على أقصى ارتفاع يسمح به قانون تحديد الطيران. كان يلقي خطبة مقتضَبَةً بمناسبة الذكرى الأولى لمنحة الأولياء الصالحين للسكندريِّين بالطَّيران، حمد الله وصلَّى على نبِّيه، وشكر الأولياء، ودعى لعضو مجلس الشعب الطيِّب جلال أبو العز بالصحة وطول العمر، والبركة في المال والبنين، وحوله ردَّد التابعون آمين آمين، بعضهم يطفو مثل شيخه، وآخرون على الأرض مستريحين.

قالت مدام شاهندة عدَّةَ مرَّاتٍ: "مساء الخير، مساء الخير"، لكن صوتها مثل وجودها؛ لم يُلاحَظ، فتدخَّلَت أم رضوى "آميييييين، آمين، بارك الله فيك يا مولانا"، صوتها كان عاليًا، مُشاكِسًا بما يكفي ليلفت انتباه الجميع. العيون التي نظرت إليهم كانت مُتشكِّكَةً في البداية، لكن قُبَّعات الطبَّاخين أشعلت فيها البريق كما أيقظت البطون. قالت لهم شاهندة بعدما وكزتها أم رضوى بكوعها: "جلال بيه بيقولُّكم: لأن الليلادي مناسبة خاصة، العشا مش حيكون هنا، كلكم معزومين على الأوپين بوفيه مع ضيوف الحفلة الرئيسية جنب حمام السباحة". انطلقت صيحات التهليل والتكبير والصلاة على الحبيب والدعاء للنائب في صوت واحد، احتاجت أم رضوى للانتظار حتى يهدؤوا لتكمل بيان رفيقتها "بس بيطلب منكم تروحو على العَشَا طايرين، ومتوقَّفوش إنشاد ومدح وطيران طول مانتو وسط الضيوف، جلال بيه عايزكم تشرَّفوه". "ربنا يعمِر بيتك يا جلال بيه"، ثم انطلق صوتُ أحدهم مُردِّدًا نشيدًا لم تُميِّز السيدتان كلماته، والبقية يردُّون عليه "الله الله، الله

الله". خرجوا متزاحمين طائرين من الباب الضيق مثل حبوب ذرة تحتفل بتحوُّلها لفشار.

في الحديقة الأمامية كانوا يحتفلون بذكرى أول طيران أيضًا، وفوز جلال بيه مجدَّدًا -كالعادة- بمقعد المجلس. وكان الرجل يجلس بجوار زوجته -بناءً على أوامرها- في منتصف الصَّفِّ الأمامي أمام مَنصَّةٍ مُرتَجَلة يطير فوقها لاعبو الأكروبات في عرضٍ استعراضي خاص، هو أهم فقرات الحفلة. لا يأبه بحدود الطيران القانونية طالما يجري بمباركة جلال بيه وابنه الرائد معتز وزملاؤه من بهوات الداخلية الحاضرين. بوسع جلال بيه العودة "لدراويشه" فقط بعدما تنتهي الفقرة ويلتقط الصور مع المعازيم المهمِّين، عندها فقط ستُطلِقُ زوجتُه سَراحَه، على مَضَضٍ. عندما سمع التهليل من مجلسه أمام المنصة، حسب أنه نابع من شوقه للعودة إلى الحضرة. ثم أدرك أن هذا ليس خيالًا عندما اتَّضحَت كلمات المنشد "يا صاحب القُبَّة الخضرا، مِنّ علينا بالنظرة، هَلّ الهلال يابو معتز، حَقَّق لكل مُحبّ مُناه"، والجوقة يردِّدون بين المقاطع "الله الله". وزوجته تنظر إليه بعيون مُتَّسِعَة، وفَم يقول بلا صوت "How Dare you?". هَزَّ رأسه نافيًا التُّهمَةَ، لكنها كانت قد حَكَمَت عليه بالفعل بلا استئناف.

كاد الرجال يتَّجهون إلى البوفيه المفتوح بجوار حمام السباحة، لكن الشيخ أشار لهم صوب جلال بيه وضيوفه، فمن العيب الاتجاه إلى الطعام دونما "عمل الواجب" مع الرجل الذي دعانا ليتشرَّف بنا. فطار المريدون في الهواء فوق صفوة المجتمع

السّكندريّ مُردِّدين أناشيدهم، والضيوف بين مندهشٍ ومُشمئِزٍّ ومستمتع، ومدام نجوى ترتجف وتكزُّ على أسنانها وكأن في ملابسها الداخلية فأر.

"ميصحّش كده يا شيخ محمود، ميصحّش والله". لكن صوت النائب ضاع بين الغوغاء، فيما ردَّد المنشد باقي القصيدة مستبدلًا كلَّ ذِكْرٍ لأبي الزهراء بـ "أبو معتز".

وقفت أم رضوى في بقعة بعينها بين حمام السباحة ومدخل البيت، تشرف على المشهد كله، لكن لا يراها الحضور، تصفِّق وتضحك بعدما تَخَلَّصَت من ملابس الطَّبَّاخين. شاهندة كانت تمضي بحذَرٍ غير مُبرَّر وسط الفوضى التي لا تدع مجالًا لشخص بالتركيز مع آخر، إلى خلفية المنصَّة، حيث يقف لاعبو الأكروبات في الهواء حائرين عمَّا يجب عليهم فعله. سَحَبَت حبلًا بعينه كانت الكاهنة وصَفَت لها مكانه، ليسقط من أعلى المنصَّة ستارٌ مسرحيٌّ غطَّاه بالكامل، في منتصفه صورة عملاقة لطائر نورس يُحلِّق في سماء زرقاء، وكُتب تحتها بِخطٍّ لا تخطئه عين "سبحان النورس الأم، خالقة الكون ومانحةِ الطيران".

انطلَقَت شهقات الحضور من كِلا العالمين، وتحسَّس الرائد معتز ورفاقه أحزِمَتَهم بحثًا عن مسدَّساتٍ تَذكَّروا أنهم لم يحضروها، قبل أن ينسكب إناءٌ ساخن من اللحم والمَرَق من يَدِ أحد الدراويش الطائرين على رأس الرائد معتز. انطلقت صرخات مدام نجوى بسَيلٍ من السِّباب البذيء البليغ، بثلاثِ لغاتٍ، ليس من بينها العربية. ثم هَبَّت من مجلسها وجَرَت في

اتجاه الڤيلا، غير آبِهَةٍ بما سيحدث تاليًا بعدما تلوَّثَت سمعتها كسيِّدة المجتمع السكندري الأولى إلى الأبد.

بالأمس، كانت الكاهنة، عندما تحدَّثَت لأول مرة مع أم رضوى عبر الهاتف، قد قالت لها: "طنط، أنا مش بكلِّمك على إني الكاهنة، أنا بكلِّمك على إني زي بنتك رضوى"، "مرحب بيكي يا حبيبتي"، "ميرسي. تقولي إيه يا طنط في واحدة مبتحبِّش بنتها وبتقول عليها وحشة وغامقة؟"، "أقول ست لا مؤاخذة وِسخة متستاهلش تبقى أم"، شهقة، ثم ضحكة، "تمام يا طنط، ليَّا عندك طلب".

كانت مدام نجوى تُهروِلُ مُتولِّيَةً مدخل الڤيلا، وعندما مرَّت بالقرب من أم رضوى لم تلاحظها، إلَّا بعدما تعثَّرَت في قدمها المفرودة وتدحرجت على البلاط. "يقطعني، أنا آسفة ياختي، مخدتش بالي". ذهول الصدمات المتتابعة لم يترك مجالًا لمدام نجوى لتشعر بالألم أو إهانة الكرامة من الوقوع. "هاتي إيدك يا حبيبتي"، ومدَّت لها أم رضوى يدًا، تلقَّتها مدام نجوى المذهولة، فقط لتصفعها أم رضوى بيدها الأخرى، صفعةٌ كان صداها ليتردَّد في الڤيلا كلها لولا الضوضاء العالية عند المنصَّة.

بخطوات متمهِّلَةٍ تركت أم رضوى نجوى على الأرض غيرَ قادِرةٍ على استيعاب ما حدث، ومضَت نحو البوابة لتقابل شاهندة ويخرجان معًا.

وفي الطابـق الثـاني، كانـت هنـاك فتـاة تتابـع المشـهد كُلَّـه من نافـذة غرفتهـا، وتحتفـل -وحيـدةً- بعيـد ميلادهـا السـادس والعشريـن، عيـد الميـلاد الأفضـل في حياتهـا.

7.5

ثـم كان في العـاشرة مسـاءً أن اجتمـع التابعـون السـبعة وكاهِنَتُهـم، في المقهـى الـذي يتحاشـاه الجميـعُ؛ خوفًـا مـن -وكرهًـا في- حـودة القهوجـي، الـذي لم يَعُـد يأبـه بالقبـول في الشـارع بعدمـا وجـد القبـول السـماوي لـدى النـورس الأم وكاهنتهـا.

"الأم مبسوطة، وفخورة بكل واحد فيكم".

تبـادَل كُلٌّ منهـم مـع زميلـه في مَهَمَّتـه السـابقة نظـرةً فخـورةً، باسـتثناء عاصـم صاحـب المهمـة الفرديـة الوحيـدة، أرسـل نظرتـه الفخـورة إلى كاهنتـه الحبيبـة التـي يراهـا أوَّلَ مـرَّة. هـل الجـزء من الثانيـة التـي توقَّفَـت فيهـا عيناهـا أمـام عينيـه -بينمـا تـوزِّع نظراتهـا عـلى الجميـع- كافٍ للتأكُّـد أنهـا تَخُصُّـه بشـعور اسـتثنائي؟

"مكنـش لـه لازمـة الحريـق يـا حـودة، الهـدف كان إرسـال رسـالة بتخريـب ظاهـري مـش أكـتر". انفرَجَـت شـفتا حـودة ليردَّ، لكـنَّ اندفـاع مدحـت سـبقه "كان لازم نعمـل كـده، كان لازم نعلـن للعـالم إننـا أقويـا ومـش حنتسـامح مـع الشـيطان". نظـرت لـه الكاهنـة مندهشـةً، وحـودة سـاخِرًا. أصبـح المبَرمِـجُ، بعـد جرعـة الأدرينالـين الضخمـة التـي عرفهـا مجـرى دمائـه لأول مـرة إبَّـان

هروبه وحودة من مطاردة الشرطة بعد حريق كنتاكي- يعزو دقَّات القلب المتتابعة ونشوة الخَطَرِ المباغت، إلى الإيمان بالرِّئة الطائرة، مانِحَة الطيران، وتلاشي تَرَدُّدُه فيما عرفت روحه راحةَ الاستسلام الكامل لمعتَقَدٍ بعينه، دون أن تلقي بالًا للمعضلات المنطقية المُصاحِبة. كادت الكاهنة أن تُعلِّق، ثم تراجَعَت وردَّدَت "باركت الأمُّ فيكم يا مدحت إنت وحودة، بس يا ريت بعد كده نحاول نلتزم بالتعليمات أكتر".

كان باب المقهى مغلقًا. موائده مرصوصة على هيئة مائدة اجتماعات طولية تجلس على رأسها الكاهنة، خلفها كانت لوحة للنورس شبيهة بتلك على الستارة في الحفل ذي النهاية الكارثية، وعلى يمينها حسام وعلى يسارها رضوى، بجوار رضوى كانت أمها، ثم شاهندة، وبجوار حسام كان مدحت ثم عاصم، الذي كان يرتدي قميصًا أزرق وعيناه سارحتان في عنق الكاهنة القمحي المكشوف، غارقًا في تخيُّل القبلات التي سيمطر بها ذلك العنق عمَّا قريب. "أستاذ عاصم، حضرتك صوَّرت الجرافيتي اللِّي رسمته؟". هاه؟ كيف نسي هذا؟ نسي تمامًا طَلَبَها بتصوير ما رَسَمَ، ثم لماذا تقول له أستاذ وحضرتك؟ لِمَ لا تناديه بعاصم؟ أو بأزرق؟ بحركة عفويَّة استند برأسه إلى راحة يده اليسرى لتخفي الندبة على وجنته، "آسف، معرفتش أصور، كان الوقت متأخَّر والدنيا ضلمة، وبعدين لمَّا البوليس جه بسبب حريق كنتاكي كان لازم أهرب بسرعة عشان...". لم يكمل الجملة بعدما هَزَّت رأسها بلا مبالاةٍ وأشاحت بعينها عنه، انكمش في مقعده.

"مـدام شـاهندة، طنـط أم رضـوى، حقيقـي مـش عارفـة أقولُكـم إيـه، الأم مبسـوطة بيكـم فـوق مـا تتخيَّلـوا"، "حبيبتـي الأم مبسـوطة إزَّاي؟ دانـا لطشـتها بالقلـم"، "لأ قصـدي النـورس الأم مـش... النـورس يـا طنـط الّـلي بنعبدهـا"، "آه... آه، واحنـا كـمان مبسـوطين بيهـا وبنحبَّهـا". وهـزَّت مـدام شـاهندة رأسـها بابتسـامة فخـور.

انتصـب ظهـر رضـوى وانتظـرت شـكر الكاهنـة لهـا ولحسـام علـى أدائهـم الطيـب، لكـن الكاهنـة تجاهَلَتهـا تمامًـا وتحاشَـت عينيهـا. ذُهلـت رضـوى، مـا الـذي جعلهـا تتجاهلهـا هكـذا؟ كانـت دومًـا تابِعَتَهـا المُخلِصَـة الأقـرب. نظـرت لحسـام مُتسـائِلَةً، وجـدت علـى ثغـره ابتسـامةً سـاخرة خفيفـة. شـعرت بغصَّـة في حلقهـا.

"مـن بـين عـشرات آلاف التابعـين، في إسـكندرية وجميـع أنحـاء العـالم، اختارتكـم الأم إنتـو السـبعة بـس مُمثّلـين ليهـا وللجميـع؛ لإنهـا شـافت فيكـم أقـوى إيمـان وأصـدق قلـوب وأصلـب عزيمـة". رفعـت أم رضـوى حاجبًـا وخفضـت آخـر، فيـما ارتسـمت عـلى عينيهـا نظـرة تقـول "أصلـب عزيمـة؟ أنـا ياختـي؟"، بينما غطَّـت رضـوى وجههـا بكفَّيهـا ودمعـت عيناهـا وهـي تهمـس "حمـدًا للنـورس"، هَـبَّ عاصـم واقفًـا مثـل طالِـبٍ يحـاول بشـتَّى الطـرق لَفْتَ نظـر معلِّمـه "كلنـا فـدا الأم وكاهنتهـا"، ثـم عندمـا نظـرت لـه العيـون جميعًـا بـين متسـائِلَةٍ ومشـفقة وسـاخرة، نـدم فـورًا عـلى فعلـه وجلـس بسرعـة مُتمنِّيًـا أن تقـوم القيامـة الآن وينتهـي العـالم.
أجابـت عاصـم بإيمـاء رأس شـاكرة مُحرَجـة، وتابعـت: "فاضل خطـوة واحـدة بـس تفصلنـا عـن النهايـة: الخـروج، التحليـق العلنـي".

صمَتَت ثانيةً لتترك كلماتها تقع في الآذان وتستقر، ولمّا رأت في عيونهم المزيج المطلوب من التوتر والتشوُّق والتساؤل، تابَعَت: "كلكم سامعين الِّلي بيتقال علينا طول الوقت، بيعكسوا رغباتهم الشريرة وأحاسيسهم الخبيثة علينا، كل اللي بيتمنّى يعمل حاجة ومش قادر بيقول إننا عملناها. إهاناتهم للأم فاقت كل الحدود. والأدهى من ده قوانينهم اللي بتحِدّ من نعمة الأم علينا. منعوا عنّا السما وكأنها بتاعتهم، بس دي مش بتاعتهم... دي ملكنا إحنا، ملك للمؤمنين بأحقيتهم فيها، المؤمنين بالنورس الأم روح الوجود".

علا صوتها تدريجيًا حتى ردَّدَت حوائِطُ المقهى صداه، حتى شعر عاصم أنه بلغ أرجاء الأرض كلها. برغم ذلك كان ناعِمًا لطيفًا طيِّبَ الوَقْعِ على الأذن والقلب. راقب انفراج ثغرها وانغلاقه مع كل حرف، وَدَّ لو كان بوسعه تذوُّقه. شدَّت على قبضتها وهَزَّتها أكثر من مرة مع حديثها عن أحقيَّة المؤمنين في السماء، أدرك فجأة أنه كَوَّر قبضته وحاكى حركتها دون أن يشعر، لاحظ نظرة حسام إليه بينما يفعل، شعر بالحرج وسحب يده، في حركة أخرى غير واعية، لتستقرَّ على ندبته.

قطع حديثَ الكاهِنة رنينُ الأساور الذهبية مع حركة مِعصَمِ شاهندة، كانت ترسم على جبهتها وصدرها الصليب. اتَّسعَت عينا الكاهنة، هَتَفَت "مدام شاهندة! تاني؟ مش قلنا حنبطَّل الهرطقات دي؟". "آسفة يا حبيبتي، آسفة مقصُدش صدَّقيني". كانت شاهندة شبه متيقِّنة الآن أن في النهاية ستتَّضح حقيقة أن النورس ملاكٌ مُرسَلٌ من المسيح نفسه لهزيمة قوى

الشر وإنقاذ المؤمنين، وأنها شاركت قبل ساعات فيما سيتَّضح أنها مُقدِّمة لحرب نهاية العالم، هِرمجدون، مَن كان ليتخيَّل أن شاهندة الطيبة البسيطة ستصبح في النهاية جنديًّا من جنود الحق؟

"بكرة حتكون عدِّت سنة نَورَسيَّة كاملة على يوم الطيران الأول، الأم حتصحى وحتنزل للعالم، لو لَقِتنا طايرين، بنسبَّح بحمدها وبندعيلها؛ حترفعنا وترفع كل المؤمنين بيها في كل مكان في العالم لجنة الخلد، وباقي العالم حينتهي، بكل الظلم والكُره والشر الِّلي زرعهم الدجاج فيه... بكرة حنُوَرَّث الأرض وما عليها". من فرط الحماس وقوة الإيمان هتف حودة بينما يهزُّ قبضته في الهواء "الله أكبر". ضربت جبهتها بكفِّها، بينما ضحك حسام رغمًا عنه: "يا حودة، يا حودة! ركِز معانا شوية، الله أكبر إيه يا بني؟". في حِدَّة هتفت الكاهنة دون توجيه كلامها لفردٍ بعينه "أنا مقدَّرة إيمانكم وإنكم متقصدوش، بس لو صدر من حد فيكم كلام كافر زي ده تاني، مينزلش معانا بكرة، بكلمة بسيطة زي دي ممكن نخرج كلنا من رحمة الأم... حرام عليكم يا جماعة".

انتظر حسام انتهاءَ نوبتها، ثم بِرِقَّةٍ، وبينما يربت على كفها المشدود في قبضة، كرَّر كلمات عاصم التي قالها قبل قليل "كلنا فدا الأم وكاهنتها"، وأضاف بينما يعتصر القبضة التي لانت "حبيبتي". سحبت الكاهنة يدها بخجَلٍ لترفع عن وجهها خُصلَةَ شَعرٍ هائمة، وتَبدَّد من وجهها الغضب، وبَدَت في

عينها الغبطة. ليتيقَّن عاصم أن أمنيته تحقَّقَت وانتهى العالم فعلًا، على الأقل عالمه.

قال حودة "حَقَّك عَليَّا يا ست الكل، متخافيش، حنولَّعوها بكرة"، "لأ يا حودة مش حنولَّعوها، مش حيكون فيه أي احتكاك أو أكشن، إحنا بس حنخرج وحنطير بطريقة معيَّنة، لغاية ما تيجي الأم وتاخدنا معاها، فاهمني؟"، هَزَّ رأسه مجيبًا فيما بدا غير راضٍ.

"اللّي حيحصل بكرة كالتالي...".

7.6

في الحادية عشرة والنصف صباحًا، بعدما انفضَّ الاجتماع وذهب كُلٌّ إلى حاله، وجد عاصم نفسه يجيب على سؤال سائق التاكسي عن وجهته ويقول "أقرب قسم بوليس".

8

يا أُمَّ النَّوارس، يا سَنَدَ العاجِزين

"إن كنتَ تطير بمحاذاة هذه اللافتة، فأنت تخالف القانون".

تدلَّت قدما الأمين السيد أحمد سلامة، المعروف سابقًا بالسيد جزرة، فوق لافتة حدود الطيران عند مقاعد انتظار الترام في محطة الرمل. أشعل سيجارة، راقب الرجل ذا الندبة، تأكَّد من أنه ما زال واقفًا حيث رآه آخر مرة، يتنقَّل بين بائعي الكتب المزوَّرة، ويتصفَّحها كأنه مهتمٌّ بالشراء. أخرج السيد هاتفه وطلب الاسم الأول في قائمة المكالمات السابقة.

"معتز باشا، مساء العسل... أنا في محطة الرمل دلوقت، ناحية شارع صفية زغلول. الواد واقف ع الرصيف بيلفّ حوالين نفسه، كل شوية بيرمي عينه على الأسطح كأنه مستنّي

حاجـة... لأ ماسـافرش؛ مشـيت وراه مـن سـاعة مـا نـزل مـن اللوكنـدة، راح الموقـف وحجـز أوتوبيـس الصعيـد بتـاع السـاعة 3، راقبتـه حسـب أوامـر سـعادتك لغايـة مـا يمـشي. بعـد مـا ركـب الأوتوبيـس بدقايـق، لقيـت ابـن الكلـب ده نـزل منه وراح أخـد تاكـسي عـلى محطـة الرمـل... لا يـا باشـا ماكانـش واخـد بالـه إنـه كان متراقـب، مايتهيّأليـش، كان بيعيّـط زي الخـولات".

بالأمـس، كلَّـف الرائـد معتـز الأمـين، بائِـعَ الخضـار السـابق، بتتبُّـع الشـاب الـذي جاءهـم في قسـم المنتزه؛ ليكشـف عـن مُخطَّط جماعـة النـوارس في الطـيران العلنـي. كانـت الشرطـة تحتجـز كُلَّ مَـن يُـدلي بمعلومـات تَخـصُّ جماعـة النـوارس لاسـتجوابه بشـكلٍ أَدَقَّ، لكـن بعدمـا تكـرَّر ورودُ المخابيـل عـلى الأقسـام بِهـلاوِسَ مُتخيَّلَـة أو دَسـائِسَ ضـدَّ زمـلاء عمـل أو أفـراد عائلـة مُفكَّكـة؛ صار السـادة البشـوات يصرفونهـم شـاكرين لهـم معلوماتهـم، أحيانًـا يرسـلون مَـن يتابعهـم ليـوم أو اثنـين، مثلـما أرسـلوه خلـف الشـاب ذي الندبـة، وأحيانًـا أخـرى يتجاهلـون الأمـر برمتـه. صرَّح لـه الرائـد معتـز ذات مـرة بأنـه لا يعتقـد بوجـود النـوارس أصـلًا، وأنهـم في رأيـه ليسـوا إلا أسـطورة إنترنـت مثـل أسـطورة الفتـاة التـي تحوَّلَـت إلى ماعـز لتجاهُلِهـا الصـلاة، لكنهـا أسـطورة مفيـدة لحفـظ الأمـن العـام. وهكـذا لم يصـدِّق الرائـد معتـز حرفًـا مـن عاصـم، خاصـة وأنـه غـير سـكندري، وأنـه لم يكـن لديـه أسـماء للكاهنـة وتابعيهـا المزعومـين. لكـنَّ نَدبَتَـه جعلتـه يَشـكُّ في أنـه شـخص غـيرِ سَـويٍّ، وربمـا يجلـب وجـودُه المتاعِـبَ؛ لـذا أرسـل السـيد خلفـه ليتأكَّـد

من خروجه من المدينة مثلما قال إنه سيفعل. لكن الآن وقد تراجع عن وعده لسعادة الباشا...

"هات الواد ده يا سيد"، "تمام يا باشا".

وعَزَمَ السيد جزرة على إلقاء القبض عليه ما إن ينتهي من تدخين سيجارته، لكن قبل أن يفعل، قفز ذوو العباءات البيضاء من فوق أحد الأسطح.

انتبه المارَّةُ إلى صِياحِ مَن يشير إلى السماء، بعدما نظروا وجدوا في منتصفها بالضبط ثمانية أشخاص مُتفاوتي الشكل والجنس والحجم، يرتدون عباءاتٍ بيضاءَ، على ظَهْرِ كُلٍّ منها جناحَان من الأسلاك المعدنيَّة المُغلَّفة بالقماش الأبيض. عدا الفتاة في المنتصف، كانت ترتدي فستانًا أبيض يكشف الأذرع والسيقان، قمحية اللون، والجناحان على ظهرها كانا أصغر حجمًا وأجودَ صنَعةً حتى بَدَوَا كجناحَيْ فراشة. وقف الثمانية في خطٍّ مستقيم في منتصف سماء الميدان. وقبل أن يفهموا ما يحدث، بدؤوا في السقوط.

هبط حسام وحودة والكاهنة برشاقةٍ وسرعة، وبرؤوس تشير إلى الأسفل، وأذرع ملتصقة بأجسادهم، كغطَّاسين محترفين، هبطوا بسرعة حتى حسب الناس أنهم سيتلقَّفونهم في أحضانهم. لكن ما إن بلغوا ارتفاع لافتات الطيران المحدود حتى غيَّروا اتجاههم، وانحرفوا فجأة ليطيروا أفقيًّا بموازاة الأرض لِعِدَّة أمتار، تكاد عباءاتهم تلمس رؤوس الناس. ثم عادوا ووجَّهوا رؤوسهم جهَةَ السماء وارتفعوا لأعلى في خطٍّ عمودي

على الأرض. في النهاية وقفوا في الهواء على ارتفاع خمسة أدوار. تُسمِّي الكاهنةُ تلك الحركة: الصَّيَّاد، وهي محاكاة لطائر نورس يغطس بمنقاره في البحر ويصطاد سمكةً ثم يعود بها إلى السماء، ومحاكاة لطيرانها الأول عندما ماتت سندس ووُلِدَت الكاهنة. هبطت رضوى معهم، لكنها لم تُعاوِدْ الارتفاعَ مثلهم، بعدما لمحت أمها تتابع السقوط، وتكاد تُحطِّم رأسَها على أسفلت الشارع، فهبطت وراءها، واستطاعت اللحاق بطرف عباءتها في آخر لحظة، ثم احتضنتها من وسطها وطارت بها لأعلى بينما ترتجف السيدة بين يديها. لم يكن مدحت سعيدَ الحظ مثل أم رضوى، ولم يجد مَن ينقذه من المصير المهين، فوقع مُحتَضِنًا أحد المارة بعد محاولاته الفرملة مع تغيير الاتجاه، تَدَحرَجَا لثوانٍ، تمزَّقَت ملابِسُهما، وتبادلا الجروح، وعندما حاول مدحت الطيران مرَّةً أخرى وجد الرجل يرتفع معه بعد أن اشتبكت ملابسه في أسلاك الجناح التي انفكَّت، فخلع أجنحته وطار كمنطادٍ مخمور. أمَّا السيدة شاهندة، فقد منعتها آلام العمود الفقري من الهبوط، فركنت إلى الاستناد على نافذة مفتوحة في منتصف الطريق، وتابعت المشهد من مكانها.

وقَفَت الكاهنة في منتصف السماء بأذرع مفرودة، انتظرت أن يَصطفَّ أتباعها في هيئة سهمٍ، هي رأسُه، مثلما وضَّحت لهم، وقف حسام بجوارها مؤدِّيًا نفس الحركة، مُزاحِمًا موقعها على رأس السهم، دفعته ليلتزم بموقعه خلفها. أمَّا البقية، فاحتاجوا إلى بضعة دقائق ليلملموا شتاتهم ويلتزموا بالتشكيلة

المفترضة؛ دقائق كانت كافية ليفيق الأمين جزرة من ذهوله ويتصل بالرائد معتز ليصف له ما يحدث بالضبط.

تَزايَدَ عددُ مُتابعي المشهد تدريجيًّا، جذب التَّجمهُرُ المارَّةَ كما يجذب المغناطيس بُرادة الحديد، وخرج الراكبون من سياراتهم وانضمُّوا إليهم، تاركين السيارات الفارغة تملأ ما تبقَّى من مساحة للمرور. تابع الجمهور على الأرض ما يحدث في السماء بخليطٍ من المشاعر المتباينة؛ خرجت من بعضهم كلمات الاستغفار والدَّعوات إلى الله ألَّا يُؤاخِذَهم بما يفعله هؤلاء السفهاء، آخرون غَمَرَهم حَسَدٌ لَحظيٌّ مُباغِتٌ لأولئك المستمتعين بالطيران بلا مبالاةٍ للحَدِّ القانوني، ترجمه بعضهم لصيحات حادَّة تنادي بالاتصال بالشرطة فورًا ليتعاملوا مع زُمرَةِ المخالفين المخابيل هؤلاء، ما رَدَّ عليه أحدهم بنبرة ساخرة: "ماتقلقش، مش مستنِّيِّين تليفونك". أمَّا القِلَّة الذين كانوا في الهواء قبل ظهور ذوي العباءات البيضاء، الذي لم يكن طيرانهم أكثر من قفزات طويلة نسبيًّا يتأكَّد مرتكبها أن رأسه لم تقترب حتى من لافتات حدود الطيران كاسِحَة الحضور على كل رصيف، حَطُّوا على الأرض، وتأكَّدوا من رسوخ أقدامهم عليها، ونظروا حولهم خوفًا من أن يكون هناك مَن لمحهم طائرين، فيحسبهم ذوي علاقة ما بالمجانين في الأعلى. هتف واحِدٌ من المتابعين متسائِلًا إن كان لهم علاقة بـ "العيال بتوع النوارس"؟، وأشار آخرون إلى الفتاتين الشابَّتَيْن، وسرعان ما صرفوا النظر عن التي تُداري سيقانها ببنطال تحت العباءة وترتدي طرحة، وتشاركوا الآراء في الأخرى التي تلمع بشرتها

القمحية تحت أشعة الشمس، واحد أو اثنان لمسا فروجهما فوق ملابسهما، وعَضَّا على شفاههم، محاولين تخمين لون ملابسها الداخلية. خرجت كاميرات هواتف محمولة تُسجِّل ما يحدث. نسي الجميع الأسباب التي خرجوا لأجلها، ومَنُّوا أنفُسَهم بمتابعة حَدَثٍ مثير يحكون عنه في السهرات لاحقًا، فيحسبهم السامعون -لوهلَةٍ- ذوي حيوات مثيرة للاهتمام.

بعد زمن ثمين ضاع في فوضى إعادة التشكيل، رفعت الكاهنة ذراعيها إلى السماء وهتفت "يا أم النوارس، يا سَنَدَ العاجزين، افتحي لنا أبواب السماء. لأننا باتِّكالنا عليك لا نخيب، وبك نخلص من كلِّ المِحَن؛ لأنك ملاذٌ حصينٌ للخلق أجمعين". صاح ذلك الذي افترض أنهم من أتباع النوارس "قلت لكم إنهم نوارس؛ كُفَّار ولاد كلب"، تبعته صيحات التذمُّر والسِّباب من المتجمهرين. تساءَلَت السيدة شاهندة في نفسها لماذا يبدو لها ابتهال الفتاة للنورس الأم مألوفًا؟ صاحت الكاهنة مُوجِّهَةً نداءها إلى الجماهير في الأسفل: "أيُّها الناس، يا مَن ترضون بالقهر وتخضعون للذُّلّ وتعبدون الأرض، انضمُّوا إلينا، انضمُّوا إلى أهل السماء، حَلِّقوا معنا في سماء لا تعرف القوانييييين". ومع ياء "القوانين" الممدودة دارت حول نفسها بقدمٍ ترتكز أطراف أصابعها على سطحٍ وَهميٍّ، وأخرى تنفرد وتتثنَّى على طريقة راقصة الباليه. مثلها فعل حسام ورضوى، ووقفت السيدتان تنظران إلى بعضهما في الهواء وتضحكان، ولما حاول مدحت أن يفعل فقد التَّحكُّمَ في طيرانه ووجد نفسه يندفع دون قصد تجاه حودة الذي كان يدور حول نفسه

بسرعة زائِدَةٍ كلعبة الدَّبُّور (تلك التي يُسمِّيها غالبية العربُ لعبة "البُلبُل"، لكن يُسمِّيها المصريون "النَّحلة" أو "الدَّبُّور"؛ نظرًا لارتباك معنى المفردة الأصلية لها في اللهجة المحلية) لدرجة أن بعض أسلاك جناحه انفكَّت، وتحوَّلَت لأشواك منتصبة، مثل لاسع نحلة حقيقية. دخل أحد الأسلاك في عين مدحت اليسرى واخترقها. انتبه حودة من رقصته على صوت صرخة المبرمِج السمين الحادَّة، وفَزِعَ عندما رأى السلك لا يزال في عينه والدم يسيل منها كما يسيل الشربات في الأكواب البلاستيكية التي يُقدِّمها في مولد النبي. نظر حوله، تأكَّد أن لا رفاقه ولا الجماهير بالأسفل لاحظوا إصابة مدحت وصرخاته، دفعه بِقَدَمِه بعيدًا، وطار بسرعة مُبتَعِدًا عن الرجل الذي يبكي عينه، وانضمَّ إلى التَّكتُّل العشوائي حول الكاهنة.

بعد أن توقَّفَت عن الدوران، بدأت الكاهنة في رقصتها التي كانت أرسلت بروفة منها لتابعيها كي يتمرَّنوا عليها. رقصت برشاقة ونعومة وخِفَّةٍ لن ينساها مَن حضر اليوم، مثلما لن ينسوا كثيرًا ممَّا سيحدث فيه. استغرقت في رقصتها، فلم تلاحظ حسام الذي حاول أن يقف في المقدِّمة بدلًا عنها، ولا مدحت الذي يطير هلعًا في دوائر وينزف الدماء، ولا حودة الذي يرقص بمطواة مثلما يفعل في الأفراح الشعبية رقصةً لا تشبه أبدًا الاستعراض الذي اقترحته، ولا رضوى التي تحاول محاكاتها، لكن حركاتها تظلُّ خَشِنَةً مُفتَعَلَة بلاستيكية، وهو ما أدركته رضوى وأسرَّته في نفسها محاوِلَةً ألَّا تُبدي غيرتها، ولا أم رضوى والسيدة شاهندة اللتين وقفتا بجوار شرفة مفتوحة

يصفِّقان في رَتابَةٍ، ويتابعان المشهد، لم تسمع تعليق شاهندة في أذن أم رضوى "مش دي رقصة فوازير شيريهان؟"، ولا رَدَّ أم رضوى "آه والنبي شكلها هي، هزّة الوسط دي ماتعملهاش إلا شيريهان". ثم تَعجَّبَتا من ذوق النورس الأم الفَنِّي. لم تلاحظ أيًّا من هذه الأشياء، واندمجت في رقصتها حتى عادت إلى حفل عيد ميلادها قبل ستة عشر عامًا بالضبط، يوم طارت لأول مرة.

على مسافة خمسة عشر مترًا منها في الأسفل، تابع عاصم -في رهبة العابِدِ- محبوبَتَه لأول مرة في الواقع؛ لا الفتاة المتعجرفة حادَّة الطباع التي قابلها على المقهى، وإنما تلك التي عشِقَها قبل عام، ذات الفستان الأبيض ذي التفاصيل التي لم تغادر أحلامه يومًا. ندم على ما بدر منه من خيانة لِحُبِّ عُمرِه، تَمَنَّى لو كانت هناك طريقة يسحب بها وشايَتَه للشرطة، لم تأتِ الشرطة حتى الآن، ربَّما لم يصدقوه؟ يبدو ذلك، لا بأس، الحمد لله، الحمد للنورس. تذكَّر الدورَ المنوط به: الجري بين الناس مُبشِّرًا بقدوم النورس الأم، يفترض أنه سيطير بعد أن يدور بين المُتجَمهِرين سبعَ دوراتٍ، مُناديًا الأمَّ، ومُسبِّحًا باسمها، ستصحو وتَهَبُ له الأجنحة وتَضمُّه مع تابعيها تحت جناحيها في جنَّة الخلود. لكن قبل أن يفعل فاجأه أمين الشرطة القصير أحمر الوجه مضحك الشكل الذي قابله في القسم بالأمس. حاول تفاديه، لكنه كان ينظر في عينيه مباشرة، "آه يا كفرة يا أنجاس". عندها جرى عاصم بالفعل، لكن دون أن ينادي باسم النورس الأم إرادة الوجود، بل كان الشرطي هو من يناديه متوعِّدًا إيَّاه بسنوات طويلة في السجن.

على العكس مـن الكاهنـة المستغرقة في النشـوة، كانـت رضوى مُنتبِهَـةً وواعيـة تمامًـا برقصتهـا وحركاتهـا ومـن حولهـا، وأخـذت تحاول جاهِـدَةً إتقـانَ حركاتهـا، إلى أن بلغـت حـدًّا رأتـه مُرضيًـا ولا يَقِـلُّ كثيرًا عـن سلاسـة رقصـة الكاهنـة ولا رقصـة حسـام الـذي تعمَّدت الاصطدام بـه عِـدَّة مـرَّاتٍ في أثنـاء الطيران، ولم يَبْـدُ أنـه يُمانِع. انخفضـت قليـلًا لتقـترب مـن الجماهـير المُتابِعـة بالأسـفل، هتَفَـت: "شـارِكونا... انضمُّـوا لينـا"، وبحركـة سريعـة خلعـت طرحتها وطَوَّحَتها فـوق الـرؤوس الهائجـة المطلِقَـة صيحاتٍ تتراوح بـين التشـجيع والوعيـد، طوَّحَـت رأسـها في الاتجاهـين، مُحـرِّرَةً شَعرَها مـن محبسـه. رأتهـا أمُّهـا، توقَّفَـت عـن التصفيـق، وهتفـت: "حتفضحينـي يـا بنـت الوسـخة!"، وأفلتـت مـن يـد شـاهندة التـي حاولـت أن تخبرهـا أنهـما صارتـا عـلى ديـنٍ جديـد ولا معنـى للحجاب. طـارت أم رضـوى أسرعَ وأخـفَّ مـن الجميـع، وانقضَّـت على رأس ابنتهـا بليونـة وشراسـة بومـة تقبـض عـلى أفعـى، غارسـة مخالبهـا في شـعرها الثائـر وأسـنانها في كتفهـا، والتحمتـا في قِتـالٍ هـوائي حسـبه الجمهـور جـزءًا مـن العـرض.

مدحـت، المبرمـج الـذي فقـد نصـف قدرتـه عـلى الرؤيـة إلى الأبد، وقُدرتَـه عـلى الرؤيـة كاملـة في نوبـة هلـع لحظيـة، استلقى على سـور شرفـات إحـدى الشـقق، يبـكي ويرتجـف ويتمنَّـى لـو كان التـزم بيتـه.

وسمع مَن في الميدان سارينة عربات الأتاري.

مضى على بدء الاستعراض ومكالمة الأمين للضابط إحدى عشرة دقيقة، ربما كانت الشرطة لتصل أسرع لولا الازدحام المروري الذي سبَّبَته السيارات التي هجرها رُكَّابها. لكن سيارات الشرطة وناقلات الجنود استطاعت شقَّ طريقها على الرغم من كل شيء، وحاصروا مداخل الميدان ومخارجه من كل الجوانب. رحَّب كثيرٌ من المتجمهرين بالقوات، مشيرين إلى ذوي العباءات البيض في الأعلى، وكأن القادمين بحاجة إلى من يرشدهم لأهدافهم.

سارينة الشرطة كانت كافِيَةً لإيقاظ الكاهنة من غيبوبتها، نظرت حولها ورأت رضوى وأمها تقتتلان في الهواء، وشاهندة تستند إلى سور السطح وتبكي، وحودة يرقص بالمطواة رقصَ الأفراح، ويُدلِّي إصبعه الأوسط تجاه الشرطة مُتحدِّيًا، ومدحت فاقِدًا الوعي على سور شرفة، وحسام يقف في الهواء متردِّدًا ينظر إلى الشرطة بقلق. صرخت "اثبتوا... اثبتوا... حانت لحظة الحسم، كَمِّلوا رقص، متخافوش، الأم كلمتني، قالت لي إنها جايَّة، اقفوا جنبي واثبتوا". استجابت لها رضوى واقتربت منها، تارِكَةً الأم مُشعَّثة الشعر، مُمزَّقة العباءة والطرحة في الهواء، ترتجف وتبكي. وانضمَّ إليهما حودة دون توقُّف عن رقصة المطواة، أمَّا حسام، فقد طار هابطًا في اتجاه الشرطة. أخذت شاهندة بِيَدِ أُمِّ رضوى، بينما ترسم بيدها الحُرَّة على وجهها وصدرها الصليب، وطارت بها إلى السطح الذي قفزوا منه في البداية، حيث جلستا في الركن تحتضن الواحدة منهما الأخرى، وتَنشُجُ. اقترب حسام من إحدى ناقلات الجنود ووقف في الهواء أمامها

قائلًا "أنا بسلِّم نفسي، أنا ماليش دعوة بالناس دي، خطفوني وأجبروني و..."، لم يُتِمّ جملته، فقد انفتح سقف ناقلة الجنود وخرج منها سِربٌ من دبابير الأمن المركزي طائرين لأعلى، أمسكه اثنان منهم، وألقياه في مؤخِّرة سيارة حيث تلقَّفه مَن كبّلوه بالأغلال.

اقتحم الرائد معتز -بصحبة ثُلّة من جنوده- السطح. وجد السيدتين الباكيتَين في عباءاتهما البيضاويين، أمر بإلقاء القبض عليهما. وضع على عينه نَظّارة مُعظِّمة يراقب بها الطائِرَيْن عن قرب، أول ما لمحه كان حودة يصيب جُنديَّيْن حاولا القبض عليه بنصله، واحدًا في أعلى كتفه والآخر في معدته، هاتفًا "يلعن ديك أبو الفراخ، يلعن ديك أبو الفراخ". هتف الرائد في جهاز اللاسلكي: "تنبيه، العيال دي مسلَحين وفي غاية الخطورة".

وفي إحدى الشقق التي كان يعيش فيها عجوز وزوجته أيامًا رتيبة هادئة، بمثابة جائزة التقاعُد على حياة صاخِبة، ما زال صدى ضجيجها يتردَّد في أحلامهم. استيقظت السيِّدة على صوت الفوضى القادمة من الخارج، فتحت شُرفَتها لتستطلع ما يحدث، وجدَت رجلًا ضخمًا في عباءة كانت بيضاء، والآن تغطيها البُقَع داكنة الحمرة، يتمدَّد على سور شرفتها فاقدًا الوعي ونازفًا الدماء. صرخت في ارتياعٍ نَبَّه زوجها المستغرق في صلاته فخَرَج منها، طار نحو زوجته في قفزات قصيرة وارتفاع محدودٍ بأقصى ما سمح له قلبه القديم. ولمّا رأى المشهد اندفع مسرعًا لينقذها من أي خطر مُحتَمَلٍ، فدفع ذلك الكائن المخيف الغامض مُلقيًا إيّاه في الشارع. سقط مدحت فاقِدًا الوعي دون

أن يتمكَّن من تَمالُك نفسه والطيران. ووقع من الطابق التاسع كقذيفة مدفع في قلب ناقلة الجنود ذات السقف المفتوح، ارتجَّت الناقلة بصوت هائل من قوة الصدمة. صرخ واحد من الجمهور بالقرب منها أنه لمح حزامًا ناسفًا يحيط بالجُثَّة التي وقعت في الشاحنة، ولا بُدَّ من أنها ستنفجر الآن.

طارت الكاهنة هارِبَةً برشاقة لم يستطع رجال الأمن مجاراتها، واختفت سريعًا من مجال رؤيتهم خلف العمارات. قاوم حودة بشجاعة وروح ثائرة ومطواة صغيرة، ولكن الشرطة تغلب الشجاعة، وقُبِضَ عليه في النهاية بعد جَرْحِه عددًا منهم. أمَّا رضوى، بعدما لم تَعُد متأكِّدَةً من قرب مجيء النورس الأم روح الوجود، فرأت أن الطريقة الأمثل للهروب هي الالتحام بالجماهير في الأسفل. طارت هابِطَةً في الوقت الذي انتشر فيه الصُّراخ بأن هناك ناقلة جنود فَجَّرها النوارس مُسبِّبَةً مقتل المئات، فتلقَّفَتها الجماهير برغبة في الانتقام من القَتَلة، وخوفٍ من مزيد من التفجير، واختفت تحت أقدامهم.

لم يَعُد في السماء من ذوي العباءات البيضاء أحد، لكن الأرض امتلأت بما يزيد عن الألف من الهائجين، محاولين الهروب من الميدان خوفًا من الانفجارات المتتالية التي يسمعون عنها. لكنَّ محاصريهم رفضوا السماح لهم بالخروج إلا بعد تلقِّي الأوامر، ورفض أصحاب الأمر والنهي فتح الميدان خوفًا من هروب الإرهابيين ذوي الأحزمة المتفجِّرة؛ حتى لا ينشروا الرعب في باقي المدينة. وأخيرًا، قرَّر عَددٌ من الخائفين على حياتهم، أنَّه لا مَفرَّ من محاولة الخروج من الميدان بالطيران.

من موقعه على السطح، راقَبَ الرائد معتز ما يحدث من هياج وتدافُع ومحاولات طيران مخالفة للقانون. عرف أن هؤلاء ليسوا مواطنين عاديين، لو كانوا كذلك لالتزموا الهدوء وتركوا قوات الشرطة تؤدِّي عملها. بالتأكيد يَكمُن بين المتظاهرين أفرادٌ من النوارس يثيرون الشائعات ويهيِّجون الجماهير، ويدفعونهم إلى كسر قانون الطيران المحدود. بل ربما كلُّ هؤلاء بالأسفل ليسوا إلا نوارس. عليه أن يتصرَّف.

رفع جهاز اللاسلكي، قال: "إضْرَب غاز".

كل واحدة من قنابل الغاز الخمس التي انطلقت في اللحظة ذاتها من أطراف الميدان، صنعت فجوةً في جسد المحتشدين الجمعيِّ، كسمكة قرش ظهرت فجأة في قلب سرب من السردين. ولمَّا لم يجد الناسُ سبيلًا للهروب من الغاز على الأرض؛ طاروا.

"مش عايز أشوف حد طاير غير رِجَّالتنا، أي خول يرفع رجله عن الأرض يتقبض عليه".

وكانت تلك فرصة مثالية لتجريب تقنيات الصيد التي تدرَّبَت عليها قوات الأمن في الأشهر السابقة. خرجت الشِّباكُ المُدعَّمة بأثقال معدنية في أطرافها، وأُلقِيَت في الهواء لتقبض على أكبر عدد مُمكِنٍ من الطائرين في كل مرَّة، ومُلئت صناديق الاحتجاز المُلحَقَة بالسيارات. طلب الرائد معتز دعمًا لمواجهة الشغب، وكان الدعم في الطريق من قبل أن يطلبه.

كان الشاب ذو الندبة قد استطاع التسلُّلَ وسط المعمعة إلى شارعٍ خلفيٍّ تُميِّزه لافتة مطعم "محمد أحمد" الشهير،

بعدما أضاع أخيرًا الأمين أحمر الوجه مخروط القوام الذي طارده، وتاهت عنه أعين بقية الأمناء المتوجِّهة إلى السماء. مضى على أطراف أصابعه مُبتَعِدًا دون أن يلاحظه أحد. لكن فوقه مَرَّ طَيفٌ مألوف بسرعة، تَبِعَته ثُلَّة من الجنود ذوي الشِّباك. كانت هي، كاهنته، محبوبته، ممزَّقة الفستان، مُغطَّاة بالعَرَق والوسخ والدماء. بلغوها، رموا شباكهم، فاصطادوا كبيرة النوارس. وقعت أرضًا تحت حمل الشبكة وأثقالها. اقترب منها الجنود، التقت عينها بعين عاصم المرتاعة، قالت "أزرق، الحقني"، ففعل.

جرى عاصم؛ لا ترى عيناه إلَّا محبوبته الأسيرة، جرى أسرع من الجنود الطائرين، ورفع قدمًا على مقدمة سيارة والأخرى على سقفها، ومنه قفز قفزة بلغت الأمتار الثلاثة مسافةً وارتفاعًا، حتى حسبه الجنود من الطيور، وبلغ كاهِنَتَه قبلهم، رفع عنها الشبكة بأثقالها، طارت بسرعة هاربة. ولما وصل الجنود ملؤوا الفراغ الذي خَلَّفته في الشبكة بصيد جديد ذي ندبة.

أمَّا هي، فأصابتها شبكة أخرى بعد قليل.

***

في نهاية اليوم، وبينما يستعرض الرائد معتز حصيلة اليوم من الإرهابيين المعتقلين، وجد بينهم أخته.

9

التَّحقيقاتُ تَكشِف

9.1

"كلاشنكوف؟"

قالها المذيع عمرو الشربيني بصوت هو إلى البكاء أقرب، واضعًا كفيه على صلعته كأمٍّ تنعى ابنها، بينما يضرب ضيفه -الذي لا يذكرُ أحدٌ اسمَه- كفًّا بِكفٍّ، ويُردِّد "لا حول ولا قوة إلا بالله". أجاب المُتَّصِل الذي عرّفه الشريط الأزرق أسفل الشاشة باسم "محمد أحمد - شاهد عيان": "آه والله يا أستاذ عمرو، شُفتُه بعيني، الواد طَلَّعه من تحت عبايته البيضا، وراتاتاتاتاتاتاتاتا على الناس في الشارع. أنا الرصاصة عَدِّت

فوق ودني على طول كده، لولا ستر ربنا كان زماني مَيِّت مع اللي ماتوا والله". "معقول الكلام ده؟ معقول؟ حنرجع لإرهاب التسعينات تاني والّلا إيه؟". "والله يا أستاذ عمرو لولا موقف الشرطة البطولي كان زمان إسكندرية كلها وَلَّعت".

"إنت سابع مُتَّصِل يقول الكلام ده يا أستاذ محمد. زي ما انتو شايفين أعزَّائي السادة المشاهدين، كلها شهادات من مواطنين شرفاء عاديين تمامًا، حضروا الواقعة بالصُّدفة وشهدوا على الجِنان ده بعينهم. كلاشنكوف وقنابل غاز وأسلحة بيضا وحاجة أفلام أجنبي خالص والله العظيم، مئات الإرهابيين..."، قاطعه الضيف دون توقُّفٍ عن ضرب الكَفِّ بالكف "آلاف يا أستاذ عمرو"، "عفوًا، آلاف الإرهابيين المجانين، عبَدَة النورس زي ما بيقولوا على نفسهم، حوِّلوا محطة الرمل، المكان الحميمي الجميل، اللي قضيت فيه شهر العسل أنا ومراتي، لحفرة من الجحيم... الناس دي جَت منين؟ حد يِفهِّمني؟".

كرَّر الجملة الأخيرة عدَّةَ مرَّات، وتمتم الضيف "لا حول ولا قوة إلا بالله، عيني عليكي يا مصر".

9.2

جريدة الأخبار، الصفحة الأولى عدد الأربعاء.

زعيم النوارس لا يطير

"... بالتحقيق معه، اعترف المتهم "عاصم محمود عبد الله الشناوي"، بأنه زعيم ومُؤسِّس طائفة عَبَدَة النورس الإرهابية، وأنه العقل المُدبِّر خلف حادث الإسكندرية المأساوي بالأمس، والذي أدَّى إلى وفاة 9، من بينهم عنصر أمنيٌّ، وإصابة المئات. اعترف عاصم أيضًا بأنه كان يعمل مع أعوانه على خطف السَّكندريِّين وغسل أدمغتهم ليضمُّهَم إلى جماعته. وآخر عملياته كانت خطف "سندس جلال أبو العز"، ابنة رجل الأعمال السكندري وعضو مجلس الشعب المعروف "جلال أبو العز"، وذلك خلال اقتحامه وأتباعِه لحفلٍ خيريٍّ في ڤيلَّا والدها ليلَة الاثنين وتخريبه للحفل، والاعتداء على زوجته بالضرب وخطف ابنته. أجبر عاصم ورفاقه سندس على المشاركة في أحداث الشغب، بعد تهديدها بقتل أفراد أسرتها إن لم تفعل.

هذا، وقد عَلَّق النائب جلال أبو العز على ما حدث بقوله: "بنتي اتعرَّضِت لإيذاء شديد من أفراد الطائفة الإرهابية، لكن أنا مش بس زعلان على بنتي، وإنما زعلان كمان على الوطن اللي اتعرَّض لتخريب شديد على أيدي الناس دي. أطالب السلطات بتوقيع أقسى العقوبات على الإرهابيين"".

9.3

خلف مكتب أنيق، بجوار عَلَمٍ فاخِرٍ للجمهورية، جلس رئيس الوزراء أمام الكاميرا التي تنقل بيانه المُرتَقَب في عموم أنحاء الوطن. ثبَّت نظارته بطرف يده، وقرأ من أوراقه في مونولوجٍ أُحاديِّ النَّبرَة دون أن يرفع عينيه ولو مرة، كمن يرغب في الانتهاء سريعًا من مَهمَّةٍ لا يُحبُّها.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انطلاقًا من مسؤولية الحكومة المصرية، والتزامها بحماية الشعب والحفاظ على أمنه وسلامته، ورعاية مصالحه، ونظرًا إلى ما حدث في مدينة الإسكندرية بالأمس من أحداث مؤسفة؛ تَقرَّر الحظر التام والكامل لممارسة ظاهرة الطيران بين المدنيين، في الإسكندرية، وفي كل محافظات مصر التي قد يصيبها ما أصاب الإسكندرية.

خالص تعازينا لأسر المتوفِّين والمصابين، وأمنياتنا بالشفاء العاجل لأُسَر المُتضرِّرين، وجُلُّ غَضَبِنا على رؤوس الإرهابيين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

9.4

في مساء الأربعاء، حَزَمَت أخت زوجة نائب مجلس الشعب متاعها، وغادرت الإسكندرية إلى غير رجعة، وعادت طائِعَةً إلى بيت زوجها.

ولم تتفاخَرْ بأصلها السَّكندريِّ بعدها قَطُّ.

فاصلة

لا يوجد مَن يُحبُّ الحَكَّاءَ الذي يطيل الثرثرة بعد ذروة حكايته.

خصوصًا في الحكايات البسيطة الساذجة التي تعتمد على عناصِرَ سَهلةٍ غير واقعيَّةٍ لجذب القُرَّاء، مثل تلك التي يطلق فيها الأبطال كُراتِ الطَّاقة من أياديهم، أو يحاربون التنانين، أو يطيرون، أو يعيشون في سعادة دائمة. أنت تقرأ هذه الكتب فقط لتمضية الوقت في رحلة قطار، أو منتظرًا دَوْرَكَ في البنك، تلك الظروف التي لا يسهل فيها قراءة "الإخوة كارامازوف" مثلًا، لا تنتظر من ورائها إلا مراوغة المَلَل وتضييع الوقت؛ ما يجعل حذلقة الكاتب بعد مَشاهد الذُّروَة مُملَّةً بشكل غير

محتمل، ربما تُفضِّل حينها الثرثرة مع رفيق الرحلة أو طابور البنك.

لو كان بوسعي إنهاء الحكاية الآن لفعلت؛ فقد انتصر الخير على الشر -كما هو واضح- وزال الخطر، ربما كنتُ لأضيف فقرتين مثلًا عن كيف عاش الناس في سعادةٍ إلى الأبد بعدها، أو شيئًا من هذا القبيل. لكن... ما زال للحكاية بقيّة، عليَّ أن أحكيها، مُضطرٌ أن أفعل. أنت تفهم ماذا أعني، تحدّثنا عن هذا في البداية.

لن ألومَك إن وَضعتَ الكتاب جانبًا الآن؛ فالإثارة -إن كان هناك إثارة أصلًا- قد مَضَت. وما بقي من الحكاية ليس إلا تَفاهاتٍ مُثيرةً للأسى، أو للمَلَل، أو لكليهما. أمَّا الطيران، فبعد حظره لن نراه إلَّا تَسلُّلًا تحت عباءة الظلام، مُكلَّلًا بتوتُّرٍ وعارٍ ونَشوَةِ مُراهِقٍ تَعلَّم الاستمناء لِتوِّه.

وإن كُنتُ أُحبِّذُ ألّا تفعل.

الجُزءُ الثَّالِث

حَظْرُ طَيَران

10

مُباراة مُهمَّة

10.1

مَرَّ عامٌ، لم يحدث فيه ما يستحقُّ الذِّكر؛ فالأمور كانت هادِئَةً، والأمن كان مُستَتبًّا.

ليس تمامًا بالطبع؛ ففي كل لحظة تمرُّ ثَمَّة ألف حكاية وحكاية تستحقُّ أن تُحكى. لكن فيما يخصُّ حكايتنا: كان الوضع على ما يرام.

لم تستغرق المدينةُ وقتًا للتعوُّد على الحياة من دون طيران، مثلما كانت من قبل، ومثلما الحال مع بقية مدن الإنسان.

ولـولا دوريـات الشرطـة الطائـرة، وحديـث الإعـلام الـذي لا ينقطع عـمًا حـدث في تلـك السـنة العجيبـة، لمَـا عـاد لتلـك الظاهـرة أثر.

مخالفـات حظـر الطـيران كانـت شِـبهَ مُنعَدِمَـة، تَنتُـج غالبًـا عـن أخطـاء غـير مقصـودة، يتعـثَّر أحدهـم مثـلًا فيطفـو لثانيـةٍ، ثـم يلقـي بنفسـه عـلى الأرض بقـوةٍ تـكاد تكسر عظامـه ليضمـن ألَّا يلاحـظ الآخـرون خطـأه، أو أن يتشـاجر اثنـان، فيلقـي أحدهـم الآخـر مـن النافـذة، فيقـع بلطـف دون أن يصيبـه سـوء، فيُلقـى القبـض عـلى الأول بتهمـة الـشروع في القتـل والثـاني بتهمـة خـرق الحظـر. باسـتثناء تلـك الحـوادث، لم يَطِـرْ أحـدٌ، أو لِلدِّقَّـة: لم يَطِـرْ أحـدٌ نعرفـه.

في اليـوم الـذي وافـق الذكـرى الثانيـة لأول يـومٍ طـار فيـه النـاس، أو قبلـه بعـدَّة أيـام، أو بعـده، لا يهـمُّ؛ فالأيَّـام تَتشـابَهُ، لم يكـن في المدينـة الراكِـدَة حَـدَثٌ أكـثر إثـارةً مـن مبـاراة كـرة القـدم الدائـرة في شـارع العصافـرة نفسـه، الـذي شـهد المعجـزة قبـل غـيره.

كانـت المبـاراة مُهمَّـة لأسـباب عِـدَّة، أولهـا أنهـا كانـت المبـاراة النهائيـة لـكأس الشـوارع الصيفـي. طالـت البطولـة التـي لم يكـن يجـب أن تـدوم أكـثر مـن شـهور الصيـف، لكنهـا تعطَّلَـت عـدَّة مـرَّاتٍ للسـبب نفسـه: الضَّيـاع الدائـم والمسـتمرُّ للكـرة. خسروا ثـلاث كُـراتٍ حتـى الآن: واحـدة حملتهـا أمـواج البحـر، وأخرى سرقهـا لاعـبُ فريـق شـارعٍ قريـب، نافيًـا أنـه فعـل (عوقِـبَ اللاعـب وفريقـه وشـارعه وسـلالتهم المسـتقبلية بحرمانهـم مـن المشـاركة في البطـولات الرسـمية أو الوديـة في شـوارع العصافـرة

مدى الحياة)، والثالثة مَزَّقَتها سِكِّين صاحبِ مَحلٍّ بقالةٍ، عَكِرِ الوَجهِ والمِزاج، بعدما دخلت الكرة -نتيجة تصويبةٍ غير مُحكَمَة- محلَّه، وكسَرَت واجهة ثلّاجة المشروبات الغازية. عقب كلِّ ضياعٍ للكرة أسابيعُ من المشاجرات بشأن المسؤول عن ضياعها وإحضار بديل، تنتهي عادةً بإقرار الجميع بأنه لا مَناصَ من المشاركة في ثمن كُرَةٍ جديدة؛ ما يعقبه أسابيع أخرى من الادِّخار الجماعي لأبناء الحي، إلى أن يجمعوا أخيراً ثمن كرة جديدة. واليوم، تجمَّعوا للمرة الرابعة بعد انتهاء الدوام الدراسي، وذهب الفتية العشرة فيما يشبه المظاهَرَة المحدودة لشراء الكرة الجديدة.

كان الاختيار وَقَعَ على هذا الشارع بالذات لإقامة نهائي البطولة بسبب هدوئه التام، خصوصًا بعد إغلاق المقهى أبوابَه، وهَجْرِ أصحاب المتاجر لمتاجرهم، بعد أن ساءت سُمعَةُ الشارع وأهله؛ باعتبارهم أصحاب أوَّلِ حالَةِ طَيرانٍ جَماعيٍّ. يستطيع الفتيةُ الآن اللعِبَ مُطمئنِّين لغياب خطر أصحاب المتاجر مُتعكِّري المزاج، الذين يُمزِّقون الكرات وينهرون اللاعبين. لكن في المقابل أدَّى غيابهم إلى انعدامِ مصادر الضَّوء في الليل، وبخاصَّة أن أعمدة الإضاءة الكهربائية تعمل يومًا وتنسى دورها عشرًا؛ ما يعني ليلًا دامِسًا على الأرجح لا يمكن اللعب فيه؛ على المباريات كلها أن تنتهي قبل الغروب. والشمس شارَفَت بالفعل على الذهاب.

ربَّما لم يكن في العالم -في تلك اللحظة- مَن كان يشعر بالفخر أكثرَ من يوسف، وإن لم يَبْدُ هذا على مظهره: مشعث الشعر،

مُمزَّق القميص، مُغطًى بكل أنواع الوَسَخ في الدنيا، كفأرٍ عَبَثَ به قِطٌّ، ومَضَغَه طويلًا قبل أن يَلفظَه مَلَلًا. مبعث فخره كان أنه أصغرُ مَن سُمِحَ له بالمشاركة في بطولة بهذه الأهمية، فلم يتجاوز عُمرُه التِّسعة أعوام، بينما كلُّ مَن يلعب هنا من "الرجال" بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة. حُسن حظه جاء نتيجةَ سوءِ حَظٍّ محمد جمال، حارس المرمى العملاق لفريق الشارع، والذي انكسرت نظَّارته صباح اليوم في أثناء حراسته المرمى في مباراة أخرى بمدرسته، ولم تَعُدْ مشاركته في المباراة مُمكِنَةً؛ نظرًا لِضَعْف بَصَرِه المُجرَّد، الشديد. تَوسَّل لرفاقه أن يُؤجِّلوا المباراة يومًا أو اثنين لحين حصوله على نظارة جديدة، لكن التأجيل لم يَعُدْ مُمكِنًا أكثر من هذا، كان عليهم مَلء فراغه بأي شكل. وعندما لم يكن هناك لاعبون احتياطيون آخرون، عَرَضَ وليد -وهذا ثاني أسباب أهمية هذه المباراة؛ فوليد هو نفسه أوَّل مَن طار: المعلومة التي لا يعرفها أحدٌ تقريبًا باستثناء وليد وقِلَّة من المُقرَّبين. ولمَّا لم يكن هناك مَن تبقَّى من أبطال هذه الحكاية حُرًّا أو حَيًّا أو عاقِلًا غيره، لم نجد بُدًّا من تَتبُّع حكايته، ومبارياته- مهاجِمُ الفريق الأول، ضَمَّ ابن خالته يوسف، وهو ما قوبِلَ بمعارضة شديدة من بقية الفريق، والفريق الخصم، في البداية؛ لأن "ده ماتش رِجَّالة مش عيال". لكن لمَّا وجدوا الوقت سيضيع دون فائدة، تقبَّلوه بينهم بشرط: سيكون يوسف مسؤولًا عن إحضار الكرة كُلَّما جنَحَت بعيدًا أو غابَت تحتَ سيَّارةٍ مَركونَةٍ أو في قلب بِركَةِ ماء، وهو ما يُفسِّر هيئَتَه المُزرِيَة.

لا يأتي الشَّرفُ العظيم بلا ثمن. يعرف أن جمال سينتقم منه بعد أن يصلح نظارته، وأن أمَّه ستوصي أباه بضربه أسخنَ عَلقَةٍ مُمكِنَة؛ عقابًا له على تدمير قميص المدرسة اللَّبنيِّ الجديد، والبنطال الجينز بهذا الشكل. لكن لا يهم، ما يهمُّ أن الرجال سمحوا له بالانضمام إليهم؛ ما يعني أنه صار منهم: صار رَجُلًا.

النتيجة كانت 14-13 لصالح الفريق الضيف، الذي لا يلعب فيه يوسف ووليد. وكان مُؤذِّن المغرب قد أدَّى وظيفته منذ عشر دقائق تقريبًا، والمباراة على وشك الانتهاء مع رحيل شعاع الشمس الأخير. لكن وليد لم يستسلم؛ كان بحاجَةٍ إلى هدف واحد فقط يُحقِّق به التعادل؛ ما يسمح لفريقه بفرصة لمباراة أخرى تكميلية غدًا. واستطاع بالفعل الحصول على الكرة، ومضى مُراوِغًا لاعبي الخصم واحدًا وراء الآخر، تابعه يوسف الصغير بانبهار، تخيَّل نفسه يحكي لزملاء المدرسة الابتدائية عن اللحظة المَلحميَّة التي شهدها بنفسها، رأى ابن خالته، الذي، رغم أنه مُتوسِّط الطول مُقارَنَةً بالجميع، فإنه بدا عملاقًا أكبر من الحياة بينما يتجاوز المدافع الأخير ويشرع في التَّسديد و... وصفعه المدافع الذي تجاوَزَه بقوَّةٍ على قفاه.

لم يكن هناك حكَم، الحُكْم هنا جَماعيٌّ بعد مُداوَلَةِ أفراد الفريقين. لم ينتظر وليد نتيجةَ المُداوَلَة، وانقضَّ على المُدافِع مُحاوِلًا رَدَّ الصفعة بأسوأ منها، لم ينجح، لكن لم ينجح لتدخُّل الجميع بهدف الفضِّ بينهما. وبعد مداولة سريعة صدر الحكم: تُحتسب لوليد ضربة جزاء، إن أحرزها هدفًا ينال حقَّ

رَدِّ الصفعة، وينال فريقه فرصة متابعة المباراة غدًا، وإن فشل يعود مع فريقه حاملًا عار الصفعة والهزيمة في عُقر دارهم. قال وليد: "الكلام ده هبل، بس ما دام ده رأي الكل، ماشي". ثبَّت الكرة على نقطة الجزاء المرسومة بالطباشير، ووقف حارس الخصم بين عارضتي المرمى المُكوَّنَتَيْن من حقائب المدرسة الخالية من كتب الدين. وراقَبَ يوسف المشهدَ مذهولًا بالحكمة الكامنة في طرق الرجال في حَلِّ خلافاتهم.

خيَّم على أوجه الفتية العشرة غيومُ الأدرينالين، سمعوا دقَّات قلوبهم جَليَّةً وكأنَّها موسيقى تصويرية لركلة الجزاء المصيرية القادمة. ولمَّا وضع أحدهم إصبَعَيْ سبَّابته تحت لسانه وصفَّر، ركل وليد الكرة. حملت ركلته كل غضبه، فكانت قوية، لكن الغضب نفسه أعمى تركيزه، فلم تُصِبْ هَدَفَها، أصابت حجرًا في جانب الشارع، غيَّر اتجاهها لأعلى.

احتفل أفراد الفريق الضيف وأطلقوا هتافات الفوز والشماتة فورًا، تمالك وليد نفسه من إطلاق شتائم الحنق والغضب، عليه أن يلتزم بالاتفاق ولا يكون خاسرًا أحمق. لم ينتبه الحاضرون للكرة التي واصلت ارتفاعها، لكنَّ صوت وقوعها المدوي في شرفة بالطابق الأول في العمارة المجاورة كان كافيًا لوقف كل الاحتفالات. ووقف الفتيةُ ينظرون جميعًا كيف تتقافز الكرة بهدوء داخل الشرفة، وتستقر فيها.

لم يَعُد هناك مَن يحتفل.

اقترح مدافع الفريق الضيف الذي صفع وليد قبل قليل "حد يطلع يخبَّط عليهم، ويقول لهم معلش مش قصدنا، عايزين الكورة". ولمَّا رأى يوسف الوجومَ على ملامح أفراد فريقه، تطوَّع بالإجابة حَذِرًا: "دي شقة عمو عاطف اللي شغال في الكويت... مفيش حد". وكأن صوته ذكَّرهم بوجوده، دارت عيون الفريقين دون اتفاق في الآن ذاته لتستقرَّ على يوسف، ولم يَحْتَجْ أحدهم إلى قولها، فَهِمَ الطفل قصدهم بعد وَهْلَة.

"لأ...لألألألأ، أنا مش نوارس، أنا مش كُفَّار"، "إحنا اتفقنا يا يوسف، إنت اللي حتجيب الكورة لمَّا تبعِد"، "أجيبها من تحت عربية مش من فوق، مش حطير، حرام، حيقبضو عليَّا، لأ"، "والنبي يا يوسف، محدِّش حياخد باله"، "الدُّنيا ضلمة، محدِّش حيشوفك"، "حتلعب معانا كل يوم"، "مش حنقول لحد إنك طرت"، "حتبقى أهم واحد في الشِّلَّة، شِلِّة الكبار مش العيال".

تراجع الفتى، ارتجفت شفتاه وكاد يبكي، اقترب منه ابن خالته واجِمًا، "معلش، إحنا اتفقنا، والراجل بيلتزم بكلمته"، ربَّت على ظهره، "ماتقلقش، مش حيحصل لك حاجة، أنا معاك". ولمَّا كان يثق فيه؛ وافق.

"بس أوعوا تقولوا لحد، حيقولوا عليَّا نوارس". أكَّدوا له أنهم لن يفعلوا.

كان لا يزال بوسعهم رؤية الشرفة، لكن مع غياب الشمس كانت رؤية شبحية دون معالم. رغم خوفه من الظلام، فإنه

وجد في قلبه شيئًا من الراحة لذهاب النور؛ فهكذا لن يراه أحد. لكن الظلام ضايق وليد الذي ضيَّق عينيه محاولًا تمييز إن كان في السماء أيٌّ من طيور الظلام، وهو اللقب الشائع لأفراد دوريات حفظ السماء الليلية، لم يَرَ أيًّا منهم.

طار يوسف بِخفَّةٍ وسرعة، تابعوه يطير مُحاذرًا الأسلاك وحبال الغسيل، اختفى بقامته القصيرة خلف سور الشرفة لثوانٍ، ثم ارتفع بعد ثانيةٍ ووقف عليه حاملًا الكرة. احتفل الفتية بالأسفل مرة أخرى، كلهم هذه المرة، لم يَعُد مُهِمًّا مَن فاز أو خسر، المهم أن الكرة موجودة وسليمة، وسيلعبون مرة أخرى. هتفوا باسمه "يوسف... يوسف... يوسف"، مَيَّز صوت وليد بينهم يطالبه بالنزول، لكنه أحبَّ تشجيعهم، وبقي في الهواء حامِلًا الكرة يرقص على إيقاع الهتاف.

كانت المباراة مُهمَّة لأسباب عِدَّة، أهمها: ما حدث في نهايتها، عندما هبط غُرابٌ آدميٌّ من السماء، وأمسك بالطفل من قفاه.

10.2

انعقدت الألسِنَة على الأرض، وقبل أن يفهم يوسف سرَّ صمتهم المفاجئ شعر باليد الغليظة تقبض على مؤخِّرة عُنُقِه وترفعه لأعلى، فعقد الخوفُ لسانه مثل رفاقه. لكن الألسنة

كلها انفكَّت مع صوت الصفعة الأولى من كفِّ أمين الشرطة الغليظة على وجه يوسف.

"والنبي يا عم، والنبي، أنا آسف، آسف والله"، "سيبه يا عم؛ الله يخليك، كان بيجيب الكورة بس، والله ما نقصد"، "معلش، معلش، آسفين". تَتابَعت صيحات التوسُّل والاستعطاف من الفتية كلهم، إلا وليد الذي ظلَّ صامتًا واجمًا معقود الحاجبين؛ ينظر تجاه كتلة الظلام التي يُشكِّلها الأمين الطائر في غضب عاجز.

"بس يا ولاد الكلب منَّك لُه، يبقى ييجي أبوك ياخدك من القسم".

تابعوا توسُّلاتهم، لكن الأمين لم يأبه، وشرع في الطيران مبتعدًا حاملًا الطفل الباكي الذي يحتضن الكرة كأنه يتعلَّق بالحياة ذاتها.. اختفوا من مجال الرؤية أولًا، ثم أخذ صوت بكاء يوسف يبتعد عن مجال السمع تدريجيًّا. نظروا إلى بعضهم بعيون لا تعرف ماذا تفعل، ثم طار وليد. انطلق دون مقدمات أو تنبيه، حتى إن رفاقه جفلوا وتراجعوا مذهولين، كجنود يخشون تأثير ارتداد مدفع أطلقه أحدهم دون قصد. غاب في ظُلمَة السماء حيث اختفى الأمين والطفل. مرَّت ثوانٍ صامتة، ثم وقعت بينهم الكرة فجأة في صوت دوًّى كانفجار محدود، تابعوها تتقافز وتتدحرج حتى استقرت تحت السيارة التي زحف أسفلها يوسف عدة مرات خلال اليوم لإحضارها.

ثم سطعت أضواء أعمدة الإضاءة، وكأنها أدركت جَلَلَ ما يحدث فنَفَضَت عن نفسها التقاعس، ورأوا في قلب السماء وليد يجذب يوسف من بين يدي الأمين الذي يتشبَّث بالطفل كما يتشبَّث الكلبُ بعَظْمَة، ويسبُّ والِدَي الطفلين.

لم يتبادلوا النظر مرة أخرى، لم يتفقوا، لم يلبثوا حتى للتفكير، وانطلق الفتية الثمانية في اللحظة ذاتها، كأسْهُمٍ أطلقتها كتيبة رُماة في حرب قديمة، في اتجاه المعركة التي تحيط بها هالة من ضوء الأعمدة الأصفر المتذبذب. على ارتفاع خمسة طوابق وجد الأمين نفسه مُحاطًا بتسعة مراهقين يخالفون القانون ويجذبون الطفل من يده، وسرعان ما تطوَّر الصراع إلى إطلاق الصفعات والركلات المحدودة إلى الرجل لإرخاء قبضته عن يوسف. والغَلَبة كانت للكثرة والشجاعة، فقط لوهلَةٍ من الزمن. وبينما يُرخي قبضته مُرغَمًا عن الطفل، لمح الأمينُ دوريَّةً تَمرُّ على مسافة غير بعيدة، ناداهم مستغيثًا.

وجاء طيور الظلام.

لم يحتاجوا إلى التوقُّف والسؤال عمَّا يحدث، مجرد رؤية أمين زميل يستغيث ومجموعة من المراهقين يطيرون هاربين خارقين للحظر، كانت أكثرَ من كافية للتدخُّل.

كانت دوريَّةً من أربعة جنود وأمناء شرطة، ومع زميلهم كانوا خمسة من طيور الظلام الذين تدرَّبوا مرارًا على التعامُل مع الطائرين خلال العام السابق، في مواجهة مجموعة من

المراهقين الذين لم يرفع أحدهم قدميه عن الأرض قَيْدَ أنملة منذ فُرض الحظر؛ كانت النتيجة معروفة مسبقًا.

استطاع اثنان من الفتية الهرب، أحدهما كان يوسف. ولمّا كانا يهربان جريًا على الأرض، تركهما طيور الظلام غير مكترثين، فثمانية من "العيال" المُقيَّدين في الشباك والأغلال ليسوا بحصيلة قليلة.

كان الفتى يجري، وكان خائفًا.

ربما أفلت من رجال الشرطة ولن ينال مزيدًا من صفعاتهم، لكن ما زال عليه مواجهة قوة عظمى أكثر عتوًّا تبدو بجوارها صفعات طيور الظلام وسجونهم مأساة أقلّ وَطأة. ما زال عليه أن يحكي لأمه وخالته ما حدث، ولماذا لم يَعُدْ معه وليد.

عندما مَرَّ بجوار السيارة المركونة لمح الكرة أسفلها، انحنى ليحضرها.

10.3

من حينٍ إلى آخر، كان ينطلق صوت واحدة من النسوة بالبكاء والعويل، فيرد عليه أصوات بقيتهن المبحوحة بمزيد من العويل على أبنائهن الضائعين، ثم يعلو صوت واحد من الرجال قادمًا من داخل غيمة دخان السجائر ينهرهنّ، "بس يا مَرَة إنتي وهيَّ"، فيسكتن. لا يأتي سكوتهن طاعةً للرجال. وإنما

تعبًا وإرهاقًا. فلقد كنَّ يبكين دون إنقطاع طيلة أسابيع ثلاث حتى حفرت الدموع أخاديد على الوجنات، ولم تعد في الحناجر قوة.

جلست أمهات الفتية الثمانية وأخواتهم وما تيسَّر من خالاتهم وعمَّاتهم على الرصيف المقابل لقسم شرطة المنتزه. أمَّا آباؤهم وإخوانهم وأعمامهم وأخوالهم، فكان الواحد منهم يدور حول نفسه والآخرين، وعندما يتعب يجلس على الرصيف، ثم ينهض بسرعة وينضم إلى رفاقه المختفين داخل سحابة الدخان، بمؤخِّرات مُتَّسِخة من الجلوس على الأرصفة، وقلوب مُنهَكَة من مواجهة العالم، ويُغذُّون السحابة بمزيد من الدخان. فالرجال عندما تصيبهم كارثة لا يقدرون على حلِّها؛ يدخِّنون السجائر وينهرون النساء، وهؤلاء كانوا رجالًا عاجزين.

كان واحدٌ من المحامين المُوكَّلين بمتابعة الفِتية المختفين أبلغهم صباح اليوم بأن الفتية ربما يكونون في قسم المنتزه، ومن المُحتَمل إطلاق سراحهم اليوم. لم يصدقوا الخبر؛ فقد أنهكتهم الآمالُ الكاذبة. قالوا لهم الشيء ذاته بعد اختفاء الفتية بيومين عن قسم شرطة باب شرق، وبعدها عن قسم محرم بيك، وأقسام الرمل والعامرية وميناء البصل. في كل مرة يتجمَّعون ويفترشون الأرض بالقرب من القسم المذكور، ويسألون الجنود والضباط والمحامين والمارَّةَ والشيوخ والكَهَنَة وأهل السماوات، وتجيبهم الوجوهُ الخشبية ذاتها، ومع الغروب يرحلون.

لكن اليوم، أفرجت شفاه أحد الجنود، بعد استجدائها واستعطافها ومراضاة صاحبها، عن هَمْهَمَةٍ تُفيد بأن سعيَهم هذه المرة ربما لن يخيب؛ فلينتظروا ساعتين فقط. انتظروا ساعتين، وثلاثًا، وأربعًا، ولم يحدث شيء، ولم تنفرج شفاه الجندي مرة أخرى.

صاح أحدهم فجأة "دول عيال يا اخوانّا، حرام، والله حرام". نظر الجميع بعيون فارغة إلى زيدان العمري، صاحب محل الساعات الصينية الرخيصة رديئة الصُّنع، والد المُدافع الذي صفع وليد مُدشِّنًا تَسَلسُلَ الأحداث الذي أدّى بالجميع إلى هذه النقطة. "محدِّش فيكم يعني غلط وهو صغيَّر؟ محدِّش فيهم غلط وهو صغير؟"، وأومأ برأسه تجاه المبنى المنغلق على ذاته عبر الشارع مع حروف كلمة "فيهم". قال الرجال "اقعُد يا زيزو؛ الله يهديك". فقعد زيزو، فقط ليهبَّ بعد قليل صائحًا: "يا اخوانّا دول عياااااال". لم يستطع السيد محمد مصطفى، والد وليد، التحمُّلَ أكثر من ذلك، فنهض حاملًا كرشه وغضبه وكرهه للتفوُّه بالهراء، "عيال ولاد حرام، نبتة فاسدة". هَبَّ الرجال ليُهدِّئوه؛ ما شجَّعه على رفع صوته أكثر، آمِلًا أن يصل إلى السادة عبر الشارع "هُمَّ عاكسوا بنت والّلا شربوا سيجارة عشان تقول لي عيال وغلطوا؟ دول طاروا زي الكُفّار وخالفوا شرع ربنا، والأوسخ من كده: اتعدُّوا على رجل أمن محترم أثناء تأديته عمله! دي مصيبة مش غلطة، ليهم حق يحبسوهم ويضربوهم ويموِّتوهم كمان... والله، والله، لو ابني وليد رجع لأحبسه بنفسي في البيت عشان يتربَّى ويعرف

غلطته". عرف زيدان حينها أنه إذا رَدَّ على كلام الرجل، سيشارك الفتيةَ مَحبَسهم؛ فصَمَتَ إلى الأبد.

تابع محمد مصطفى حديثه عن فداحة ذنب "العيال"، وأجابه الرجال بِهزَّاتِ رأسٍ يتراوح معناها بين التأييد والرغبة في سماع صمته. ولما نَفَدَت كلماتُه سكت، وجلس بجوار بائع الساعات، وتابَعَا التدخين.

عندما قاربت الشمس على المغيب، وأخذ الحضور في لَملَمَةِ خيباتهم استعدادًا للرحيل، استوقفهم نداء من داخل القسم. نظروا إلى المبنى المهيب الصامت، بدا جامدًا بلا حياة، ثم انفتحت نافذة من طابقه الثالث، وخرج منها ضابِطٌ شابٌّ في زِيِّه الرسمي، ولمَّا هبط طائرًا بهدوء عاقدًا ذراعيه ناظرًا إلى أسفل، مَيَّزَت العيونُ شعارَ الجناحين الذهبيَّيْن المُطرَّز على أعلى ذراع زيِّه الرسمي الأسود المميَّز لقوات شرطة الطيران. همس أحد الرجال وقد تعرَّف على ملامحه "ده المقدِّم معتز أبو العز"، وكان الاسم كافيًا ليتذكَّر الرجال البطل الذي قاد المواجهة أمام النوارس وانتصر عليهم قبل عام.

تأمَّلَهم المقدم معتز لفترة، حاوَلَ أحدُهم أن يحيِّيه، ولكنه صمت إحراجًا بعدما لم يلتفت إليه. أشار المقدم بعد قليل بيده إشارةً فُتح على إثرها بوابة القسم الحديدية، وخرج منها الفتية الثمانية مُنكَّسي الرؤوس. كانت عليهم الملابس نفسها التي كانوا يلعبون بها الكرة قبل ثلاثة أسابيع، مُتَّسِخة كريهة الرائحة خشنة الملمس. لم يَبْدُ عليهم أثر لأي إيذاء بدني، لكن

وجوههم قالت إن الإيذاء ليس كله بدنيًّا بالضرورة. خطواتهم كانت بطيئةً مرتجفة، لا يرفع الواحد منهم قدمًا من على الأرض إلا بعد أن يتأكد أن الأخرى صارت ثابِتَةً مُرتكِزة تمام الارتكاز، وحتى حينها يترددون في رفع القدم الأخرى. صار لحظر الطيران في قلوبهم شكلٌ وصوت ومعنى وروح، وليس مجرد كلمة تُردِّدها الشاشات، ويُحذِّرهم منها أهلهم مثلما كانوا يحذِّرونهم من قبل من العوِّ والعفاريت. صاروا ينقلون عيونهم من الأرض التي يتأكَّدون من وجودها أسفلهم بِقلَقٍ، إلى أهليهم الذين ينتظرونهم بلهفة، ثم إلى الضابط في الهواء بخِزيٍ، ثم يتأكَّدون من وجود الأرض أسفلهم بمزيد من القلق.

قال المقدم معتز: "والله، والله كمان مرة، لولا طيبة قلب معالي مدير الأمن، ماكنتو حتشوفوا عيالكم تاني.

كانوا حيترحَّلوا ع النيابة، ويتعملُّهم قضية وياخدوا حكم ويترموا في سجن الأحداث. بس الباشا قال لأ، حرام، دول عيال، عرفوا غلطتهم. هُمَّا آه عيال ولاد جِزَم مش متربِّيِّين، أهلهم معرَّفوهمش الصح من الغلط، بس عيال. أكيد مش حيعملوها تاني، صَحّ والَّلا إيه؟".

وجَّه كلامه إلى الفتية الذين وقفوا في منتصف الطريق بين القسم وأهاليهم، مستمعين بخشوع لحديث المقدِّم. هَزُّوا رؤوسهم مُؤيِّدين. تابَعَ معتز وقد عاد بخطبته للآباء: "لو كان لكل عَيِّل من دول أب محترم يربِّي ابنه ويعلِّمه الأدب؛ مكنش

طلـع عيـل خـول يخـرق القانـون ويهاجـم رجـل أمـن. دي مـش غلطـة عيـال يـا حـضرات، ده إرهـاب، إرهـاااااااااااب.

شارعكم المعفِّن ده مش حيبطَّل يطلَّع أشكال وسخة؟

عيالكـم حيباتـوا في بيوتهـم الليـلادي، بـس وحيـاة أمـي، لـو شُـفت وش واحـد فيهـم تـاني، حيبقـى آخـر يـوم في عمـره يشـوف فيـه الشـارع".

تلقَّـف محمـد مصطفـى وليـده بصفعـة بلـغ صداهـا السـيد مديـر الأمـن المكتفـي بمتابعـة المشـهد مـن نافـذة مكتبـه في الطابق الثالـث، واتَّبَـع سُـنَّته بقيَّـةُ الآبـاء في تَلقِّـي أبنائهـم بالصفعـة ذاتهـا، آخرهـم كان زيـدان العمـري صاحـب محل السـاعات الصينيـة رديئة الصنـع، صفعتـه لابنـه كانـت أقـوى وأعـلى صـدى مـن صفعـات من سـبقوه، فهـم عيـال ولاد حـرام، نبتـة فاسـدة.

11

كما الرِّجال

11.1

حدثت الواقعة التالية قبل زمن بعيد، بعيد جدًّا، بالتحديد قبل ست سنوات. قد تكون السنوات الست زمنًا هيِّنًا إن كنتَ في الثلاثين أو الأربعين، وقد تبدو لحظة عابرة إن كُنتَ في السبعين. لكن إن كُنتَ، مثل وليد، في الرابعة عشر من عمرك؛ فسِتُّ سنواتٍ تبدو دهرًا.

كان مدرس اللغة الإنجليزية للصف الرابع الابتدائي، في المدرسة الحكومية التي كان يدرس فيها وليد ذو الثمانية أعوام، هو مستر ممدوح. ربما تستدعي كَلِمَتَا "مستر ممدوح"

في عصرنـا الحـالي صـورةً ذهنيـة لمديـر مبيعـات شركـة دعايـة وتسـويق وسـيم مبتسـم عـلى الـدوام، لكنهـا صـورة مغايـرة تمامًـا لمظهـر الرجـل الحقيقـي، الأقـرب لرجـال العصابـات ذوي الأدوار الثانويـة في أفـلام التسـعينيات الرَّخيصـة: رجـل طويـل أسـمر ذو عضـلات بـارزة، كمـن اعتـاد عـلى ممارسـة أعـمال شـاقَّة لفـترة طويلـة مـن عمـره. يرتـدي بول-أوفـر رماديًـا غامقًـا فـوق چـينز أزرق ذي بُقَـع، عـن قِلَّـة نظافـة لا عـن موضـة. رأسـه طويـل أصلـع تمامًـا طـوال الوقـت؛ مـا يَنُـمُّ عـن اهتمامـه بحلاقتهـا بالشـفرة صبـاح كلِّ يـوم، لحيتـه نابِتَـة دومًـا عـن إهـمال؛ مـا شـكَّل لغـزًا لـكلِ مَـن عرفـه: لمـاذا يهتـم بحلاقـة صلعتـه وتجاهُـل لحيتـه؟ كلُّ مَـن عرفـه، عـدا طُـلَّاب المدرسـة الابتدائيـة طبعًـا، الذيـن لا يعرفـون الكثـير حتـى الآن عـن أسرار الحلاقـة والتشـذيب. تسـتقرُّ عـلى صلعتـه نظَّـارة شـمس تقضي أيامهـا كُلَّهـا هنـاك، فـلا تهبـط عـلى عينيـه إلَّا لمامًـا، لطالمـا تمنَّـى الطُّلَّابُ أن تهبـط، فتخفـي عينيـه الصفراويـن المخيفتـين. تتـدلَّى مـن رسـغه عصـا خشـبية غليظـة تزيـد عـن نصـف المتر طـولًا، مُعلَّقـة في يـده بربـاط قـماشي أسـود بلـون العصـا ذاتـه؛ فـلا يحتـاج إلى حمـل العصـا في يـده طـوال الوقـت، ويتركهـا تتـدلَّى رائِحـةً وغادِيَـة بينـما يتمـشَّى صامتًـا مختـالًا بـين صفـوف التلاميـذ، مـدركًا أن عيونهـم مُعلَّقـة بالعصـا ودقَّـات قلوبهـم متزامنـة مـع حركتهـا. بصـوت متحشرج كراديـو ترانزسـتور قديـم تحتضر بطاريتـه يشـوبه شيء مـن الاسـتمتاع يُـردِّد: "هيلـو بويـز، هيلـو جيرلـز... هـاو أر يـو؟". يـترك كلماتـه مُعلَّقـة في الهـواء لثانيـة، ثـم يرفـع عصـاه بحركـة تبـدو عشـوائية، لكنهـا تعـرف

هدفها مسبقًا بدقَّة، ويشير إلى أحد الطلاب، "تَرْجِم". يرتبك الطالب أو الطالبة غالبًا، ولا يترجم. إنه الصف الرابع الابتدائي في مدرسة حكومية، حيث بدأ الطُّلَّاب تعلُّمَ اللغة الإنجليزية قبل أسبوع للمرة الأولى في عمرهم، لا يذكر غالبيتهم ما يقبع بعد B في ترتيب حروف هذه اللغة العجائبية.

بعد ثوانٍ من التلعثم والتعثُّر والفشل، يبتسم المستر، ويبدأ عرضه اليومي.

"انتم فاكرينِّي حترجم لكم؟ ده إنجليش كلاس، نو أرابيك إن إنجليش كلاس". ثم يشير -بإصبعه هذه المرة- إلى المقعد في مقدِّمة الفصل، ودون أن ينظر إليها ينادي "مشيرة!". فتنهض مشيرة بابتسامة ساحرة وضفائر متراقصة ورائحة صابون فاخر يعمي أبصار باقي التسعة والثلاثين طالبًا، تُردِّد -متراقِصَةً على لحن خفيٍّ يلعب في مُخيِّلَتِها- الكلمات التي أملاها عليها مستر ممدوح في الدرس الخصوصيِّ بالأمس: "أهلًا يا ولاد، أهلًا يا بنات... عاملين إيه؟". "اقعدي يا مشيرة"، فتجلس مشيرة التي تدرس الإنجليزية منذ نعومة أظافرها في الحضانة والمدرسة الخاصة، قبل أن تنتقل إلى هذه المدرسة البائسة مع تدهور أحوال أسرتها الاقتصادية. "إيه الصعب في كده؟ ليه زميلتك عارفة وانت متعرفش؟ أقول لك ليه؟ عشان في ناس شاطرة محترمة بتذاكر، وفي عيال معفِّنين أغبيا مابيذاكروش، افتح إيدك". ثم يبدأ المشهد الذي لن تسمح مواقع التواصل الاجتماعي المُهذَّبة في عالمنا المعاصر بنشره أبدًا، تحت ادِّعاء أنه يحتوي عنفًا زائدًا ضد أطفال لا يتحمله ضِعاف القلوب،

رغم أننا عشناه يوميًّا بتنويعاته المختلفة في طفولتنا البعيدة، ولم يخرج منَّا شَقيٌّ ولا مريض ولا مُعقَّد، بل رجال ونساء أسوياء "وزي الفل"، أو هذا ما يقوله أبي. يتلقَّى الطالب أو الطالبة أربعَ ضربات متتالية على الكفِّ المفرود رغمًا عنه، يبدأ بعدها درس اليوم، ويتنفَّس بقية الطَّلَبة الصُّعَداءَ لأنهم لم يكونوا ضحايا افتتاحية اليوم، ربما غدًا.

كانت هذه الاستراتيجية تنجح على الدوام مع مستر ممدوح. يقتنع الطلبة كلهم -مع منتصف الفصل الدراسي على الأكثر- بأهمية الدرس الخصوصي، بعدها تصبح الأمور سهلةً دون عنف، ومُمِلَّة بالطبع، ويُحقِّق فصله أعلى الدرجات في الامتحانات الشهرية التي يضعها ويُصحِّحها بنفسه، حتى استحقَّ ترقية "مدرس أول لغة إنجليزية". إلى أن جاء وغدٌ صغير لا فائدة منه اسمه وليد.

في كل مرة يصوِّب فيها عصاه على الطفل النحيل الصامت ويهتف "ترجِم". كان الطفل ينهض ويترجم، كان يفعل بلهجة متعثِّرة ومخارج حروف خاطئة وصوت خفيض، لكنه كان يفعل في النهاية. لا بُدَّ من أن هذا القذر الصغير كان يتلقَّى درسًا خصوصيًّا عند غيره، ربما مدرس من مدرسة غريبة، وإلَّا كان سيعرف هُويَّته. لن يصدق بالطبع حديث الطفل عن استعانته بقاموس قديم لترجمة كلمات الكتاب المدرسي قبل كل حصَّة بنفسه، أي طفل قد يفعل هذا؟ هو أيضًا لا يتبادل الحديث المُستَتِر مع زملائه، لا يأكل خِلسَةً، ولا يحاول الخروجَ إلى الحمَّام في أثناء الحصة. كان ببساطة خارجَ نطاق قبضته. كان يتحدَّى

وجـود المسـتر ونظامـه الراسـخ بطريقتـه الخبيثـة والملتويـة في الانصيـاع للأوامـر.

وذات يـوم حانـت الفرصـة التـي انتظرهـا المسـتر، عندمـا أمـر الطلبـة بإخـراج كتـاب التماريـن ولم يفعـل وليـد، "كتابـك فـين يـالا؟"، "نسـيته يـا مسـتر". وكشـف المسـتر عـن ألعـن صَفَّـيْ أسـنان صفـراء نخرتهـا السـجائر عندمـا ابتسـم أوسـعَ ابتسـاماته عـلى الإطـلاق، "نسـيت إيـه يـا روح يـور مـزر؟"، "نسـيت الكتـاب، آسـف يـا مسـتر"، قالهـا الطفـل بلهجـة الـذي يشـعر بالغضـب مـن ذاتـه، الـذي ارتكـب دون قصـدٍ جُرمًـا سـخيفًا لا يليـق بـه، فـردَ كفَّـه ونظـر في عـين المسـتر مبـاشرة وانتظـر هبـوط العصـا. لم تهبـط العصـا، وإنمـا هبطـت صفعـة مسـتر ممـدوح عـلى مؤخـرة عنقـه. لم يتألَّـم الطفـل، وإنمـا ذُهـل" "ماتضربنيـش عـلى قفايـا"، "أضربـك عـلى قفـاك وعـلى وشـك وعـلى كل حتـة، عشـان انـت معفـن ومهمـل وقليـل الأدب وابـن كلـب"، وصفعـه مـرة ثانيـة. التمعـت دمـوع الطفـل في عـينٍ غاضبـة هـذه المـرة، "ماتضربنيـش عـلى قفايـا وماتشـتمنيش بأهـلي"، هـذه المـرة لم يتمالـك المسـتر ضحكتـه وصفعـه للمـرة الثالثـة، "بـرًّا الفصـل يـا ابـن الكلـب"، وخـرج الطفـل باكيًـا.

في اليوم التـالي، أخـبره واحـد مـن زملائـه أن الناظـر يسـتدعيه، وعندمـا ذهـب كان في مكتـب الناظـر وليـد ووالـده وعـدد مـن زملائـه المدرسـين، وحـضرة الناظـر نفسـه بالطبـع. "إنـت إزاي تشـتم ابنـي بأبـوه؟ انـت مـش عـارف أنـا مـين؟ أنـا كل مدرسـين المدرسـة صحـابي"، في إشـارة إلى المدرسـين الحاضريـن الذيـن هـزُّوا رؤوسـهم

بالإيجاب، "أنا؟ أنا شتمتك بأبوك يا وليد؟"، "آه، شتمتني وضربتني على قفايا، المفروض تضربني بالعصاية على إيدي زي العادي"، "أنا في المنطقة دي بقالي عشرين سنة، عمر ما حد شتمني ولا شتم أهل بيتي، إزَّاي أنت تشتم ابني بأبوه؟"، "وضربني على قفايا يا بابا، ماينفعش يضربني على قفايا"، "والله أنا شتمته عادي زي باقي الطلبة، عشان نسي كتابه ومش بينتبه لدروسه"، "وضربتني على قفايا، الضرب على القفا غلط"، "أنا كنت بطبطب عليك يا حبيبي عشان تركِّز"، "ضربتني"، "ماسْمَحْش لحد يشتم ابني بأبوه، دانا أعملُّكم مصيبة".

انتهى المشهد باعتذارٍ ضمنيٍّ من مستر ممدوح لأبو وليد عن السباب بالأهل، رغم قَسَمِه أنه لم يفعل! ونظرة نارية صَوَّبها المستر نحو وليد دون أن يلحظ الآخرون، ولم يفهم الطفلُ سَبَبَها.

بعد ثلاثة أيام قضاها وليد في ترجمة كل كلمات اللغة الإنجليزية وقواعدها المقرَّرة عليه حتى نهاية العام الدراسي، وفي حصة اللغة الإنجليزية، ردَّد مستر ممدوح ما إن دخل الفصل "سافرينج... هاز بين سترونجر زان أول أوزر تيتشنجز"، وأشار مباشرة إلى وليد، دون أي محاولة لإظهار عشوائية مفترضة في اختياره، "ترجم". وقف وليد، لم يترجم، لم تكن كلمة "سافرينج" موجودة في أيٍّ من الكتب التي عرفها حتى الآن، فضلًا عن كلمات عبارته غير المفهومة. عرف أنه وقع في الفخ رغم كل شيء. في انتصارٍ صاح مستر ممدوح دون أن يحيد عيونه عن

وليد "مشيرة!". نهضت الفتاة؛ لم تتراقص ولم تبتسم كعادتها، ردَّدَت بحروف متوترة "المعاناة خير وسيلة للتعليم؟". بطرف عصاه أشار إليها أن تجلس، فَعَلَت وهي تنظر بشفقة إلى وليد، كذا كان يفعل باقي الطُّلَّاب. أطبق الصمت الذي يسبق الحروب على الجميع.

لوَّح المستر بعصاه السوداء بينما يقترب من وليد: "إنت فاكرني حترجم؟ أنا مش قلت لكم نو أرابيك إن إنجليش كلاس؟". لم يرد وليد، فرد كفه وقدَّم يمناه وثبَّت عينيه في عيني المستر.

سيقول طلبة الفصل لاحقًا إن ضربات المستر التالية كانت أعنف من كل ضرباته السابقة وأسوأ من ضربات المدرِّسين كلهم في مدرستهم الابتدائية القديمة. تلقَّى وليد الضربة الأولى في ثبات، سحب يده لثانية ونفخ فيها، وقدَّم الكَفَّ الثانية، ليتلقَّى ضربة أقوى من سابقتها بالثبات نفسه. فلتت منه دمعة، لكنه جَزَّ على أسنانه ولم يُخرج صوتًا، وقدَّم يده للمرة الثالثة التي لم يتمالك نفسه من التأوُّه بعدها. بعد الرابعة التي يُفترض أنها الأخيرة، سمح لمزيد من الدموع بالنزول واستعدَّ للجلوس، "عيِّطي يا بيضة، عيِّطي يا حلوة، عيِّطي وروحي هاتي لي أبوكي وقولي له المستر ضربني عشان أنا طالب مش محترم ومش بيذاكر". بين دموعه ونفخات الهواء في كفوفه الملتهبة، أجاب الطفل: "أنا جبت لك بابا عشان ضربتني على قفايا وشتمتني بالأهل، ده غلط، لكن الضرب بالعصايا على الإيد عادي، هو الصح، المفروض أستحمله زي الرجَّالة". "طب افتح إيدك يا

روح أمـك زي الرجّالـة". بـكى الطفـل مـع الخامسـة، وصرخ مـع السادسـة، وكان صـوت ارتطـام العصـا بعظـام اليـد أعـلى مـن أنينـه في السـابعة. لكنـه لم يعتـذر، لم يتوسّـل مثلـما يفعـل البقية بعـد الضربـة الأولى أو الثانيـة عـلى الأكـثر، لم يمتنـع عـن مـدّ يـده للضربـة التاليـة. تلقَّـى ضرباتـه وصرخ وبـكى، أغلـق عينيـه بعدما لم يَعُـد قـادرًا عـلى رؤيـة العصـا ترتفـع وتهبـط عـلى كفـه كالقَـدَر، لكنـه ظـلَّ واقفًـا مـادًّا يـده: انكـسرت عصـا المسـتر السـوداء مـع الضربـة الثامنـة. ظلَّـت عينـا وليـد مغلقتـين ويـداه مفرودتـين في انتظـار التاسـعة، وبعدمـا مـرَّت دقائـق ولم تـأتِ فتـح عينيـه: لم يكـن المسـتر في الفصـل، وكان زمـلاؤه التسـعة والثلاثـون يبكـون.

في البيـت قـال وليـد لأهلـه إن رسـغه وأصابعـه الثلاثـة تعرضـوا للكـسر نتيجـة وقوعـه عـلى ذراعـه في أثنـاء اللعـب في الفسـحة. وبعدمـا عـاد إلى المدرسـة بعـد أسـبوع بـذراع ترقـد في جبيرة، عـرف أن مسـتر ممـدوح قـد نُقِـلَ، بنـاءً عـلى طلبـه، إلى إدارة تعليميـة أخـرى.

11.2

في الحاديـة عـشرة مسـاءً، بعـد أسـبوع مـن عودتـه إلى بيتـه مـن الحبـس الاحتيـاطي، كان وليـد يحـدِّق مـن نافذتـه المفتوحـة تجـاه سـماء الليـل، وكان مسـتاءً.

بعدما أمسك الشرطيُّ بيوسف الصغير في نهاية المباراة المشؤومة إياها، عرف فورًا أنه المسؤول المباشر عن أي ضَرَرٍ قد يصيبه، لا خيارَ أمامه إلّا التدُّخل. وكيف لا يفعل؟ هل سيعود لمواجهة أُمِّه وخالَتِه بالطِّفل بآثار صفعات بوليسية على وجهه، أم تأخذه الشرطة ويعود من دونه؟ أليس هذا ما كُنَّ يَقُلْنَه باستمرار؟ "إنت الراجل يا وليد"، "خلّي بالك من يوسف يا وليد". إن فشل فعلى الأقل سيصيبه ما أصاب الطفل، لن يكون بوسعِهِم لَومُه حينذاك؛ لذا لم يشعر بالندم على مهاجمته للأمين، كان "يعمل الصح". فقط كان آسِفًا لانضمام رفاقه وما ترتَّب عليه من عواقِبَ أصابتهم، رغم فخره بـ "رجولتهم". حاول أن يوضِّح هذا للمُحقِّقين في أقسام الشرطة التي تنقَّل بينها وزملاؤه، لكن هؤلاء لم يفهموا أو لم يهتمُّوا، بل قالوا إنه ورفاقه من أشبال النوارس؛ ما أثار استغرابه، وحاول تذكيرهم بأن النوارس طيورٌ صغارها أفراخٌ لا أُسودَ صغارها أَشبالٌ. سألوه عن المُخطَّط الخفي الذي تسعى جماعته لتنفيذه، وأخبروه أن رفاقه اعترفوا بالفعل بتورُّطهم وبتفاصيل الخطة، وعليه أن يعترف لِيَقِيَ نفسه شرَّ الاعتقال. ولمَّا يَئِسَ من إفهامهم ما حدث التزم الصمت، وبدأ يفكر: إذا كانت فعلته نابعة من أنه يتصرَّف كـ "الرجال"، مثلما يخبره أبوه دومًا أن يفعل ويؤكِّد عليه جميع الكبار، فلماذا لا يفهمه هؤلاء "الرجال"؟ لماذا لا يتصرَّفون هم أيضًا كما تُحتِّم عليهم رجولتهم؟ أم هل قواعد الرجولة تختلف من رجل إلى آخر؟

استقبله أبوه -مصدر تعريفه لـ "كيف يجب أن يكون الرجال"- بالصّفعات بعد الإفراج عنه. وأمره في خطبة مقتَضَبَة ليلةَ رجوعه أن يتوقّف عن "لعب العيال" وأن "يسمع الكلام". وأقسم أن يحبس وليده في غرفته ويسدّ نافذتها بالقضبان الحديدية، إضافةً إلى منع المصروف ومشاهدة التليفزيون واللعب مع الأقران. أدرك حينها أنه خرق تعريفًا أكبر وأعمق وأهم لتصرفات الرجال والمسؤولية الواجب الاضطلاع بها، وعليه أن يلتزم، كما الرجال، بالعقاب المفروض عليه، أصابع يده اليمنى التي فقدت نصفَ قُدرَتها على الحركة تُذكِّره بهذا طوال الوقت.

لكن شيئًا لم يحدث، باستثناء خوف أمِّه المبالغ فيه، والذي لا يعني شيئًا بالطبع طبقًا لعالم الرجال. لم يَبدُر من الأب أيُّ عقاب ممَّا وَعَدَ به، لم يَبْدُ عليه أصلًا أنه يُذكِّر ما حدث في الأيّام السابقة. وعندما حاول وليد بعد فترة الحديث مع أبيه عمَّا حدث، وعن التصرُّف الصحيح الذي كان عليه أن يتبعه وقتها بدلًا عن الذي فعله وأغضب الجميع، لمَّا حاول فهم ماذا يعني أن يتصرَّف كالرجال في مثل هذه المواقف. نهره الأب في نفاد صبر: "يا ابني انت مش حتبطَّل مِناهْدَة بقى؟ اسمع الكلام وبَطَّل لماضة". وكانت هذه اللحظة تحديدًا التي انسحب فيها وليد لغرفته، وغمره الشعور بالاستياء.

وقفز من النافذة.

11.3

مُقارَنـةً بعصـور مـا قبـل الطـيران وأيـام الطـيران الأولى، كان الشارع ساكنًا كقبر، لم يعجب هـذا الطائـر المراهـق المتمـرِّد الـذي خرج مـن نافذتـه مُلقيًـا عبـاءة الرجـال الزائفـة عـن ظهـره، مُعلِنًـا لنفسـه وللعـالم: "أنـا عيِّـل"، أراد أضـواء وجماهـير، أراد طيـور ظـلام يستفزُّهم ليقبضـوا عليـه، ليحاولـوا إن اسـتطاعوا. لم يَعُـد يخـاف، لم يَعُد يَعبَأُ بقوانينهـم وقواعدهـم العَبثيَّـة. ارتفـع عاليًـا بـين المبـاني، فارت دمـاؤه بسـبب دفقـة الأدرينالـين المُباغِتَـة حتـى تعـرَّق، شـعر بقـوة دافِعَـة رافِعَـة حتـى حسـب أن ظهـره يحمـل مُحـرِّكات نفَّاثـة تنفـخ النـيران. كان الفتـى الـذي يرفـض اختـلاسَ أنفـاس السـجائر مـن أصدقائـه والدخـول إلى الجانـب المُظلِـم مـن مقهـى الإنترنـت، حيث لا تصـل عيـون صاحـب المـكان- يجـرِّب شـعور التمـرُّد عـلى القوانين للمـرة الأولى، وأحبَّـه.

وبعـد تَجـوُلٍ لعـشر دقائـق في سـماء الحـي، لمـح بالفعـل دوريَّـةَ شُرطَـةٍ طائـرة يرتـاح أفرادهـا عـلى سـطح أحـد البيـوت القريبـة، قـرَّر أن يقـترب منهـم. سيسـتفزُّهم ثـم يهـرب منهـم، سـتكون مطـارَدةً مَلحميَّـةً. صعـد عـلى سـطحٍ مجـاور لهـم ليتَّخِـذه نقطـة انطلاق، اسـتجمع تركيـزه ليحـدِّد الكيفيـة التـي سـيراوغهم بهـا، غمر أطرافـه بَـردٌ مفاجـئ، أدرك للمـرة الأولى أنـه لا يـزال في ملابس نومه الخفيفـة التـي لا تَصلُـحُ للتحليـق في ليلـةٍ خريفيَّـةٍ سـكندرية باردة. هـل تصلـح هـذه الملابـس للطـيران والمراوغـة؟ إمَّا سـيُضعِفُه البرد ويقـع بـين أيديهـم، وإمَّـا سـيفلت منهـم مُصابًـا بنزلـة بَـردٍ

عنيفة. مَن يحب الإصابة بنزلات البرد العنيفة؟ بالتأكيد ليس وليد، ليس الآن. لا بأس، لقد حدَّد موقعهم، يمكنه أن يعدَّ هذه الجولة من الطيران جولةً استطلاعية، سيعود الآن ليرتدي ملابس أثقل ويستعد للمطاردة، ثم سيخرج لهم مرة أخرى، ولتكونَنَّ مُطارَدَة ملحميَّة.

وَلَجَ من نافذته المفتوحة وأغلقها خلفه، أدرك، بعدما صار بين حوائط وتحت سقف، أن قلبه كان ينتفض ويرجُّ معه جدران صدره. جلس على سريره مرتعش الأطراف، ضغط على صدره بيده وكأنه يحاول احتواءَ القلب الهستيريِّ بعناق مُطَمئِنٍ. أخيراً، بعد خمس دقائق من الاضطراب الداخلي، هدأ.

أي جنون هذا الذي كاد يورِّط نفسه فيه؟ أفي اللحظة التي يدرك فيها غباءهم يصير أكثر غباءً منهم؟ هل كان بالفعل على وشك أن يقدِّم نفسه لطيور الظلام ليحبسوه ويتَّهموه بأنه من أشبال النوارس مرة أخرى؟ وربما يُلقونه في السجن إلى الأبد هذه المرة؟ هذه ليست تصرُّفات عيال، وإنما تصرُّفات مخابيل.

أطلق زفرة طويلة، ضحك على حماقته، أطفأ ضوء غرفته ودخل في سريره.

نام بعمق.

11.4

لم يُخبِرْ أحدًا بتفاصيل مغامرته الصغيرة، حافظ على هدوئه وصمته المعتادَيْن بين أهله وأقرانه، وعلى العواصف التي تجول في صدره خَفِيَّةً مُختبئة، محظورة كما الطيران.

لحظات الليلة السابقة كانت حَيَّةً في مُخيِّلَته طوال اليوم التالي، تجاوَزَ بسرعةٍ الرَّغبةَ المتهوِّرة في تحدِّي الشرطة والعالم، وانغمس في تأمُّل فعل الطيران الليلي المستتر نفسه. تذكَّر ملمس هواء الليل البارد على جسده، تذكَّر السلام الذي يَعُمُّ السماء العالية، حيث تلتمع نجومٌ لم يَرَها من قبل، بعيدًا عن صياح الرجال الذين يسبُّون نساءَهم الباكيات، بعيدًا عن زئير مُحرِّكات ميكروباصات تُعلِنُ طول الوقت رغبتها في التقاعد. تذكَّر نشوة الطَّفو على هواء وثير، تلك النشوة التي تَصغُرُ أمامها مُتعَةُ السباحة في كل بحار العالم، تذكَّر الحرية التي افتقدها منذ الحظر. كيف نسي بهذه السرعة حُبَّه اللانهائي للتحليق؟ انغمس بكل كيانه في محاولاته للتصرُّف كما الرجال، حتى صار بالفعل مثلهم: لا يدرك لماذا يفعل ما يفعل، ونسي ما يرغب في فعله.

ليس بعد الآن؛ ليذهب الرجال إلى الجحيم. سيفعل ما يحب، لكن دون حماقة.

خرج في الحادية عشرة ليلًا مرة أخرى، في ملابس سوداء رياضية ثقيلة، تَقيه البرد والعيون. طيرانه كان أشبَهَ بقفزات

سريعة مُستَتِرة من سطح مُظلِمٍ إلى آخر، يكمن في كل نقطة دقائق يدرس فيها المكان حوله، ويتأكّد من مدى قربه من نقطة بدايته التي سيعود إليها، أو قَدْرِ بُعدِه عنها، يتأكّد إن كان ثمة دوريات طيران قريبة، يدرس المكان والأماكن المحيطة، يسجِّل ملحوظاته في مفكّرة صغيرة، ويقفز إلى مكان آخر. فور أن عاد بعد ساعة لم يكن مُحمَّلًا بمتعة الطيران الاستثنائية ولا الأدرينالين المتخفّي من عيون المراقبين، بل بمفكّرة مليئة بالملحوظات، ودماغٍ ترسم الجداول والخطط. رسم خريطةً كُروكيَّةً لشارعه والشوارع المحيطة، وبأقلامٍ مُلوَّنة وضع علامات على أماكن وجود طيور الظلام، ومصابيح الشوارع التي ما زالت تعمل، والأماكن المزدحمة بعوائق جَوِّيَّة (أسلاك كهرباء وحبال غسيل ولافتات دعم مرشَّح الدائرة في الانتخابات)، وكل ما يمكن أن يؤثِّر في سلامة رحلته الليلية وسَلاسَتِها. أحسَّ بالإنجاز، ونام من فرط الإرهاق.

كرَّر رحلاته الاستكشافية الحَذِرَة في الليالي التالية، في كل مرَّةٍ يوسِّع دائرة بحثه شارع جديد، ويضيف إلى أرشيفه الاستراتيجي رفًّا من المعلومات. وبعدما شعر بأنه جمع معلومات كافية، بدأ في وضع خطوط تحليق تتبع سُبُلًا مختلفةً كُلَّ ليلة، تتحاشى نقاط الدوريات التي خَبُرَها جيدًا. تَخيَّلَ نفسه أكثر من مرَّةٍ وقد كشفته إحدى الدوريات، وتدرَّب على حركات مراوغة وطيران للهروب السريع. شملت جداولُه الأماكِنَ التي تحتوي دورات مياهٍ عامَّةٍ في حالَةِ احتاج إليها، وتدرَّب على الهبوط السَّلِس المتخفِّي في الشوارع الجانبية. حفظ خطوط المواصلات

الأرضيـة في كل مـكانٍ يبلغـه في حالـة حـدوث طـارئ قـد يمنعـه من العـودة طائـرًا. لم يـترك لنفسـه العنـان ليطـير كـما يرغـب أينـما أراد، طـار في جـداولَ ثابِتَـةٍ وضعهـا لنفسـه بحيـث لا تتعـارض مـع مواعيـد دراسـته والتزاماتـه، التـزمَ بخطـوطِ السَّـير كـما كان يلتـزم بقوانـين "الرجـال" سـابقًا، وكأنهـا أوامـر إلهيـة.

وذات ليلـة، اكتشـف أنـه لم يَكُـن الوحيـدَ، بـل كان هنـاك آخـرون، وربمـا كثـيرون.

عندمـا قابـل أحدَهـم أوَّلَ مـرَّةٍ، هـرب مسرعًـا، وعـاد إلى بيتـه -بعـد طيرانـه في مسـارات مُضلِّلَـة لأيٍّ اقتفـاء أثـر مُحتَمَـل- فزعًـا، وعـزم ألَّا يطـير مـرة أخـرى كي لا ينكشـف. لكنـه تشـجَّع بعـد ليلتـين وخـرج مـرة أخـرى، وقـد أضـاف إلى ملابسـه وشـاحًا يُغطِّي وجهـه؛ فـلا يتعـرَّف عليـه أحـد. لمحهـم أكـثر مـن مـرَّة مثلـه، مُلتَحِفين بالظَّـلام والملابـس الغامِقَـة، يتقافـزون بـين النقـاط العمياء عـن أعـين الدوريـات، أفـراد وحيـدون مثلـه في الغالـب، أو في أحيـان نـادرة في مجموعـات مـن اثنـين أو ثلاثـة. اعتـاد بعدهـا عـلى مُقابَلَـة مُحلِّقـي الليـل الغامضـين مثلـه، لم يَعُـدْ يهـرب خائفًـا، بـل صار هـذا يُشعِرُه بـشيء مـن الاطمئنـان، إدراكـه أنـه ليـس الشَّـارِدَ الوحيـد عـن القطيـع رَفَـعَ مـن عـلى ظهـره حمـلًا لم يكـن يـدرك وجوده إلَّا بعـد تَخفُّفِـه منـه. عـلى الرغـم مـن ذلـك كان يكمـل طريقـه مُتجنِّبًـا أي محاولـة للتواصُـل؛ إيثـارًا للسـلامة، وعـادةً مـا يفعـل مَـن يُقابِلُـه مِثلَـه.

خُطَطُـه القاسـية لم تسـمح لـه بتـذوُّق نشـوة المتمـرِّد المُتهوِّر الغامـرة، التـي عرفهـا في ليلـة حمقـاء مـرة أخـرى، لكنهـا رسـمت عـلى شـفتيه ابتسـامةً هادئـة دائمـة، وكان هـذا يكفيـه. تمنَّـى لـو يـدوم الحـال عـلى مـا هـو عليـه، لكننـا نعلـم بالطبـع أنـه لـن يـدوم، وإلَّا مـا كُنَّـا لنحـكي عنـه هُنـا.

12

طُرُقٌ مُتعَدِّدَةٌ للطَّيَران

12.1

"بعيد عنك حياتي عذاب، ماتبعدنيش بعيد عنك

ماليش غير الدموع أحباب، معاها بعيش بعيد عنك".

رغم اليأس المُتضمَّن في الكلمات والتأثُّر الواضح في صوت أم كلثوم، الخارج من هاتف "نوكيا" قديمٍ يستعمله كراديو، كان صوت عبد السميع يُردِّد معها كلمات الأغنية مليئًا بالحبور. إنها الجمعة الأولى من الشهر، الليلة المُخصَّصة لطقس اللَّفِّ المُحبَّب. لا يدرك كيف ولا متى صار لطقس لَفِّ "الجوينتات"

مُتعَـةً و"مـزاج" يفـوق ذلـك الناتـج عـن التدخـين ذاتـه، صـار يصبو طوال الشـهر إلى اليـوم الـذي يـصرف فيـه معاشَـه التقاعُـديَّ ليشـتري بـه كامـلًا تقريبًـا مخـزون الشـهر مـن المخـدر البُنِّـيِّ الفَـوَّاح، وينتظـر حلـولَ ليلـة الجمعـة ليُخـرِجَ المائـدة الصغـيرة مـن غرفتـه الضيِّقَـة إلى السـطح في الهـواء الطلـق، ويجهِّـز كـوب الشـاي العمـلاق الثقيـل، ويشـعل المصبـاح الأصفـر الـذي يُضيئـه سـلكٌ مُتسـلِّل مـن الكابـل العمومـي، ويحـضر علبـة الصفيـح الفارغـة المُعـدَّة لاسـتقبال الـچوينتـات الملفوفـة، وأكـوام صغـيرة من الحشـيش وأوراق البفـرة والتبـغ والفلاتـر، والهاتـف الراديـو الـذي يُـردِّد أغـاني أم كلثـوم، وأصابعـه القصـيرة المتَّسِـخة تتحـرك برشـاقة وعفويـة بـين كل هـذا، كأفـراد فريـق تمثيـل يـؤدُّون المسرحيـة ذاتهـا للمـرة الألـف.

كان غارقًـا بـين طقسـه المُقـدَّس وأنغـام أم كلثـوم عندمـا سـمع أصـوات التهليـل القادمـة مـن أعـلى: "الـلااااااااه"، "يـا مزاجـك"، "إيـه الصـوت الخَـرَا ده". نظـر لأعـلى، رأى دوريَّـةَ طـيرانٍ فوقـه، يسـخر أفرادُهـا مـن موسـيقاه وصوتـه الأجـشّ. بحركـة مرتبكـة نـزع الشَّـال المُبقَّـع الـذي يُمكِنُـكَ شَـمُّ رائحتـه العَطِنَـة بمجـرد رؤيتـه، وألقـاه فـوق كنـزه غـير القانـوني. لم يَـرَ طيـور الظـلام الحشـيش أو لم يأبهـوا بـه، وتابعـوا طيرانهـم مُبتَعِديـن، مُتلكِّئـين، ضاحكـين، مسـتمتعين. تابعتهـم عيـون عبـد السـميع حتـى اختفـوا، لكـن صـوت مزاحهـم لم يختـفِ معهـم.

رفـع الشـال عـن المائـدة، شرع في اسـتكمال اللـف، لكـن وجـد أصابعـه وقـد أصبحـت خامِلَـةً زاهـدة. بـدا صـوت الموسـيقى

في أذنـه مزعجًـا سـخيفًا، أطفأهـا. تنـاوَل الشـاي، فوجـد الكـوب فارغًـا، خـرج منـه صـوت زَمجَـرَة ناقمـة. وضـع الكـوب الفـارغ في حِجْرِه، أمسـك عَجَلَتَـيْ الكـرسي المتحـرِّك ودفعهـما للخلـف، صـدر عـن الأجزاء الصدئـة الرافضـة للحركـة صـوتٌ صريـر، ثـم تحرَّكَتـا أخيرًا بعدمـا دفـع أقـوى وأطلـق السِّـباب. جَـرَّ كُرسـيَّه إلى داخـل الغرفـة، شـعر بثِقَـلٍ فَـوريٍّ كَتَـمَ عـلى تَنفُّسـه وغمرتـه رائحـة الغرفـة العَطِنـة، كيـف لم يشـمَّ رائحتهـا مـن قبـل؟ هـل كانـت هـذه الرائحـة الثقيلـة المُقـزِّزة في غرفتـه طـوال الوقـت أم هـي جديـدة؟ حـاول تَجاهُلَهـا مُتَّجِهًـا ناحيـة الرُّكـن حيـث كيـس الشـاي والسكر والسِّـبِرتايَة، عبـث فيهـا قليـلًا، ثـم ضـاق بالرائحـة ولم يَعُـد يَتحمَّلها. ألقـى مـا بيـده وسـحب كرسـيَّه مُتَّجِهًـا للخـارج، وقعـت عينـاه عـلى صفحـة الجريـدة المُعلَّقـة في بـرواز عـلى الحائـط المتداعـي بجـوار المدخـل، حيـث تتوسَّـطها صورَتُـه طائِـرًا في السـماء بيدَيْـن مرفوعتـين للسـماء، وأرجـل غـير موجـودة، وعيـون تُغرِقهـا الدمـوع، تجاهَلَهـا وخـرج للسـطح.

لماذا يطير هؤلاء بحرية بينما هو عالِقٌ في كرسيه الصدئ؟

لم يشـعر بالإعاقـة إلا بعـد فـرض الحظـر. حتـى بعدمـا بُـتِرَت ساقاه قبـل خمسـة عـشر عامًـا، عندمـا تحـرَّك القطـار بعـد نـزول عبد السـميع الثلاثينـي أسـفلَه ليُحـضِرَ مَحفظَـةَ مُسـافِرٍ بالدرجـة الأولى، آمِـلًا بالحصـول عـلى مبلـغ "الحـلاوَة"، لم يكـن الأمـر بهـذا السوء. حينهـا وجـد في التقاعُـد المبكِّـر والمعـاش التعويـضي الإضـافي راحـة كان يتمنَّاهـا، فهـو لم يكـن مـن مُحبِّـي العمـل والمجهـود الزائـد. إضافـةً إلى أن الإصابـة أدَّت إلى نفـور زوجتـه منـه أكـثر مـن

المعتـاد ورحيلهـا عنـه. جائـزة أخـرى غـير متوقَّعـة؛ فهـو لم يَعُـد مُضطرًّا لدفـع إيجـار شـقة زوجيـة وتحمُّـل نفقـات زوجـة تزعجـه ليـلًا نهـارًا بطلباتهـا الماديـة والمعنويـة والسريريـة، وتنهـره كلَّـما فَكَّ عـن نفسـها بسـيجارة محشـيَّة، بوسـعه بعـد رحيلهـا الاكتفـاء بغرفـة بسـيطة رخيصـة الإيجـار، كافيـة لاحتياجاتـه المحـدودة، وتدخـين مـا يرغـب مـن الحشـيش دون إزعـاجٍ أرضيٍّ يُعيـدُه مـن سـماء "المـزاج". أمَّـا عـن احتياجـات الرجـال، فـما حاجـة الرجـل للمـرأة مـا دامـت يـده بخـير؟

التقط من علبة الصفيح سيجارةً؛ أشعلها.

ثـم عـلى حـين غـرة، دخـل الجنـة، أو جـاءت الجنـة إليـه. أصابـت المدينـةَ حُمَّـى الخِفَّـة، وطـار النـاس، وطـار معهـم. مـا زال يذكـر أيـام الطـيران الأولى كأسـعد أيَّـام حياتـه، أو للدِّقَّـة: كأيـام حياتـه؛ فهـو لم يَعُـد يـرى مـا قبلهـا حيـاة. قـضى أيَّامَـه يطـير في سـماء شـارع ويرقـص ويبـكي ويضحـك ويغنـي. لقطـة الرجـل الطائـر مـن دون أرجـل جذبـت العيـون، رأى فيـه النـاس أيقونـةً للحُريَّـة، حتـى إن مُصـوِّري الصحافـة المصريـة والأجنبيـة تهافتـوا عـلى تصويـره في السـماء، لكنـه لم يكـن أحمـقَ مثـل الآخريـن، لم يتركهـم يصورونـه ببـلاش، رَبِـحَ مبالِـغَ طَيِّبَـةً في هـذه الفـترة مـن الاسـتعراض أمـام الكامـيرات، وعـرف لاحقًـا أن أحـد الصحفيـين ربـح بصـوَرِه جائـزةَ تصويـر دوليـة. جـرَّب لفـترة أن يهجـر الحشـيش؛ فهـو يطـير بالفعـل، ولا يحتـاج إلى مَـن يرفعـه، لكـن عندمـا جـرَّب الطـيران الفعـليَّ والطـيرانَ المجـازي في نفـس الوقـت، أدرك أن في هـذا متعـة لم يعرفهـا بـشر قبلـه.

ثم طردوه من الجنة، دون تفَّاحة ولا إبليس.

سحب سيجارةً أخرى؛ أشعلها.

كان في المقهى لحظةَ أعلن رئيس الوزراء الحظر على الشاشات؛ تلقَّى الخبر ضاحكًا، قال "يحظروا مين؟ هوَّ احنا فراخ؟"، انتظر ردَّ فِعلٍ على تعليقه، ضحكات بعضهم أو سِباب آخرين، لم يأتِ أيُّهما، وإنما نال بضعة نظرات متوتِّرة. وفي أول أيام الحظر هبط من السطح طائرًا متبخترًا، هتف "عبسميع مايتحظرش يا ولاد الوسخة". فوجئ برد فعلٍ عاصف من السِّباب والنصائح التي تخبره أن هذا "عيب" و"حرام" و"اتَّقِ الله". وهدَّده أحدهم بإبلاغ الشرطة إن لم يَنتَهِ. وعندما نظر في عيونهم أدرك أنهم عَنُوا ما قالوا. كان هذا جديدًا عليه، هناك عدد من الأشياء العيب والحرام والمخالِفة للقانون تجري حولهم وبينهم طوال الوقت، ولا يوجد من يعترض؛ سيجارة الحشيش الثالثة التي يشعلها الآن مخالِفَة للقانون، ورغم ذلك يُهدِي مثلَها أحيانًا لأمين الشرطة الذي يضبطه متسوِّلًا في عربات الترام، مُستَغِلًّا عاهَتَه، والذي كان أيضًا فعلًا مخالِفًا للقانون. تحت سقف السطح الذي يقف عليه الآن تستقبل جارته المعروفة في الشارع باسم "العزيزة عزيزة" زبائِنَها، عملاء أقدم تجارة في التاريخ. ما تفعله عيب وحرام ومُخالِف للقانون، ولكنه لم يمنع سُكَّان الشارع من احترامها وتقديرها وإلقاء التحية عليها بينما تتهادَى بعباءتها السمراء الضيقة في الشارع مثل بطَّةٍ، تَصحَبُها قرقعة السلاسل الحديدية المُدعَّمة

بالأثقال المُتدلِّية من قدميها، في إشارة لرفضها للطيران والنوارس واحترامها للحظر.

ثلاث سجائر من دون تأثير؛ ما زال مُتعكِّرَ المِزاج، أشعل الرابعة.

لكنه لم ييأس، قرَّر أن يعامل حظرَ الطيران مثل صيام رمضان. لم يَصُم، ولا يظن أن هناك مَن يفعل، لكنه لا يوجد مَن يجسر على الإشهار بذلك. تابع الطيران لفترة في السِّرِّ، داخل غرفته الضيقة بين سريره وكُرسيِّه المتحرك، داخل حدود سطحه، ويخرج إلى الشارع مُحلِّقًا حينما لا توجد كثير من العيون. لم يكن في هذا الطيران مُتعَة، لكنه كان أفضلَ من لا شيء. ثم ضربوه، لمحه أحدهم يقفز من السطح، صاح "عبسميع نواااارس". وقبل أن يدرك ما يحدث كانت الأيادي تَبرُزُ من كلِّ مكانٍ وتَشدُّه إلى الأرض، وانهالت عليه الصفعات والركلات. لم يَطِرْ بعدها قطُّ.

هل الحشيش مغشوشٌ هذه المرَّة، أَمْ أن مزاجه صار عَكِرًا لدرجَةٍ لا تصلح معها الجوينتات؟ التقط قِطعَةً سليمةً بحجم عقلة الأصبع من المخدِّر الخام، ثبَّتها على طرف دبوس صغير كان يشبك كُمَّ قميصه بدلًا من زِرِّه الضائع، وضعه في كوب زجاجي فارغ، وبِقدَّاحته أشعل طرف قطعة الحشيش، وبسرعة غطَّى حافَّة الكوب بيده، وراقَبه يمتلئ بالدخان المائِل للزُّرقَة. بعد ثوانٍ، رفع إصبعًا ليسمح للدخان بالإفلات، واستنشقه كله.

وطار عبد السميع؛ مَجازيًا وحَرفيًّا.

12.2

كان الوقت يقترب من منتصف الليل عندما لاحظ وليد في طريق عودته مُسِنًّا طائرًا مبتور الساقين. استوقفه المشهدُ، وركن إلى بقعة مُظلِمَةٍ أسفل إحدى الشُّرفات ليراقب الرجل. كان عجوزًا نحيلًا مُهَلهَلَ الملابس، مُتَّسِخَ الهيئة، سيقانه مبتورة من فوق الركبة، يطير كريشة تلعب بها الريح، يحمله الهواء في كل اتجاه، ولا يحاول التَّحكُّم في اتجاهه. وعندما مَرَّ بالقرب منه، مرَّت معه سحابة من رائحة تحكي تاريخًا طويلًا من تَجنُّب التعرُّض للمياه، وسمع منه محاولة لدَنْدَنَةِ لَحنٍ ما غير واضح لحشرجة الصوت وارتباكه.

اقترحت غريزتُه الابتعادَ، لكن فضوله طلب مُهلَةً يتابع فيها الرجل الغريب الذي لا يشبه أبدًا مُحلِّقي الليل ذوي الملابس السوداء الذين اعتاد رؤيتهم، مثل هذين اللَّذَيْن مرَّ بهما قبل قليل. طار خلفه تاركًا بينهما مسافة محسوبة، بعد وهلة بدأت أذناه في التقاط صوت أغانٍ. لم يستطع تمييز الكلمات، ولكن كان من الواضح أنها لأم كلثوم. ويبدو أن المُسِنَّ التقط الصوت مثله، فقد انتبه فجأةً من تهاديه العشوائي، وصار يحرك رأسه بحثًا عن مصدر الصوت.

طار الرجل في اتجاه الموسيقى، بدا كأنه يحاول الحفاظ على اتجاهه ثابتًا، لكنه كان يترنَّح، ويصطدم بحوائط البيوت مرة بعد أخرى. هو إمَّا مريضٌ أو ثمِلٌ، في الحالَتَيْن لن يؤدِّي

هذا إلى نهايةٍ طيِّبة؛ فالوجهة التي يتولّاها تعني أنه سيمُرُّ على نُقطَةٍ تُمثِّلها في خرائط وليد علامَةٌ حمراء كبيرة، محل استراحة إحدى دوريات طيور الظلام. توسَّلَت غريزته للذهاب، لكنه طلب دقيقة أخيرة يرى فيها ماذا سيفعل الرجل.

بالفعل رأى في نهاية الشارع الذي يُحلِّقان فيه رجال الدورية، جالسين على سطح إحدى البنايات، متحلِّقين حول هاتف أحدهم الذي يصدح بموسيقى أم كلثوم، ومنهمكين في نقاشٍ حَيويٍّ حول أيِّهم أكثرَ رجولةً ومهارة في السرير. وميَّز من المتناقشين الصوت المتفاخر العالي لجاره القديم، "رجل من هذا الحي"، السيد جزرة الذي أصبح الأمين سيد. صاحت غريزته في حَزْمٍ بأنه عليه المُضِي في طريقه الآن، وأطاعها، وكاد يفعل، لولا تصرُّف الرجل مبتور السيقان الذي لم يملك إزاءه إلا أن يشاهده مبهوتًا.

طار الرجل حتى صار فوق الأمناء الثلاثة بالضبط، دون أن يلاحظوه. فك سحَّاب بنطاله، حرَّر ما لا يتحرَّر في الأماكن العامَّة عادَةً من أعضائه. جاء صوتُه واضِحًا جَلِيًّا ذا صدى رغم حشرجته وانبساطه.

"لا نوم ولا دمع في عينيَّا، ما خلَّاش الفراق فيَّا

نسيت النوم وأحلامه، نسيت لياليه وأيامه".

حسب رجال الدورية في البداية أنها أول قطرات مطر يقترب، لكنَّ اللون ودرجة الحرارة والرائحة والطعم، جعلوهم يعيدون التفكير مرة أخرى في نظرية المطر. رفعوا أعينهم

لتحرّي المصدر، أمسكت الغريزةُ بياقة وليد ولَطَمَته على وجهه وهي تصرخ في أذنه عدّةَ مرّاتٍ أن يذهب عن هنا، وأطاعها باتخاذ قرار واعٍ بالذهاب، لكن فعله اللاواعي كان عكس قرارِه؛ فقد طار في خطٍّ مستقيم تجاه العجوز المُتبوِّل، وأمسكه من مؤخِّرة عنق قميصه وابتعد به، وقبضت يدا السيد جزرة على الفراغ في آخر لحظة.

ندم فورًا على فعلته، لعن نفسه ولعن الرجل الذي يجرُّه خلفه، ولعن رجال الدورية الثلاثة الذين انطلقوا خلفهم مُوجِّهين لهم السِّباب وطلبات الدعم لأجهزة اللاسلكي. أي غباء هذا الذي بدر منه؟ أيُكرِّر ما حدث في نهاية المباراة المشؤومة؟ ولأجل من؟ لأجل متشرِّد ثَمِلٍ أو مسطول لا يستطيع التوقُّفَ عن الضحك في موقف بمثل هذه الخطورة؟ قالت غريزته التي تشدُّ في شعرها غيظًا "اتركه إذًا واذهب"، لا، تَرْكُهُ سيجعل فِعلَته بلا معنى، ولن يتركه حينها طيور الظلام ليهرب. إن كان تورَّط في حماقة، فليُكمِلْها للنهاية، والرجل خفيف جدًّا على أي حال، لا يُمثِّل عائقًا كبيرًا في المطاردة.

طار في خطٍّ مستقيم ساحِبًا العجوز الضاحك الذي يترك خلفه أثرًا من اللعاب وإفرازات أخرى، ووراءهم يطير حثيثًا أمناء الشرطة الثلاثة. انخفض حتى ارتفاع ثلاثة طوابق، صار ينعطف مع كل شارع جانبي يقابله أملًا في تشتيت مطارديه، قابل شوارِعَ مسدودةً أكثر من مرّة اضطرّته للطيران لأعلى حتى يتجاوز العائق ويعود للانخفاض. كاد يُضلِّلهم عدّة مرات،

لكـن غيظهـم منحهـم سُرعـةً وخِفَّـةً لا توجـد لديهـم في الظـروف العاديـة.

إن أمسـكوه هـذا المرة، فلـن يكتفـي المُحقِّقـون بسـؤاله عـن علاقتـه بأشـبال النـوارس ثـم يطلقـون سراحـه بعـد أسـابيع، بـل سـيختفي تمامًـا، ربمـا لـن يـرى الشـارع مـرَّةً أخـرى مثلـما قـال الضابـط يـوم الإفـراج عنـه وزملائـه. بـدأ يشـعر بالتعـب، صـار أبطـأ وأثقـل، لـن يتحمَّـل هـذه المطـاردة طويـلًا، والدعـم الـذي طلبـه طيـور الظـلام في الطريـق دون شَـكٍّ. كان عليـه أن يسـتمع لغريزتـه مـن البدايـة. هـل رآه السـيد جـزرة؟ لـو تعـرَّف عليـه، فـلا جـدوى مـن الهـروب؛ فالرجـل يعـرف هويتـه وبيتـه وأهلـه. تحسَّـس بيـده الحُـرَّة وشـاحه، وتأكَّـد مـن أنـه يغطِّـي وجهـه، هنـاك أمـل أنـه لم يعرفـه في الظـلام، عليـه أن يقـاوم ويهـرب، جَـزَّ عـلى أسـنانه واسـتجمع قوتـه وحـاول الإسراع.

"بسسسسسسست".

جـاء الصـوت مـن مدخـل شـارع جانبـي، مصـدره شـاب طائـر في ملابـس سـوداء، واحـد مـن الاثنـين اللَّذيْـن رآهـما قبـل قليـل. لم يفكِّـر؛ طـار داخِـلًا الشـارع، الشـاب كان واقفًـا بجـوار نافـذة مفتوحـة لشـقَّةٍ مُظلِمَـة، مـن داخـل الشـقة جـاءت إشـارة ضوئيـة ضعيفـة مصدرهـا كشَّـافٌ رخيـص، فَهِـمَ أنهـا تدعـوه، دخـل مـن النافـذة حامِـلًا الرجـل، ارتطـم كلاهـما بـأرضٍ يُغطِّيهـا سـجَّادٌ مَنزليٌّ خَشِـن. تـأوَّه وليـد بصـوت مسـموع، صـوت نسـائي حـازم همـس "هششششـش"، صمـت فـورًا، لكـن العجـوز كان يضحـك دون توقُّف،

كتم وليد ضحكته بيده، ولم يقاوم الرجل. من النافذة المفتوحة دخل ذلك الذي ناداه قبل ثوانٍ، وأغلق النافذة خلفه.

ساد الصمت لثوانٍ مضت كساعات، سُمِعَت أصوات طيور الظلام تلعن الفتى الذي اختفى، قال واحد من رجال الدورية إنه يظنُّهم ذهبوا من هذا الاتجاه، ابتعدت الأصوات مرة أخرى. رقد وليد ثابتًا كحجر، متحفِّزًا كنمر: هل نجا من مُطارديه أم وقع في فخٍّ أَلعَنَ؟ مَن الذين أنقذوه؟ ولماذا؟ أين هو الآن؟ عَطِبَت بوصلته بعدما خرج عن مساره ولم يَعُدْ يشعر بالأمان. شعر بلعاب الرجل يسيل على يده، وشعر بالتقزُّز، سمع أنفاسه الثقيلة تنبئ عن أنه نام أو فقد الوعي. رفع يده ومسحها في ملابسه.

انفتح النور، انطلقت صرخة أنثوية، انطفأ النور، قال صوت ذكوري "فيه إيه يا عزَّة؟"، قال الصوت الأنثوي مرتبكًا "الراجل العجوز... بنطلونه... مش مقفول كويس".

لم يستطِع وليد كَبْحَ ضحكة متوتِّرة مبتورة، خلع وشاحه وألقاه على ما خمَّن أنه الجزء السفلي من الرجل، مُحاذِرًا أن تلمس يده ما قد يجعله يبترها من فرط التقزُّز لاحقًا. قال بصوت مبحوح: "ممكن تفتحي النور دلوقت".

12.3

"عم عبسميع؟ اصحى ياعم عبسميع".

شعر بِيَدٍ تهزُّ رأسه برفق وتربِّت على خده، فتح عينيه. في البداية لم يدرك أين هو الآن، ثم مَيَّز الشاب الذي يوقظه، إنه الفتى الذي يتفاخر طوال الوقت بأنه يلعب الكرة في فريق أبو قير للأسمدة، ماذا كان اسمه؟ محمد أو محمود تقريبًا.

"بتعمل إيه هنا يا عمِّي؟ الدنيا مقلوبة عليك برَّه".

أدرك أنه في مدخل العمارة التي يقطن فيها الشاب، يعرفه ويعرف أباه، وعرف -حتَّى- جدَّه المتوفى، إنهم من سُكَّان الحي القدامى. رفع رأسه ونظر حوله، وجد أنه مُمدَّدٌ على الأرض.

"الشرطة جت سألت عليك، بيقولو إنك طرطرت على دورية طيران امبارح، إنت عملت كده بجد؟ يا دين أمِّي! هات إيدك، قوم اتعدل واسند ضهرك. رايح فين بس؟ بيتك إيه اللي تروحه دلوقتي، بقول لك مستنِّينَك هناك، أنا لو مكانك أشوف لي حتَّة تانية أروحها. إنت إيه اللي جابك هنا بس؟ استنَّى حروح أجيب لك كرسي بعجل. صحيح يا عم عبسميع، بيقولوا كان فيه عيِّل كده لابس اسود هو اللي لِحْقَك من بين إيدين البوليس وهرَّبك منهم. مين الواد ده؟ تعرفه؟".

13

الإغواء الأخير لأبلة عزة

13.1

"حِداد؟".

لها أكثر من ثمانية عشر شهرًا تخرج على الهواء بمعدَّلٍ شبه مُنتَظِم مع عمرو الشربيني في برنامجه، ومع ذلك، ما زال صوته الجهوري ذو لكنَةِ تُجَّار سوق الخُضار يثير اشمئزاز د. منال وتَحَفُّظَها تجاهه. متى ستعتاد عليه دون أن يَغمُرَها بالغَثَيان والرَّغبة في الهروب؟ عليها أن تفعل قريبًا، فمن دون الظهور الإعلامي ستخسر تدفُّقَ المَرْضَى وطالبي الاستشارة على عيادتها، إضافةً إلى أن أسلوبه السوقيّ يُبرز بشدَّة أسلوبَها الأكاديميَّ

ولُغتَها الرَّاقِيَة وجَمالَها الأرستقراطي. ازدردَت لُعابَها، قبَضَت على خُصلَةٍ هارِبَةٍ من شَعرِها الأشقر وخبَّأتها خلف أذنها، أجابت عن سؤاله: "أيوه طبعًا حِداد يا أستاذ عمرو. لَطالما كان اللون الأسود في غالبية ثقافات العالم وحضاراته رمزًا للحِداد، مش بس حِداد على الموتى، وإنما ساعات بيكون حِداد على رمز أو فكرة أو حلم، حِداد على هزيمة، وهُمَّ انهزموا قبل كده شر هزيمة. وبعدين فيه عنصر مهم جدًّا آخر قد يكون من أسباب اختيارهم للتحوُّل للبس الملابس السودا".

"عنصر إيه يا دكتورة؟"، "الانتقام يا أستاذ عمرو"، رفع المذيع حاجِبَيْه، وتراجع إلى الخلف في تعبيرٍ مُبالَغٍ فيه عن الدَّهشة والذُّهول "الانتقام؟"، "طبعًا الانتقام يا أستاذ عمرو".

ارتشَفَت جرعة من الماء، تابعت.

"لازم دايمًا نحطّ في اعتبارنا إن دول مجموعة من المؤمنين بفكرة خطيرة، مجنونة، والإرهابي المؤمن بفكرة بيكون أخطر مليون مرة من المجرم اللي دافْعُه مكسب مادي مثلًا. كلنا فاكرين ظهورهم الأول السنة اللي فاتت كان دموي قد إيه، ولولا وقوف الشرطة قُدَّامهم كانت حتبقى مذبحة. من هنا نقدر نفهم ليه أول ظهور ليهم بعد السكون ده كله، استهدف دورية شرطة. هُمَّا مقتنعين إن الحكومة بتحارب إلَههم الصَّقر أو النسر...".

"النورس يا دكتورة".

"أيًّا كان، مقتنعين أن الحكومة بتحارب إلههم ذات نفسه، بالتالي هُمَّا مستعدِّين يِضحُّوا بحياتهم عشان الانتقام للإله ونصره".

"يعني إنتي شايفة إن البيبِّي -لا مؤاخذة!- الِّلي عملوه على أفراد الأمن ده انتقام؟".

جَفَلَت. رغم استخدامه للَّفظَة المُهذَّبة (بيبِّي) بدلًا من الكلمة التي تَعْلَم أنَّه يُفضِّلها (طرطرة)، فإنها خرَجَت من فمه قَذِرَة مُقرِفَة كالفعل ذاته، حتى كادت تشمُّ رائحته. أفلت تعبيرُ الامتعاض على وجهها لثانية، ثم تمالَكَت نفسها.

"مش انتقام، رمز للانتقام. زمانهم دلوقت بيحتفلوا في مقرَّاتهم السِّرِّيَّة بانتصارهم الرمزي الأول على الشرطة، لكن كلهم عارفين إن ده مش انتقام كامل، في النهاية هجوم 10 أفراد من أتباع الـ..نورس على دورية شرطة مكوَّنة من 3 أفراد وضربهم، وارتكاب الفعل المُشين اللي حضرتك ذكرته، ده رمز للانتقام، ونوع من إعلان نِيَّة شروعهم في القيام بأفعال انتقامية حقيقية".

"ده كلام خطير جدًّا يا دكتورة".

"خطير فعلًا، محدِّش يقدر يِخمِّن الخطوة الجايَّة للناس دي، ربما تفجير إرهابي أو خطف عنصر أمني وإيذاؤه، أي شيء ممكن. لكن فيه شيء واحد أكيد حيكون جزء من أي فعل يرتكبوه: الطيران"، "الطيران!"، "الطيران"، "أحِّيه!". احمرَّت وجنتاها.

"على كده احنا نحمد ربنا بقى على تطبيق حظر طيران في اسكندرية".

"الحمد لله طبعًا".

"الحمد لله".

13.2

بعد فاصل إعلاني طويل عاد البرنامج مع تقرير خارجيٍّ تقوم به مذيعة شابَّة مُتحمِّسة؛ تمضي في شوارع الإسكندرية حاملة ميكروفون يزيِّنه شعار البرنامج. استوقفَت عددًا من المواطنين في حي باكوس، سألَتهم عن رأيهم في الاستنفار الأمني في شوارع المدينة ورفع حالة التأهُّب وتمديد حالة الطوارئ. من بينهم كان المواطن الذي عرَّفه الشريط التعريفي أسفل الشاشة بـ "محمود صبري- موظف في السجل المدني". قال محمود: "النوارس الملاعين دول عايزين مِنّنا إيه تاني؟ حسبي الله ونعم الوكيل! ما يسيبونا في حالنا بقى؟ ناقص يدخلوا بيوتنا يولَّعوا في سرايرنا ويموِّتوا عيالنا. والله يا أستاذة، يمين بالله وما ليكي عليَّا حلفان! إحنا مابنعرفش ننام من الرعب في بيوتنا، إلَّا لما نسمع صوت دوريات حفظ السما قريبة. بالغ الشكر لرجال الشرطة الأفاضل ومجهودهم في حمايتنا، مش عارف أوفِّيكم شكركم إزاي".

بجواره، كانت تقف سيدة تبدو في الغالب قرينَتَه، تَهزُّ رأسها بعد كل جملة تصدر منه مؤيِّدة، هامِسَة "آه والله، آه والله".

13.3

كان "محمد محمد محمد أحمد" يطير مرَّةً أو اثنتين في الأسبوع، في الليالي التي لا يعقبها تمرينٌ مُبكِّر في ناديه، حيث يلعب حارس مرمى. يكاد يكمل عامه الخامِسَ في نادي أبو قير للأسمدة، ولا يزال الحارِسَ الثالث منذ انضمامه للنادي عندما كان في الثامنة عشرة. بعده ضَمَّ النادي أكثر من حارس مرمى، منهم مَن صار الثاني والأول، وما زال محمد الحارس الثالث. لكن هذا لم يَحُطَّ من تفاؤله؛ يؤمن بأنه في حاجة إلى مباراة واحدة فقط يلعبها كاملة، مباراة تُظهر موهبته الاستثنائية كحارس مرمى فريد، بعدها لن يَجِدَ أيُّ مدرب بُدًّا من أن يرفعه إلى مركز الحارس الأول، وربما تلتقطه عين أهلاوية أو زملكاوية؛ فتتغيَّر حياته إلى الأبد. يُعلِّق والده "محمد محمد أحمد محمد" الذي أقعده السُّكَّري وتقلُّبات ضغط الدم، على أحلام ابنه قائلًا: "يا موهوم يا ابن الموهومة!"، فيجيب الابن بصدر رَحْب: "الله يرحمها، كانت موهومة فعلًا لما اتجوِّزتَك يا حاج". لا يرضى الحاج عن هَوَس ابنه بالكرة، وعدم اتخاذه مِهنَةً ثابتة يعيش منها كما يفعل الرجال. لكنه سمع إشاعة لا يذكر مصدرها أن شركة أبو قير للأسمدة تؤمِّن وظيفةً للّاعبين

المستمرِّين في ناديها حتى اعتزالهم. فكان يدعو الله ليلًا ونهارًا أن ينال ابنه واحدة.

كان "محمد محمد" يطير مرَّةً أو اثنتين في الأسبوع، بعد تأكُّده من نوم والده وانطفاء الأضواء خلف نوافذ الجيران. يضع ملابس قاتمة ويغطي وجهه ويحتضن الليل، باحثًا عن النشوة التي لا يعرف لها مثيلًا. قبل الطيران كان يجد مُتعَتَه في إطلاق العنان لدرَّاجته في طريق البحر ليلًا، بين السيارات المُسرِعة، ورذاذ البحر المتقلِّب، ورياح الشتاء الباردة. عاد إلى الدَّرَّاجة بعد الحظر، لكن هذه لم تَعُد مُمتِعَةً مثلما كانت، نشوتها كانت ناقِصَة، كممارسة الجنس دون الوصول إلى ذُروَةٍ، ولكن بما أن محمد لم يمارس الجنس من قبل، ولن يفعل أبدًا؛ نظرًا إلى النهاية الحزينة التي ستؤول إليها حكايته. كان ركوب الدراجات بالنسبة إليه بعد الحظر مُتعَةً ناقصة من دون تشبيه مناسب؛ لذا لم يقدر علىٰ الالتزام بالحظر أكثرَ من شهرين، وقفز من نافذته ذات ليلة.

كان محمد محمد يطير مرَّةً أو اثنتين في الأسبوع، سارِقًا من الحلوى ما يستطيع، مُحاذِرًا ترك ما قد يقود إليه من آثار. ويقضي بقية أيامه مواطِنًا صالحًا شريفًا كالجميع. لم يشعر قطُّ بأن في الحظر ظُلمًا خاصًّا، ولم يؤيِّده أيضًا أو يرفع رايته. إنه ببساطة لا يهتم؛ لا يجد في نفسه ميلًا للاهتمام بما يجري خارج نطاق حياته الخاصة، وما يحدث مع أهله وأصدقائه القريبين، ليحدث ما يحدث ما دام بعيدًا عنهم، وإذا أصابه ومن يهتم بهم صدى ممَّا يحدث بالخارج؛ يحني رأسه ما استطاع،

ويحاول تفادي الاصطدام مع أي شخص أو فكرة. الكل على حقٍّ، أو الكل على باطل، لا يهمّ، لا فارق، بالتوفيق للجميع. سيظل يفعل ما يحب ما استطاع إليه سبيلًا، بقدر معقول دون جذبٍ للأنظار.

كان محمد محمد يطير مرَّةً أو اثنتين في الأسبوع، وحيدًا، إلى أن ضبطته أختُه الكبرى "عزة" ذات ليل متلبِّسًا بالشروع في القفز من النافذة.

مثل محمود زوجها موظَّف السجل المدني، كانت عَزَّة مواطِنَةً شريفة مثالية مُناهِضَة للطيران. تعلن هذا بمناسبة ودون مناسبة منذ فرض الحظر. لم تسمح لنفسها أو لطفلَتَيْها بهُنَيهَةِ طيرانٍ واحدة منذ ذلك الحين، وبطَّنَت حقائبهن المدرسية بأثقال معدنية تَقيهم شَرَّ الخِفَّة، مثلما تلتزم وزوجها بارتداء سلاسل القدم المُقَرقعَة في كل مكان. وكانت تحرص على غرس قناعاتها الوطنية والدينية في عقول تلاميذها، طُلَّاب الصف الرابع الابتدائي، والتي تُدرِّسهم الدراسات الاجتماعية؛ ربما لم تصل إلى المناهج بعدُ حكايَةُ مَوقِعَةِ محطَّة الرمل ومواجهة أمن المدينة مع عبَدة النورس، لكنها حاضِرَة -وبِشدَّة- في العقول، وإن لم تَقُمْ بدورها كمُربِّية أجيال في توضيح الحقائق ووأد الأكاذيب في مَهْدِها؛ فهي مثلها مثل مَن يُشارِك في زعزعة وقلقلة أمن البلاد -والعياذ بالله!- بنفسه.

قالت الأخت الكبرى: "يا نهار أسود!"، ولطمت خدَّيها "بتعمل إيه عندك يا زفت الطين؟". دخل من النافذة "آسف

والله! حَقَّك عليَّا يا عزة، آخر مرة والله"، "آخر مرة! يعني كان في مرة أولى وتانية؟"، "والله دي كانت أول مرة وآخر مرة، والله ما بطير يا عزة، وطّي صوتك والنبي لا حد يسمعنا"، "يقول إيه أبوك العيّان لو عرف إن ابنه بيطير زي الكُفّار؟ ده قلبه يقف فيها! عايز تموِّت أبوك يا حمادة؟"، "والله أبدًا يا عزة، ورحمة أمي أبدًا، آخر مرة والله".

رغم ما أبداه من ندم، وما سال من عينيها من دموع، لم يَفُتْه أن يلاحظ نظرتَها التي لا تنفكُّ تعود إلى النافذة المفتوحة، تسرح في ظُلمَة السماء لثوانٍ، قبل أن تنتبه، فتعود إلى تقريع كلِّ خليَةٍ في جسد الأخ المنحرف. يعرف نظرتها تلك جيدًا، لَطالما رآها تنظرها لصينية المكرونة بالبشاميل الساخنة عندما كانت تخضع لنظامٍ غذائيٍّ صارم لتفقد الوزن قبيل زواجها. لم يكن مَوقِفُها من الطيران دومًا بهذا السوء، بل كانت قبل الحظر عصفورةً. قلَّما رآها أحدهم على الأرض، وقلَّما ذهبت عنها ابتسامتها. ثم حُظِرَ الطيرانُ، ومعه الابتسامات كلها، والتزمت بالأرض مع الملتزمين. لكنه يعرف أخته جيدًا، يعرف أنها في النهاية، مهما طالت مقاومتها، تأكل البشاميل.

في خِضَمِّ الدراما انسلَّ حارس مرمى فريق أبو قير للأسمدة الثالث من بين يدي أخته، وقفز في حركة استعراضية من نافذة الطابق العاشر، تتبعه شهقات أخته. همست مناديةً اسمَه في غيظٍ، دون أن تجرؤ على النداء بصوت مسموع قد يُنبِّه الآخرين ويفضحهم. عضَّت على أناملها، تعهَّدَت لنفسها بأنها ستجعل هذا الوغد يرى ألعن لحظات حياته عندما يعود.

وتدلَّت رأسها من النافذة تتقلَّب يمينًا ويسارًا بحثًا عن أخيها الطائر، والنسمات الباردة تداعب وجناتها البَضَّة وما أفلت من طرحتها من خصلات سوداء، وقلبها يخفق.

عاد بعد دقائق مُتعرِّقًا لاهثًا، دفعها برفق جانبًا لتُفسِحَ مكانًا، وجلس على طرف النافذة المفتوحة. لم تَنْبَس بحرف، وجعلت شفتاها ترتعشان غيظًا وعيناها تلتهبان غضبًا، نظر إليها مبتسمًا، فأشاحت بعينيها. بَقِيَا على هذا الوضع الصامت دقيقةً، ثم مَدَّ يدًا مفرودة في دعوة صامتة للمشاركة في الرقص، وأعطته يدها.

طارت عزَّة في هذه الليلة مع أخيها لساعة كاملة في دوائر حول البيت، وبعدما عادت، بنفَس مقطوع وصخرة ذَنب عملاقة استقرَّت على ظهرها، أقسمت أنها لن تفعل مرة أخرى، وعلى محمد ألَّا يفعل أيضًا "ولو جِبْت سيرة لأي مخلوق باللِّي حصل، حمَوِّتَك". فمرَّر إصبعه على فمه المُغلَق وكأنه يقفل سحَّابًا، ليعود إلى الطيران وحيدًا في الليالي اللاحقة، وتصرَّفَت عزة وكأن شيئًا لم يكن.

ثم بعد ثلاثة أسابيع، عندما جاءت عزة في ساعة متأخِّرَة بحجَّة الاطمئنان على الأب النائم، عرف محمد من وشاحها وملابسها السوداء وحقيبة الظهر المنتفخة بالسندوتشات والعصير، أنه لن يطير وحيدًا هذه الليلة.

13.4

لم يفهم الزوج نوبات البكاء المفاجئة وشرود الذهن الدائم ونظرات الحزن غير المبرَّرة في وجه زوجته في تلك الفترة، عَزَا كل تلك التغيُّرات إلى الهرمونات الأنثوية، ذلك الشيء الغامض الذي لم يفهمه، ولن يحاول أن يفعل. ما دام يعود فيجد طعامًا على المائدة، وما دامت لا تصدُّه عندما يَقرُبُها، ليكن فيها ما يكون. عزة ذكيَّة وبنت حلال، وستتجاوز حتمًا ما تمرُّ به، أيًّا كان. وهو ما حدث بالفعل، ووجدت مُدرِّسة الدراسات الاجتماعية أخيرًا وسيلةً لتحييد الذَّنب الهائل الذي كان يَقُضُّ مَضْجَعَها. لم تتخَلَّ عن قناعتها الراسخة بفداحَةِ جُرمِ الطيران وسوء عاقبته، كان الطيران -ولا يزال- أسوأَ لَعنَةٍ أصابت الناس، ولا يزال حَظرُه حائِطَ الدِّفاع الأول -وربما الوحيد- أمام شرور العالم كُلِّه، ولولاه لأصاب الناس كلَّهم هَمٌّ كبير. لكن طيرانها مع أخيها لساعة مسروقة من عمر الزمن مَرَّةً كُلَّ أسبوع أمرٌ لا يَضرُّ أحدًا، ولا يساعد النوارس الكُفَّارَ أبدًا، ولن يحيي قضيتهم الكافرة الميِّتة بأي شكل. نعم؛ الطيران شَرٌّ، لكن ما دام لم يعرف أحد، ولم يتأذَّ آخر؛ لا بأس من قضمة أو اثنتين من التفاحة المحرَّمة أحيانًا.

وهكذا، عرفت الابتسامةُ القديمة طريقَها إلى ثغر المُعلِّمة.

13.5

"آه، ضهري! الوَقفَة في المدرسة طول النهار خلّتني مش قادرة"، "ارتاحي، معلّش!"، "خلّينا نرجع، مش قادرة أطير أكتر من كده".

بخيبة أمل أطاعها، وطارا متمهِّلَيْن كي لا يؤذي الطيرانُ السَّريعُ ظَهرَها. لم تُلقِ بالًا للفتى المُلثَّم الذي مَرّا به، وتابَعَه أخوها في فضول.

بالقرب من البيت، شَهِدا جارهما القعيد المتسوِّلَ يتبول على دورية الطيران، وحَثَّت عزة أخاها على الإسراع في الابتعاد عن المشهد المقرف الذي سيتطوَّر حتمًا إلى ما هو أسوأ. ارتفعا حثيثًا في الظِّلال، قاصِدَيْن شقَّتهما العالية، دون أن يحيدا ببصرهما عن الواقعة بالأسفل، وسرعان ما شهِدَا التَّدخُّلَ المفاجئ للمُلثَّم ذي الملابس السوداء، وإنقاذه المتسوِّلَ من قبضة رجال الدورية.

فتحت نافذة بيتهما نصفَ المُغلَقَة من الخارج، جذبت ذراع محمد لتحثَّه على الدخول والابتعاد، لكنها كانت مشدوهةً مثله؛ لا تستطيع التوقُّفَ عن متابعة المطاردة الجارية بالقرب منهم. فجأة، حملها أخوها في حركة حادَّة، وطار بها داخل البيت. ما إن دخلا حتى اندفع تجاه خزانة في جانب الغرفة؛ انتزع منها كشّافًا كهربيًّا صغيرًا، وضعه في يدها، وطار خارجًا. ظلَّت مُتجمِّدَةً حيث هي؛ لا تَجسُرُ على الخروج خلفه،

لا تـدري مـاذا تفعـل، زاد الرعـب في قلبهـا مـع اقـتراب أصـوات المطـاردة وصيـاح رجـال الدوريـة. ثـم دخـل أخوهـا مـن النافـذة، همـس "ولِّعي الكشّـاف"، فعلـت دون تفكـير، وبسرعـة دخـل مـن النافـذة الفتـى الملثَّـم حامِـلًا المتسـوِّلَ العجـوز، ووَقَعَـا عـلى الأرض. انطفـأ الكشَّـاف، أغلـق أخوهـا النافـذة، عرفـت عـزَّة أنهـا تورَّطَـت دون رَجعَـةٍ.

بعـد إضـاءة النـور للمـرة الثانيـة، اندهشـت مـن صِغَـرِ سِـنِّ الفتـى الـذي لم يَعُـدْ مُلثَّـمًا، كيـف تصـدر مـن صغـير لم يَنبُـت شـارِبُه مثـل هـذه التصرفـات؟ مثـل هـذه الشـجاعة؟ كان محمـد يبـدو مثـل مراهِقَـةٍ قابَلَـت لِتوِّهـا مُطرِبَهـا المُفضَّـلَ. أمَّـا الفتـى، فنهـض بحـذر، ناقِـلًا نظراتـه بـين الشـقيقين، بـدا كمُجـرِمٍ مُحـاصَرٍ في فيلـم حركـة يَضـعُ خُطَّـةً للهـروب.

"أنا محمد محمد، حارس مرمى في نادي أبو قير للأسمدة".

تلقَّـى الفتـى اليـد الممـدودة وصافحهـا دون أن ينبـس ببنـت شَـفَة، تجاهـل محمـد نظـرة أختـه الغاضبـة وتابـع "وأنـت؟". ببـطء، كَمَـن يحـصي كلماتِـه ويَزِنُهـا، أجـاب: "مـش مهـم. شـكرًا عـلى الإنقـاذ؛ كان زمـاني مقبـوض عليَّـا". "العفـو، قـل لي بـس، اسـمك ايـه؟ وبتطـير مـن إمتـى؟ لوحـدك والّـا معـاك حـد؟ خلِّيـني أطـير معـاك". ردَّ الفتـى عـلى تسـاؤلات محمـد بابتسـامة متوتِّـرة، ارتطمـت عينـه بعينَـيْ عـزة، التـي كانـت تتنقَّـل بـين جسـد القعيـد عـلى الأرض وبينـه، وجَّـه إليهـا حديثَـه: "أنـا ماعرفهـوش، أنـا شُـفتُه وهـوَّ بـ....."، تـردَّد في إيجـاد تعبـير مناسـب، هَزَّت رأسـها في إيمـاءةِ مَـن يعـرف مـا يقصـد ويرجـوه ألَّا يقولـه، تابـع: "كانـوا

حيقبضوا عليـه، يمكـن يسـتحق يتعاقـب، بـس... بـس لـو خـدوه مش حيتعاقـب عـلى قـد الـلي عملـه، حـيروح خالـص". "ده عـم عَبْسميع، أنـا عارفـه، شـحّات الصُّبـح ومسـطول بالليـل، بـس راجـل طيب في حالـه، مايسـتاهلش الأذيّـة". "أنـا عايـز أمـشي"، انكـسر جمودهـا أخـيراً، قالـت "يـا ريـت! اتفضَّـل أرجـوك". "لأ، اسـتنّى بس شـوية، زمانهـم بـرَّه بيـدوَّروا عليـك"، قـال بينـما يخلـع سُـترتَه "مَحدِّش حيِهتَـمّ بِعيِّـل صغـير مـاشي عـلى رجلـه لوحـده".

راقَبَتـه يَقْلِـب السُّـترة عـلى وجههـا الداخـلي أخـضرِ اللَّـون، ودَّت لـو تخـبره أنـه ليـس "عيِّـل صغـير"؛ لا يوجـد عيِّـل بهـذه الشـجاعة، لكنهـا لم تفعـل. مـن الأفضـل أن يذهـب لينتهـي معـه هـذا الموقـف. "خُـدُه معـاك" وأشـارت إلى القعيـد الغـافي. تَـردَّد: "بـس... أنـا معرفهـوش، ماعرفـش حعمـل بيـه إيـه"، "ماليـش دعوة، اتـصرَّف"، "مـش مهـم، أنـا حتـصرَّف، ماتقلقيـش يـا عـزة"، صوَّبَـت نحو أخيهـا كلَّ غضـب الدنيـا في نظـرة، هَـزَّ الفتـى رأسـه وهمـس: "شـكرًا"، قالـت في صرخـة مكتومـة: "اتفضَّـل بَـرَّه"، وأشـارت إلى بـاب الشـقة في آخـر الـرواق.

هَـروَلَ الفتـى تجـاه البـاب بوجـهٍ غَـزاه الاحمـرارُ، خلفـه اندفـع محمـد "اسـتنّى طيِّـب حَوَصَّلَـك"، "محمـد، اقعـد يـا زِفـت". فتـح البـاب، خـرج منـه الفتـى وهبـط السُّـلَّمَ جَريًـا عـلى قدمـه، "اسـتنّى بـس انْـزِل بالأسانسـير"، "شـكرًا، أنـا تمـام"، "قُـل لي طيِّـب إسـمك إيـه، هـات رقـم تليفونـك، أي حاجـة"، وعندمـا لم يُجِبْـه الفتـى الـذي وصـل بالفعـل إلى الطابـق الأول، صـاح "طَـب آديـك عِرِفـت أنـا سـاكن فـين، تعـالى قابِلنـي لـو غَـيِّرت رأيـك".

14

مُواطِنونَ شُرَفاء

14.1

مَرَّ أكثر من ثلاثة أشهر على الواقعة.

لا أحد بوسعه الجزم إن كان السيد جزرة نسي بالفعل أم تناسى أحداث الواقعة. حتى رفيقاه، اللذان كانا برفقته عندما جاءت الدورية الداعِمة لتسألهما عمَّا حدث، بعد اختفاء الفتى والقعيد، وكانت رائحة البول لا تزال تفوح من ثلاثتهم، ظَلَّا يشعران بالدهشة من الصدق والإخلاص والإيمان الذي يحكي بهم السيد عن ذوي العباءات السود العشرة الذين انهالوا عليهم ضربًا، رغم مقاومتهم الشجاعة، وقَيَّدوهم حتى يتمكَّن

قائدهـم مبتـور السـاقَيْن مـن ارتـكاب فعلتـه المُشـينَة. لم تمنعهـم الدهشـة مـن التأمـين عـلى حكايتـه حفظًـا لمـاء الوجـه.

وَدَّ الرفيقـان لـو تمـضي الحكايـة بسرعـة إلى النسـيان، لكـن وضـع الأمـين سـيد كواحـد مـن أبطـال مَوقِعَـة محطـة الرمـل (الـكل يذكـر كيـف كاد يفقـد حياتَـه عندمـا أطلـق عليـه النـوارس الرصـاض، وكيـف تفـادى طلقاتهـم واصطـاد منهـم ثلاثـة بيـده العاريـة) جعـل صـدى الواقعـة في الـوزارة دويًّـا.

لم تكـن هـذه مجـرَّدَ حادثـة فرديَّـةٍ، وإنمـا خطـة مُمَنهَجَـة لإهانـة الـوزارة كلهـا، وهـذا مـا شـعر بـه جميـع أفرادهـا، وأقسـموا عـلى رَدِّ الصـاع صاعَـيْن لأفـراد النـوارس، بـل عـشرة صيعـان أو أصـواع، أيًّـا كان جمـع "صـاع" وأيًّـا كان معناهـا. وسرعـان مـا عَـمَّ شـعورُ أفـراد الـوزارة الوَطَـنَ كُلَّـه، بعدمـا خـرج السـيد جـزرة ورفيقـاه في جولـة شـملت كل البرامـج التليفزيونيـة الوطنيـة الحواريـة، وحـكى حكايتـه مـرارًا، وأمَّـن رفيقـاه عليهـا تكـرارًا، في كل مـرة يـزداد ذهولهـم مـن إخلاصـه المُذهِـل وإيمانـه الصـادق بـكل حـرف يقـول. ولكـن شـعور المواطـن العـادي، رجـل الشـارع المتوسِّـط الشريـف، سرعـان مـا تطـوَّر مـن الإهانـة إلى الرعـب، بعدمـا أدرك أن عـودة النـوارس تعنـي عـودَةَ الإرهـاب. وصـار أهـل الوطـن -سـواء كانـوا مـن سُـكَّان المدينـة المنكوبـة أو غيرهـا- ينتظـرون طـوال الوقـت خـروج ذوي العبـاءات السـوداء مـن أيِّ رُكـنٍ مُظلِـمٍ لنـشر الرعـب والفـزع وقلقلـة الأمـن وزعزعـة الأمـان، "إن كان ولاد الحـرام عملـوا كـده في بطـل زي الأمـين سـيد، حيعملـوا فينـا إيـه؟".

تَضاعَفَ عدد دوريات حِفظ السماء الليلية؛ لم تَعُد الدوريات نُزهَةً مُمتِعَةً لأفرادها مثلما كانت في العام السابق، بل حملاتِ صَيدٍ شَرِسَةً، هَدَفُها استعادة السيطرة المسلوبة على السماء. الروح الجديدة التي انتشرت بينهم جعلت العيون أكثر تأهُّبًا، والقلوب تفيض بالغضب والرغبة في الانتقام؛ ما جعلهم يرون في الظلال ما كانوا يغفلون عنه من قبل. وفي خلال شهور اعْتُقِلَ العَشرات من النوارس الذين كانوا يحومون في الظلال ليلًا مُتخفِّين عن العيون، اعترفوا جميعًا -بفضل مهارات المستَجوِبين الاستثنائية- بانتمائهم للنوارس، وبعشرات المُخطَّطات الإرهابية التي كانت تهدف لنشر الرعب بين المواطنين، واعترف منهم ما يربو على الأربعين فردًا بأنهم من العشرة المشاركين في واقعة التَّبوُّل على رجال الدورية، منهم ثلاثة من ذوي السيقان المبتورة.

وخرج اللواء أشرف المنتصر، مساعد وزير الداخلية لشؤون الطيران، في مؤتمر صحفيٍّ مُعلِنًا بدء العمل في إقامة سجن خاص لمجرمي الطيران في شرق المدينة، بعد زيادة عددهم في السجون العادية ونشرهم الرعب والقلق بين المساجين الجنائيين، وإعاقتهم عملية إعادة تأهيل المُدانين للعودة إلى المجتمع.

لا أحد، ولا حتى كاتب هذه السطور، بوسعه الجَزمُ إن كان السيد جزرة نسي ما حدث بالفعل أم تناساه. لكن في المقابل لا أحد، ولا حتى كاتب هذه السطور، بوسعه التشكيك في أن الفضل كله يرجع إلى السيد جزرة في قَدحِ زناد تَسلسُلِ الأحداث، الذي أنقذ البلاد من المصير الوبيل الذي خطَّط له النوارس.

14.2

فسَّر أبو وليد اهتمامَ ابنه المباغت ببرامج الأخبار والصحف اليومية، واكفهرار وجهه الشديد الذي يتبع مشاهدته أو قراءته أيًّا منها، بأنه من قبيل الاتِّعاظ من سوء الخاتمة وبئس المصير الذي يصيب كُلَّ مَن اتَّبع سبيلَ الطيران والنورس، وأن حُسنَ تربيته لوليده جعلت منه شابًّا صالحًا يرى العِبرَةَ فيما أصاب الغير، ويدرك أن هذا المصير كان من الممكن أن يصبح مصيره لو لم يَعدِلْ عن طريق الشيطان الذي خطا فيه أولى خطواته عندما طار مع رفاق السوء في العام السابق. ولولا ستر الله، والرأفة في قلوب رجال الشرطة، وحُسن التربية بالطبع؛ لكان ابنه واحدًا من هؤلاء الملاعين الذين تملأ اعترافاتهم الشاشات. وصار ينهر زوجته عن محاولاتها إطعامَ الفتى الذي لا يأكل إلا لمامًا، ومحاولات استنطاقه عن سِرِّ ما أصابه من شحوبٍ ونحول وانكسار.

"سيبيه؛ لازم يتِّعِظ، بُكره حيهدا ويطلع من اللي هوَّ فيه لوحده".

مثله في ذلك مثل السيد محمود صبري، موظف السجل المدني، وقرين المُدرِّسة الفاضلة "عزة محمد". فبالرغم أنه لم يصل إلى تفسير منطقيٍّ مثل تفسير أبو وليد لعودة مزاج زوجته المتقلِّب بعد فترة استقرار، وأرقها الدائم واحمرار عينيها واسوداد ما حولها، ونوبات البكاء التي تنفجر دون مُقدِّمات

وتستمر لساعات، وإصرارها على مُضاعَفَة الأوزان المعدنية حول قدمها، وفي حقائب بناتها؛ فإنه تَيقَّن أنَّ تَدخُّلَه لن يعود عليه وعليها إلَّا بمزيد من "وجع الدماغ"، ستخرج مِمَّا هي فيه وحدها كما تفعل دائمًا، وسيتركها في حالها ما دامت لم تتهاون في حقوقه، وهو ما تأكَّد من إخباره لها بصراحة.

"أنا مش عارف فيكي إيه، ومش عايز أعرف، انتي بنت حلال وحتطلعي من الهَبَل اللي انتي فيه ده لوحدك. بس حِسَّك عينك ده يأثَّر على واجبك كزوجة وكأم".

14.3

"والله يا عَزَّة يا حبيبتي ما كان فيه حد تاني، كان هُوَّ بس الولد ده وعم عبسميع".

"لأ... كان فيه، أنا لمَّا قعدت افكَّر في اللي حصل، بدأت افتكر بقيَّة العشر نوارس اللي كانوا معاهم، مش عارفة ازَّاي احنا مخدناش بالنا ساعتها! إزاي سَحروا عيونَّا وماشوفناش الحقيقة!". "يا بنتي بلاش عَبَط، إحنا كُنَّا هناك وشفنا بنفسنا، واحد مسطول وعَيِّل صغير ولحقناهم من البهدلة". "لا يا محمد كانوا عشر نوارس، واحنا شاركنا في المصيبة دي، إحنا مسؤولين زيِّنا زَيُّهم. أنا مش عارفة أنام من يومها، إزَّاي أكون جزء في جريمة زي دي؟ إنت السبب يا محمد، إنت السبب".

"حَقِّك عَليَّا، أنا السبب، معلش. خلاص بقى ماتزَعَّليش نفسك، آدينا لا بنطير ولا بنتنيِّل أهو، حصل خير". "حصل خير ازَّاي بس؟ بقول لك لقوا قنبلة عند مدرسة البنات، وقتلوا واحد من يومين في الحضرة، النوارس ولَّعوا البلد". "عيب بقى، عيب بقى يا عزَّة، إنتي فعلًا بتصدَّقي الحاجات دي؟ عيب، ده انتي مُدرِّسة، المفروض تبقي ذكية"، "تصدَّق انت الِّلي عيِّل قليل الأدب ومش متربِّي؟"، "الله يسامحك".

"ولا يا محمَّا، إوعى تكون لسَّه بتطير!"، "والله أبدًا"، "مش مصدَّقاك، حاسَّاك بتطير وبتشتغلني"، "يا عزة ورحمة أُمِّي وأُمِّك أبدًا"، "طب والله أنا حاسَّة إنك بتطير، وشكلك بتمشي مع الواد إيَّاه والنوارس، قلبي حاسس إنك بتعمل مصيبة". "يا دين أمي بقى، والله أبدًا يا عزة، اهدِي بقى حرام عليكي، والواد الزِّفت إيَّاه ولا شُفته منَ ليلتها ولا أعرف اسمه. نوارس إيه اللي أمشي معاهم يا عزة؟ ما تحِلِّي عن نافوخي بقى الله يسترك".

"حاضِر، حَحِلّ عن نافوخك يا محمَّا. بس والنبي، وغلاوة أمك الله يرحمها، وغلاوتي وغلاوة أبوك عندك، والنبي ما تعمل حاجة تحرق بيها قلوبنا عليك، والنبي يا محمَّا خلينا ننام مطمنين". "والله يا حبيبتي ما فيه حاجة، حَقِّك عليَّا، ماتعيَّطيش والنبي، والله يا ست الكل لا طِرت ولا بطير من ليلتها، أنا أصلًا مش فاضي، ورايا تمارين".

ولم يكن كاذبًا.

14.4

عَزَفَ محمد بالفعل عن مغامرات الطيران الليلية منذ تلك الحادثة؛ فلم تَعُد في السماء بقعةٌ خالية من الدوريات. كان يشتاق للطيران، لكنه لا يشعر بالرغبة في التعرُّض للاعتقال. لكنَّ عدم رغبة المرء في شيء لا تعني عدم حدوثه بالضرورة.

إضافةً إلى أنه كان مشغولًا بالفعل مثلما قال لأخته؛ فالحارس الأول في الفريق مُصاب، والحارس الثاني لا يُقدِّم أفضلَ أداء مُمكِن في مباريات الدوري العام، وأمام الفريق مباراة مُهمَّة في ربع نهائي كأس مصر أمام فريق الاتحاد السكندري؛ الفريق المتربِّع في مُؤخِّرة جدول الدوري وعلى قِمَّة قلوب الشعب السكندري. يحتاج محمد إلى بذل أضعاف المجهود في التمرين لإبراز موهبته وأحقِّيَّته باللعب عن الحارس الثاني الأحمق، ربما عندها يضعه المدرب في التشكيلة الأساسية أمام الاتحاد، ربما حياته على وشك التغيُّر إلى الأبد.

بعد فشل اتحاد الكرة المصري في استصدار قانون من الفيفا يمنع الطيران في الملاعب، صدر قرارٌ مَحلِّيٌّ يمنع إقامة أيٍّ من المباريات الرسمية في الإسكندرية؛ وعليه سيلتقي الفريقان السكندريان في استاد القاهرة. لكن المَنعَ لم يَشمَل التدريبات؛ ما زالت تُقام في النوادي والملاعب المحلية مثلما كانت دائمًا. ولَيْتَه شَمِلَ، ربما حينها ما كانت الأعين لتنظر إلى ارتفاع مستوى محمد في التمارين باحِثَةً عن شبهة طيران، ربما

صدَّقوا أن قفزاته الرشيقة وحركاته البهلوانية نابِعَة من التزامٍ بالتمرين وموهبة أصيلة لا علاقة لها بالخلل الطبيعي الغامض في قوانين الجاذبية الأرضية السكندرية. ولكن الأعين المُتشكِّكة والنفوس القاتمة لم تُصدِّق، ولم يَطُل الوقت قبل أن تصل إلى شرطة الطيران مكالَمَة من مواطنٍ شَريفٍ بخصوص محمد.

لكن هذا البلاغ جاء في وقت تشبَّعَت فيه السجون بمساجين الطيران، وسجن اللواء المنتصر لم يُفتتح بعد، وتَحقَّق للشرطة وللمواطنين انتقامهم من النوارس بعد اعتراف الأفراد عَلنًا بجرائمهم، ووأد مخطَّطاتهم في مَهدِها؛ لذا لم تتحرَّك الشرطة فورًا في إثر حارس مرمى أبو قير للأسمدة الثالث، وإنما كَلَّف ضابِطٌ غير مُتحمِّسٍ أمينَ شرطةٍ كَسولًا بمراقبة الفتى. زار الأمينُ بيتَه وسأل عنه أحد الجيران، وبعدما أدرك أن الجار مواطِنٌ شريف نموذجيٌّ، طلب منه أن يُبقي عينيه مفتوحتين على محمد وآل بيته، ويبلغهم إذا ما صدر منه ما يخالف القانون، وكان الجار أكثر حماسًا من جهاز الشرطة كله.

عزف محمد عن مغامرات الطيران الليلية منذ تلك الحادثة، لكنه سمح لنفسه بساعة من التحليق على سبيل الاحتفال باختياره في التشكيلة الأساسية لمواجهة الاتحاد في مباراة الغد، فخرج ليلًا بملابسه القاتمة وروحه المنتشية، وعاد بعد ساعة ليجد أفراد الدورية في غرفته، واستقبلوه في أحضانهم مع دخوله من النافذة.

14.5

تحت طبقات الحنق الشديد الذي اعتراه، والعار الذي غمره وأسرته بعدما اكتشف أن أخا زوجته نورسٌ مُتخَفٍّ. كان محمود صبري في غاية الذهول من الثَّبات الانفعالي الذي تتنقَّل به زوجته بين المحامين الرافضين الدِّفاعَ عن أخيها في قضية مَيؤوسٍ منها، وبين المستشفى حيث يرقد أبوها الذي أنقذه الأطبَّاءُ بصعوبة من الجلطة التي أصابته بعد اعتقال ابنه، ليفيق منها بنصف جَسَدٍ مشلول، وروحٍ تَمنَّت لو لم تَعُد، وبين واجباتها المنزلية كزوجةٍ وأُمٍّ، وبين مَهمَّات عملها في المدرسة والدروس الخصوصية. ما زالت لا تنام ولا تبتسم، ولكن نوبات البكاء وتقلُّب المزاج اختفت، وكأنَّ كُلَّ شيء لم يكن.

قال على مائدة العشاء ذات ليلة:

"ساعات يا عزة بَحِسَّك كنتي عارفة إن أخوكي ماشي في سكَّة غلط وآخرته وحشة، ولما حصل له اللي حصل سلِّمتي أمرك لله، حاجة كده زي وقوع البَلا ولا انتظاره. ربنا يهديكي يا بنتي، ويهدي أخوكي، أنا كنت بحبُّه زي أخويا، بس اللي عمله ده حاجة لا ترضي ربنا ولا ترضي الناس، مش عارف أقول ربنا يخرَّجه بالسلامة، والَّلا ربنا يبعده عن طريقنا. استهدي بالله وماتفكَّريش في الموضوع كتير، ركِّزي في بيتك وعيالك، دول اللي باقيين لك، إنتي عاقلة وبنت حلال ومش بتاعة مشاكل. فيه رُزّ تاني؟ لو مفيش هاتي عيش، البامية حلوة ونفسي مفتوحة".

14.6

"ميس عزة" مُعلِّمة لا بأس بها، يحبُّها التلاميذ في الفصل والدرس الخصوصي على حَدٍّ سواء؛ بوسعها أن تكون لطيفةً ومُتساهِلَةً وطيِّبة، لكن عندها قاعدة واحدة لا تهاوُنَ فيها: إذا بدأ الشهر، لا تسمح لطالب بحضور الدرس الخصوصي دون دفع اشتراك الشهر الجديد؛ لهذا طردت سمير من الحصة في ذلك اليوم، وأمرته بألَّا يعود إلا ومعه الاشتراك الشهري.

عندما أخبر سمير والده بما قالته المُدرسة، أخبره "يا ابني أنا بقبض يوم 5، ماعييش فلوس"، "بس يا بابا الميس قالت..."، "يا أخي إن شا الله عن ديك أهلك ما اتعلِّمت"؛ ما جعل سمير مضطرًا للُّجوء إلى أقرب شخص ناضج يعرفه، عساه يُقنِع الـ "ميس" بأن تتجاوز مشكلته هذه المرة.

شاهد سمير ابنَ خالته من قبل في مواقف عِدَّة تُظهر حِكمَتَه وقدرته على التعامُل مع مواقف صعبة، لكن ما حدث يومها كان أكثر من مذهل. فما إن دخل قاعة الدرس بصحبة وليد، حتى تجمَّد وليد في مكانه ناظرًا إلى الميس نظرةً غريبة لم يفهمها سمير، وكأنه ضُبط متلبِّسًا بِجُرْمٍ شنيع، والأكثر غرابةً كان نظرة الميس له، كان بها مزيج مُعقَّدٌ من الكراهية الشديدة، وسعادة مَن وجد كنزًا أضاع عمره في البحث عنه. حائرًا نقَّل الطفل عينيه بينهما، ثم كَسَرَت المُعلِّمةُ الصَّمتَ قائِلَةً بصوتٍ حاسمٍ: "تعالى يا سمير، اقعد جنبي هنا". أي

سحر هذا الذي أقنع به وليد المُدرسة أن تتخلّى عن قاعدتها التي لم تنكسر من قبل قطُّ؟ أي حيلة أودعها في نظراته ليقنع ميس عزّة بالسماح له بالحضور؟ ما زال أمامه الكثير ليتعلّمه عن حياة الكبار. ولكنه على أي حالٍ كان فخورًا بابن خالته المُدهِش، وأجاب بمنتهى الاعتزاز عن أسئلة مُعلِّمَتِه التي يبدو أنها كانت مُنبَهِرَةً أيضًا بوليد لسببٍ ما، يجعلها تسأل عنه بهذه الغزارة.

14.7

عَبرَ الشارع، في موعد خروج الطلبة، وقفت عزَّة أمام بوّابة المدرسة الإعدادية التي عرفت اسمها من سمير بالأمس، مُتشبِّثَةً بحقيبةِ كتِفِها، وكأنَّ الحقيبة هي مَن تحملها. عرفت بعض معلمي هذه المدرسة وعرفوها، لكن أيًّا منهم لم يُكبِّد نفسه عناء هزَّة رأسٍ حتَّى على سبيل التحية؛ تجنَّبوها وكأنها مُصابَة بالجَرَب، وهو أمر تَفهَّمَته جيدًا، ولم تحيِّ أيًّا منهم درءًا للإحراج. الأخبار تنتقل بسرعة بين أروقة المدارس، لا سيما لو كانت أخبارًا بحجم "أخو عزة طِلِع نورس". لا.بأس، سينتهي كل هذا قريبًا؛ سيعود إليها أخوها وكرامتها وحياتها.

راقَبت مشهد خروج الطلبة بحرص، بذلت جهدًا لتحافظ على تركيزها، مُتنقِّلَةً بين وجوه المراهقين الصاخبين بسرعة ودِقَّة. من السهل أن يضيع هدفها وسط الزحام، لكنها لن

تسمح بهذا، حتى وإن أفلتَ منها هنا، فقد صارت تعرف بيته وأهله؛ ستصل إليه مهما يُكلِّفها الأمر، لكنها تفضل أن تلتقطه هنا والآن. ها هو، عرفته بسهولة، ربما تُفلِتُ من ذاكرتها ملامِحُ وجهه، لكنها لن تنسى أبدًا هذه النظرة الحادَّة القَلِقَة الذَّكيَّة. بدا نحيفًا قصيرًا في قميص المدرسة اللبنيِّ، على ظهره حقيبة يبلغ ثقلها ثلاثة أضعاف وزنه، يحملها بصبر سيزيف. هل صار أكثر نحافةً وضعفًا؟ أم أن الصورة في مُخيِّلَتِها كان مُبالَغًا فيها؟ لا يهم!

التقت العيون، عرفها مثلما عرفته، استعدَّت للحركة بسرعة لتلحق به قبل أن يهرب. شرعت في عبور الطريق، لكنَّ السيارات المسرعة لم تأبه لِتَعجُّلها، كادت تتعثَّر في الأثقال المعدنية حول كاحِلِها بين السيَّارات، تراجَعَت مذعورةً وترنَّحَت لثانِيَةٍ إلى أن حفظت توازنها. حَسِبَت للحظة أنه سيهرب منها إلى الأبد، ثم رأته ينسلُّ من بين أصدقائه، ويعبر الشارع من دون عُجالَةٍ، ويقترب منها.

هل كان قصيرًا دومًا لهذه الدرجة؟ أم أن انحناءة ظهره وانتكاسة رأسه هي ما يعطي ذلك الإيحاء؟

"حضرِتِك هنا... عشاني، صح؟".

لم تَرُدَّ، أمسكته من مِعصَمِه بحركة حادَّةٍ، مضت مُبتَعِدَةً تسحبه خلفها، تَبِعَها طائعًا. بعد دقائق من المشي سأل وليد: "طيب ممكن تقولي لي بس رايحين فين؟".

التفتت، نظرت إليه وكأنه سأل أغبى سؤالٍ في الكون: "ع القسم طبعًا، حسلِّمَك للشرطة، وأقول لهم إن انت الِّلي غويت أخويا، وإنه بريء مالوش دعوة بحاجة... ياخدوك ويرجَّعُهولي".

شعرت بقشعريرته في يدها، خافت أن يحاول الهرب، فشدَّت قبضتها. لم يفعل، وأصابتها عدوى القشعريرة.

"محمد؟ اتقبض عليه؟"، "أَيوَه، بسببكم"، "بسببنا؟ مين احنا؟"، "ماتستعبطش يالا، أنا عارفة ألاعيبكم الوِسخَة يا بتوع النورس، يا كفرة يا عبَدة الشيطان".

"بالراحة بس يا أبلة عزة! أنا مش فاهم حاجة. هُمَّ عرفوا منين إنه... إنه ساعدني لمَّا..."، قاطعته بعصبيَّة "ماعرفوش؛ تبقى مصيبة لو عرفوا كمان. ظبطوه بيطير، قبضوا عليه مُتلبِّس، وفي التحقيق كشفوا إنه نوارس، اعترف بإنه على علاقة بيكم".

"على علاقة بينا إيه بس يا أبلة! والله انا مش نوارس، ولا أعرف منهم حد، وأنا متأكِّد كمان إن أخوكي مش نوارس ولا اعترف بحاجة، يمكن مفيش حَدّ نوارس أصلًا".

صفعته.

لفتت الصفعة انتباه المارَّة لثانية، هتف أحدُهُم "اسمع كلام أمَّك يا حبيبي"، ومضى الناس دون أن يروا في صفعٍ لِطفلٍ ما يُريبُ. أمَّك! أيحسبونها والدته؟ رأت الدموع تلمع في عينيه، حاول مسحها بيده الحُرَّة، لكن واحدة أفلتت وجرت على وجنته، "أنا آسف والله يا أبلة! أنا غلطان، أنا السبب، أنا

السبب والله!"، "أيوه إنت السبب، إنت والأوساخ اللي لعبتوا في دماغ أخويا وجننتوه، كان محترم وطيِّب ولا ليه في حاجة طول عمره"، "لأ، مش ده اللي أنا آسف عليه، أنا لا أعرف أوساخ ولا كَلِّمت أخوكي تاني من ساعتها. أنا آسف على غبائي لمَّا لحقت المسطول الغبي ده من إيدهم، يا ريتني سيبتهم ياخدوه، يا ريتني ما وقفت في سِكِّتهم. أنا السبب في كل اللي بيحصل، أنا المسؤول عن كل واحد اتقبض عليه، أنا اللي خلِّيتهم يتجنِّنوا على الناس. أنا والله يا أبلة بقعد أتفرَّج على الأخبار كل يوم و...". بدأ البكاء في السيطرة على حديثه، صار مُتقطِّعًا مخنوقًا مليئًا بالدموع، "كل الناس اللي راحوا، كل اللي بيتبهدلوا في السجن، كل السِّتَّات اللي بتعيَّط على ولادها... أنا السبب، أنا آسف والله، أنا آسف، ماكانش قصدي!".

يا له من كاذبٍ قَذِرٍ لعين! يا لها من مسرحية! لا بُدَّ من أنهم درَّبوه عليها طويلًا ليؤدِّيَها بهذا الإتقان. لن تشتري دموعه الكاذبة، ولكن لماذا تبكي هي الأخرى؟ مسحت دموعها بعصبية، "بطَّل تمثيل يا كذَّاب يا ابن الكذَّابين، أخدتوا أخويا وخربتوا البلد وجاي تكذب عليَّا؟ تعمل عليَّا مسرحية! حسبي الله ونعم الوكيل، ورحمة أمي لَتبات في السجن النهاردة زي ما أخويا محبوس بسببك. ولمَّا تعترف، حيرجَّعولي أخويا، حيرجع لحضن أبوه، وحيلتفت لنفسه وحيشوف له شغلانة ويسيب الخرا الكورة بتاعته، وحيتجوِّز، وحيخلِّي باله مني ومن أبوه".

لم يُجب الفتى، لم يبدُ عليه أنه سمع في الأساس، بل كان غارقًا في البكاء. لن تستسلم لدموعه؛ سحبته وتابعت طريقها،

ذراعه كانت مُرتَخِيَةً في قبضتها كذراع دُمْيَةٍ قماشية. لم يكن يقاومها، لكنه لم يكن قادرًا على المشي بمثل خُطوَتِها المُتعجِّلة، كانت ساقاه ترتعشان مثل باقي جسده، مثل باقي جسدها.

بوسعها رؤية مبنى القسم في الأفق، يبقى أقل من مائتي متر، ستلقيه بينهم وتخبرهم بكل شيء، وسيعيدون أخاها. على الرصيف كان أحدهم يبيع ملابس منطفئة الألوان رخيصة الثمن، تبدو هذه البيچامات لطيفة؛ ربما تشتري لبناتها بَعضًا منها؟ ليس الآن، بعد أن تنتهي من مسعاها. هتف البائع "بتعيَّط ليه يا حمادة؟ اتفضَّلي يا مدام، خُدي له ترنج يِبسِطُه، تعالي وحعمل معاكي أحلى واجب في السعر، حرام تسيبي المحروس ابنك يعيَّط كده".

للمرة الثانية يحسبونه ابنها، لكن الكلمة أصابتها هذه المرة كدلوٍ من الماء المثلَّج. متى انزلقت يده لتستقر كَفُّه في كفها؟ آخر ما تُذكُرُه أنها كانت تجرُّه من ساعده، وفجأة صار هو مَن يَتعلَّق في يدها، بدا ضئيلًا هشًّا. هل شعرت أمُّه بغيابِه؟ هل انتابها القَلَقُ عليه بعدُ؟

بلغا القسم، بجوار البوابة استعدَّت للدخول، عدلت من ملابسها. نظرت إليه فوجدت شعره مُشعَّثًا وقميصه خارج بنطاله. هَذَّبَت شعره بحركات حادَّةٍ من يدها، لم يعترض، وانحنت لتُهَندِمَ له قميصه. كانت عيناه حمراوين متورِّمَتَيْن من فرط البكاء، بدا باهتًا مُظلِمًا مستسلمًا.

قال العسكري على باب القسم "فيه حاجة يا أستاذة؟"، "لأ مفيش، تسلم". اصطحبت وليد وابتعدا بضعةَ أمتارٍ، انحنت مرة أخرى، قالت "ماتجيبش لنفسك ولأهلك الأذى، ابعد عن الطيران، ابعد عن النوارس، ركِّز في مذاكرتك ومالكش دعوة بحد".

هَزَّ رأسه مرة أخرى، حاول قَوْلَ شيء لم تسمعه، فرَّت من عينيه دمعة جديدة، وفرَّت من عينيها مثله، ربتت على رأسه ومسحت الدمعتين. فكَّت السلسلة المعدنية من حول كاحل قدمها اليسرى، ربطتها حول قدمه.

ذهبت إلى حالها وذهب وليد إلى حاله.

دودة الكتب حرامية

الجُزءُ الرَّابِع

القَفَص

دودة الكتب حرامية

15

المُنتَصِر

15.1

يوم ذكرى الطيران الثالثة، افتُتح القفص.

وكان ذلك كالتالي...

دودة الكتب حرامية

15.2

يقـول اللـواء "أشرف المنتـصر" عـن نفسـه إن اسـمه عـلى مسـمًّى؛ فهـو لم يَخـسَر مَعركـةً في حياتـه. ويؤيِّـد الحاقـدون قولَـه، مُعلِّلينَـه بأنـه لم يَخُـضْ معركـةً قـطُّ.

ينحـدر اللـواء أشرف مـن أسرة المنتـصر العريقـة، المتجـذِّرة في مركـز تـلا بمحافظـة المنوفيـة. وهـي أسرة أنجبـت عـددًا لا يحـصى مـن الأطبَّـاء والمهندسـين والسياسـيِّين وضبَّـاط الجيـش والشرطـة، وتقلَّـد أبناؤهـا مواقـع متعـدِّدة في الدولـة المصريـة، لكـن أيًّـا منهـم لم يصـل إلى مرتبـة "وزيـر" مـن قبـل، وهـو خطـأ فـادح، قـرَّر أشرف تصحيحَـه منـذ التحاقـه بأكاديميـة الشرطـة في شـبابه المبكِّـر. عـلى مـدار مسـيرته الطويلـة المَليئَـة بالإنجـازات، سـافر إلى عَـددٍ كبـير مـن الـدورات التدريبيـة في الولايـات المتحـدة وروسـيا، وشـتَّى بـلاد الشـمال والـشرق، متدرِّبًـا حينًـا، ومدرِّبًـا أحيانًـا. يقـول عنـه زمـلاؤه إنـه كان دومًـا ذا بصـيرة نافـذة وأفـكار مختلفـة، رجـلًا يسـبق عـصره بـكل مـا تعنيـه الكلمـة مـن معـانٍ؛ لـذا لم يسـتَغرِب أحـدٌ عندمـا عُـيِّن نائبًـا لوزيـر الداخليـة، المُختَـصَّ بشـؤون الطـيران.

جـاء ذلـك بعـد إعـلان الحظـر بأسـابيع، عندمـا تأكَّـد الجميـع أن الأمـن في المدينـة استتبَّ. وبقـدر فرحـة اللـواء المنتـصر بالموقـع الجديـد الـذي يجعلـه عـلى مرمـى حجـر مـن هدفـه النهـائي، بقـدر اسـتيائه مـن حقيقـة أنـه لم يـأتِ إلَّا بعـد اسـتقرار الوضـع، حيـث لا حاجـة لخبراتـه، وهـو مـا أعـرب عنـه لسـكرتيره ومسـاعده وكاتـم

أسراره "سليمان عبد الصمد"، أو "سولي" مثلما صار يُلقِّبه بعد عودتهما من إحدى بعثات الولايات المتحدة التدريبية. لكن سليمان طمأنه، موضِّحًا أن اختيار اللواء أشرف لهذا الموقع لا بُدَّ من أنه جاء بناءً على حكمة عميقة من السيد الوزير، فلا بُدَّ من أن هدوء الإسكندرية أمرٌ يصعب الحفاظ عليه، ويحتاج إلى عقلية مُحنَّكة مثل عقلية اللواء المنتصر؛ وهو ما أسهم في تخفيف حنق اللواء أشرف، وأثبت له الزَّمنُ حِكمةَ مُساعِدِه سليمان، مثل كل مرة.

بعد أشهر من الهدوء السطحي، خرج النوارس المختبئون إلى السطح في عملٍ انتقاميٍّ مُخزٍ، استهدف بطلًا من أبطال موقعة محطَّة الرمل الشهيرة -التي درسها جيدًا لكنه لم يكن من مقاتليها للأسف!- واثنين من زملائه. بحنكة طبيب مُتمرِّس عرف اللواء أن الحادثة لم تكن فرديَّةً، وإنما عرَضٌ لورَمٍ خبيث يختبئ تحت السطح، ويحتاج إلى علاج كيماوي مُكثَّفٍ للقضاء عليه، وهو تشبيه مُوفَّق هنَّأه عليه "سولي" فور أن صدر منه أول مرة.

استقبل اللواءُ الأمينَ البطل "السيد أحمد سلامة"، وهنَّأه على نجاته من الموقف الخطير الذي تعرَّض له، وسمع من الرجل بالتفصيل وقائع ما حدث معه، وطلب منه أن يحكي له -من وجهة نظر المُقاتِل- ما عاصره في موقعة محطة الرمل التاريخية، ثم ناقش معه الاستراتيچية الواجب اتِّباعها للحَدِّ من خطر النوارس في الفترة القادمة، وسمع مُقترحاته، ووَعَدَه بوضعها في الاعتبار. بعد هذا الاجتماع المطوَّل، قال اللواء

لمساعده "إحنا عندنا مواهب وعقليات أمنية عظيمة يا سولي، وللأسف مدفونة ومَحدِّش بيدِّيها حقها. إزاي مش بنستغل القدرات الكامنة دي؟".

وقاد اللواء أشرف حملةً على النوارس؛ انتصر فيها، بالطبع، نصرًا ساحقًا، مُرسِّخًا مركزه، ومُؤكِّدًا الحقيقة التي يعرفها الجميع: إنه الشخص المناسب في المكان المناسب.

15.3

ذات صباح، وبينما يمهر الأوراق التي يضعها سولي أمامه بتوقيعه، سمع اللواء أشرف تغريد طائر جميل قادمًا من النافذة المفتوحة. نظر منها، فرأى طائرًا مُلوَّنًا ذا عُرف بُنِّيٍّ مُرقَّط بالأسود؛ لا يذكر نوعه.

ابتسم اللواء، ثم طار الطائر وابتعد معه صوت تغريده. قال اللواء متحسِّرًا "خسارة الطائر الجميل ده، طاير في الهوا كده من غير قفص يحميه من الطيور المؤذية والجو الوحش". هَمْهَمَ سولي مؤيِّدًا. مرَّت دقائق من الصمت لا يقطعها سوى صرير القلم على الأوراق، ثم قال اللواء أشرف، بنبرة هادئة عادية، وكأنه يردِّد حديثًا عابرًا لا أكثر الأفكار عبقرية في العالم، "إحنا ليه يا سولي معندناش سجن مخصوص لمساجين الطيران يطيروا فيه؟"، "عشان يا افندم مايطيروش ويهربوا من السجن زي ما حصل في إسكندرية أول ما الناس طارت". وكان المساجين

السكندريون، سواء مجرمو الطيران أو الجنائيون، مُوزَّعين على سجون الجمهورية كلها إلَّا الإسكندرية، بينما تمتلئ سجون الإسكندرية بكل أنواع المساجين إلا أبناء المدينة الأصليين. "لا يا سولي، أنا بتكلِّم عن سجن فريد من نوعه، سجن كده زي الـ... زي القفص".

ولساعتين كاملتين أخذ اللواء أشرف يسرد تخيُّلَه للسجن العملاق المُغطَّى بالشباك المعدنية، كالقفص، والذي يطير بداخله مساجين الطيران بِحُرِّيَّةٍ، مثلما تطير العصافير في الأقفاص، ويعيشون حياةً كامِلَةً سعيدة تحت سقفٍ يحميهم ويحمي الناس منهم. "ويكون اسمه (سجن المنتصر)".

في النهاية، أطلق سولي صافِرَةَ إعجابٍ طويلة، هزَّ اللواء رأسه على إثرها بتواضُعٍ على طريقة "دي أقل حاجة عندي". ثم وضع توقيعه على آخر الأوراق أمامه قائِلًا: "حنبدأ التنفيذ من إمتى يا سولي؟"، "من بُكرَه يا افندم".

15.4

لا يُحِبُّ سليمان لقب سولي، لكن من المعروف أن من فم معاليه لا يخرج إلَّا كُلُّ خير، لِيَكُن سولي أو حتى سوسو ما دام السيد اللواء راضيًا عنه.

تعاني العقول النَّيِّرَة، تلك التي تسبق عصرها، من سوء التواصُلِ بينها وبين الآخرين، العاديِّين، ذوي الأدمغة الصغيرة

والآفـاق الضيقـة. تلـك كانـت مشـكلة اللـواء أشرف طـوال الوقـت مـع رفاقـه، إلى أن عـرف سـليمان، سـولي، سـفيره إلى العـالم. وظيفـة سـولي الرسـميَّة هـي السـكرتارية، لكـن وظيفتـه الفعليـة هـي الترجمـة، الترجمـة مـن لغـة الأفـكار العُظمـى العابـرة لنطـاق الوعـي البـشري الضيـق، إلى لغـة الحيـاة المعـاصرة، بمـا فيهـا مـن سـذاجة وانحطـاط، والعكـس بالعكـس. لا يقـوم السـكرتير الأمـين بالترجمـة بـين اللـواء وزملائـه المسـؤولين فقـط، بـل يفعـل أيضًـا مـع زوجتـه وأبنائـه، حتـى هـؤلاء لا يُقـدِّرون الشـخصية الاسـتثنائية القابعـة بينهـم.

بعـد اسـتماعه للوحـي، غـاب سـولي ثلاثـة أيـام، وعـاد بملـفٍّ أنيـق مُنتَفِـخٍ يحمـل غلافُـه عنـوان "سـجن المنتـصر- رؤيـة ومسـتقبل"، قدَّمـه إلى اللـواء السـعيد برؤيـة أفـكاره وقـد تجسَّـدَت عـلى الـورق. "ومـن وحـي حديـث معاليـك، وتأكيـدًا عـلى رؤيتـك الثاقبـة، سَـمَحْت لنفـسي بإضافـة فكـرة هامشـية صغـيرة جـدًّا"، وفتـح سـولي الصفحـة الثالثـة مـن الملـف، وأشـار إلى العنـوان: "الهـدف الأول: متابعـة البحـث العلمـي خلـف أسـباب الطـيران". "بـس أنـا يـا سـولي مـش مهتـم بالبحـث العلمـي"، "فاهـم سـعادتك، بـس مـش كل النـاس ذوي فكـر متجـاوِز للحـدود زي حضرتـك، بالتـالي مـش حنلاقـي دعـم لمـشروع بهـذا الحجـم مـن غـير مـا نقدِّم للباقيـن سـبب يقنعهـم ويشـوفوا منـه منفعـة حقيقيـة بعقولهـم الضيقـة، وطبعًـا لـو حضرتـك شـايف ده مـش مناسـب نحذفـه فـورًا مـن البروبـوزال". فكَّـر اللـواء أشرف لدقائـق، ثـم ابتسـم.

15.5

لم يَكُن من الصعب قَطُّ إقناع المسؤولين ببناء سجن جديد، هناك دائمًا حاجة إلى سجون جديدة في البلاد مع ارتفاع أعداد المُدانين يوميًا، وكان هناك بالفعل مشروع لبناء ثلاثة سجون كبرى جديدة لم تُحدَّد أماكنها بعد؛ ما استغله سليمان -نيابة عن اللواء أشرف- ليحصل على حقوق تنفيذ واحد منهم لشرطة الطيران. ما استغرق بعض الوقت كان إقناع السادة برؤية معاليه المختلفة، لكن سليمان أقنعهم بأهمية متابعة البحث العلمي في أقرب فرصة. وعندما واجهه أهمُّ الوزراء بأن مركز بحوث الطيران العسكري السري بذل مجهوداتٍ طائِلَةً في سبيل إيجاد السبب دون نتائج تُذكَر، رَدَّ سليمان بأن اللواء المنتصر لم يَنْسَ إرث المركز العسكري، وينوي متابعة المسيرة بهيئته البحثية الجديدة، وأي نتائج سيصل إليها ستكون مَدينَة بالفضل لأبحاث الهيئة البحثية الأم، وأي نصر علمي يُحرزه المنتصر سيُنسَب إلى الجهتين.

للتغلُّب على مشكلة الميزانية التي رغم ضخامتها لا تكفي لبناء سجنٍ بمواصفات المنتصر الاستثنائية، تَقرَّر أن يَحلَّ السجن محلَّ مركز شباب رياضي ضخم في أبو قير، توقَّف العمل فيه بعد أن كاد بناؤه يكتمل؛ لِقِصَرِ الميزانية وانعدام الأهمية. عُدِّلَت مبانيه لتلائم طبيعة حياة السجن، وسُخِّرَت الميزانية لبناء الشُّباك الحديدية حوله، والسقف ذي القُبَّة التي ترتفع عن الأرض مائة متر، وجُعِل فيه أربع محرِّكات عملاقة في أركانه

للتحكُّم في فتح السقف وإغلاقه مثل السيارات الرياضية، كما وصفه اللواء المنتصر للمهندسين.

استغرق بناء سجن المنتصر ستة أشهر، وحُدِّد لافتتاحه يوم السابع والعشرين من سبتمبر عام 2008، مع الذكرى الثالثة للطيران، عَلَّل اللواء أشرف اختيارَه هذا اليوم لمساعِدِه "كرمز لبزوغ عصر جديد للطيران، عصر مايعرفش المستحيل".

15.6

لم يَبخَل أعضاء مركز بحوث الطيران العسكري السري بتقديم كل مواردهم السابقة، المتلخِّصة في 92 عيِّنة بحث، وكل نتائج أبحاثهم: لا شيء. وعندما حاول سليمان إقناعَهم بالانضمام إلى هيئة البحث العلمي الملحقة بسجن المنتصر، تلقَّى رفضًا قاطعًا.

شَرَعَ بعد الرفض في إجراء المقابلات الشخصية مع أبرز الأساتذة الجامعيين المصريين في مختلف التخصُّصات لتشكيل الهيئة الجديدة، لكنَّ أمرًا صدر، يعلوه ويعلو سيده، بوقف المقابلات فورًا. وقيل له بشكل حاسم إن البحث العلمي في سجن المنتصر لن يُجريَه إلَّا علماء موضِعَ ثِقَةٍ، وأساتذة الجامعات قد يرغبون في نشر نتائج أبحاثهم في أوراق علمية وما إلى ذلك، وهي أمور متنافية مع مبادئ السرية والأمان التي تتبعها الوزارة. "العلماء بتوعنا يا سولي لازم يبقوا محل

ثقـة". مـن أيـن يـأتي بعلـماء محـلّات ثقـة؟ يـكاد البنـاء ينتهـي، ويـكاد السـجن يُفتَتَـح.

ثـم، كالعـادة، اسـتطاع سـليمان أن يجـد حـلًّا مناسـبًا يُـرضي الجميـع. وزّع نـشرة داخليـة بـين ذوي الثقـة في الـوزارة والـوزارات الصديقـة، طالبًـا ترشـيح علـماء مـن الدوائـر المُقرَّبـة الموثـوق فيهـا؛ للعمـل عـلى مـشروع عِلمـيٍّ سِريٍّ جـدًّا.

في الأيـام الأولى امتنـع الجميـع عـن الترشـيح؛ نظـرًا لعـدم وجـود تعريـف واضـح لــ "العلـماء" المطلوبـين، ثـم بعـد ذلـك، وللسـبب نفسـه؛ انهالـت الترشـيحات عـلى مكتـب اللـواء أشرف للعلـماء: أطبـاء ومهندسـون وعاملـون بمعامـل تحاليـل وفنيـون أشـعة وإحصائيـون ومحاسـبون ومُختصُّـون بالعـلاج بالأعشـاب ومخترعـون شـباب ورجـال ديـن وطبّاخـون محترفـون ومُدرِّبـو تنميـة بشريـة وطاقـة روحيـة وخـبراء تغذيـة وغيرهـم مـن التخصُّصـات. أُجرِيَـت التحريـات عـن المرشـحين، واختـير أكثرهـم ثقـة وولاءً لتشـكيل "لجنـة المنتـصر الوطنيـة السريـة لأبحـاث الطـيران".

15.7

لكفاءتـه؛ عُـيِّن الرائـد زيـاد المنتـصر مأمـورًا لسـجن المنتـصر. ولخبرتـه؛ عُـين المقـدم معتـز أبـو العـز نائبًـا للمأمـور. ولبطولتـه؛ انتُـدِبَ السـيد أحمـد سـلامة قائـدًا للجنـود والحـرس.

شهد الشهر الذي سبق افتتاح السجن استرجاعَ مساجين الطيران من سجون البلاد، سواءً كانوا رجالًا أو نساءً، أو حتى أحداثًا تحت السن القانوني من قاطني الإصلاحيات، ليصبح سجن المنتصر أول سجن مختلط في العالم. وإن ظلَّ الاختلاط محدودًا في أوقات مُعيَّنة بساحات السجن تحت إشراف الحُرَّاس والعلماء، أمَّا بقية الأوقات، فيقضيها المساجين في عنابرهم المنفصلة.

عندما خرجت السيدة أم رضوى من سيارة نقل المساجين، ورأت سجن المنتصر لأول مرة، هتفت "ده إيه يا أختي ده؟ حيحبسونا في قفص عصافير؟"، ورغم صيحة السيد جزرة "بس يا مَرَة"، وتنبيه السيدة شاهندة لها بألَّا تثير المتاعب في السجن الجديد، فإن اللقب الذي كان يتردد في عقول الجميع دون أن يجرؤ أحدهم على التفوُّه به، انتشر فور خروجه من فم السجينة الثَّكلى كالعدوى بين الجميع، مساجين وحُرَّاسًا.

ثم جيء بفنانين وموسيقيين لتدريب المساجين على استعراض الافتتاح السماوي الذي سيُقام أمام اللواء المنتصر وزمرة من قيادات الوزارة. وعندما حضر السكرتير الأمين بروفة للعرض قبل الافتتاح بأسبوع، أبدى اندهاشه من قِلَّة عدد المساجين، واستعرض لأوَّل مرة مع المأمور عددَ المساجين، ليُفاجأ بحقيقة أن حصيلة المُدانين بالطيران في الأعوام السابقة -بكل ما شهدت من أحداث- كان 582 سجينًا، وهو رقم يشمل حتى العيِّنات البحثية المُهداة من الهيئة العسكرية. منهم 415 فقط قادرين على تأدية الاستعراضات، أمَّا البقية، فمرضى أو كبار في

السن لا يقدرون على المشاركة في العرض. هذه كانت كارثة بكل المقاييس؛ لا يمكن تأدية عرض الافتتاح في سماء القفص الواسعة بهذا العدد الهزيل من الطيور؛ ما قد يُسبِّب إحراجًا شديدًا للسيد اللواء أمام بقية المسؤولين.

وجاء الحل من المُقدِّم معتز هذه المرة، والذي اقترح مشاركة الحراس في الاستعراض مع المساجين. رغم أن سليمان كان مترددًا في استقدام المقدِّم معتز؛ للشائعات التي تدور في أروقة الوزارة أن أخته كانت القائدة الفعليَّة للنوارس، وليست مُجرَّدَ رَهينَةٍ لديهم مثلما قيل رسميًّا، وأنها الآن حبيسة بيت أبوها عضو المجلس لا ترى النور، إلا أنَّ تَردُّدَه بدأ يزول مع اقتراح المُقدِّم الشاب، بعدما وجد فيه ذكاءً استثنائيًّا وعقليَّةً جديرة بمكانٍ مختلف مثل سجن المنتصر. شكر سليمان المقدِّمَ معتز، ووعده بالتزكية عند اللواء المنتصر، وطلب منه التأكُّد من ارتداء الحُرَّاس لملابس المساجين؛ حتى لا تنكشف لعبتهم.

15.8

مع نهاية الاستعراض الراقص في حفل الافتتاح، صفَّق اللواء أشرف والسادة المسؤولون، من مقاعد جمهور ما كان من قبل ملعب كرة قدم، والآن هو ساحة سجن، والسادة العلماء، وكذا فعل السادة الضبَّاط، والحُرَّاس الموجودون، على قِلَّتِهم.

وبعـد التَّصفيـق همـس اللـواء في أذن مسـاعده "كام واحـد دول يـا سـولي؟"، "750 يـا افنـدم"، "قليِّلـين، قليلـين جـدًّا، يعنـي احنـا بنينـا الـصرح العظيـم ده كلـه عشـان 750 مسـجون؟ شـكلهم قُليِّـل أوي في السـما"، "ماتقلقـش يـا افنـدم؛ ربنـا حيطـرح فيهـم البركـة"، "دي كانـت بروڤـة لطيفـة، بـس مـش الحفلـة اللـي في بـالي. السـنة الجايـة في ذكـرى الافتتـاح، لما تطلـع الهيئـة بنتايـج البحـث، حنعمـل مؤتمـر كبـير، وحفلـة أضخـم مـن دي عـشر مـرات، حاجـة كـده تبهـر العـالم. معـاك سَـنَة بحالهـا تجهِّـز فيهـا نفسـك يـا سـولي"، "عينيَّـا ليـك يـا افنـدم، بـس ممكـن الهيئـة ماتطلعـش بنتايـج السـنة الجايَّـة، حضرتـك عـارف الموضـوع مُعقَّـد و..."، "جـرى إيـه يـا سـولي؟ يعنـي إيـه ماتطلعـش بنتايـج؟ عايـز تحرجنـي قُـدَّام الـوزرا؟ سـبب الطـيران لازم يكـون معـروف السـنة الجايـة"، "أوامـر معاليـك يـا افنـدم".

هـدأ التصفيـق، وعَـمَّ المكانَ شيءٌ مـن الصمـت، وبدأ الجالسـون في التَّململِ اسـتعدادًا للذهـاب. ثـم انطلقـت فجـأة سلسـلة مـن الضحـكات العاليـة السـاخرة الطويلـة؛ فغمـر الجميـعَ شـعورٌ لحظـيٌّ بالضآلـة وقِلَّـة القيمـة. "مـين ده؟ مـين اللـي بيضحـك؟"، اعتـذر الرائـد المنتـصر للـواء المنتـصر "ده مسـجون مجنـون كـده، ماعرفـش فَلَـت ازَّاي، معلـش يـا عَمُّـو، قصـدي آسـفين يـا سـيادة اللـواء"، بينـما أشـار المقـدِّم معتـز إلى المسـاجين لينفصـل عنهـم دسـتة منهـم فـور إشـارته، ويُخرِجـون العِـصيَّ مـن تحـت ملابـس السـجن، "وازَّاي المسـاجين دول معاهـم عصيـان؟ وليـه الأمـين سـيد لابـس لبـس مسـاجين؟".

اتجهوا طائرين إلى الكبائن الصغيرة في ركن الملعب، والتي كان يُفترض أن تصير غُرفَ تغيير ملابس اللاعبين؛ سحبوا من خلفها رَجُلًا نحيلًا طويلًا كَثَّ اللحية مجنون العينين، يضحك دون انقطاع. "آسف والله يا عمُّو، ده واحد مجنون، كان المفروض محبوس في عنبره مش عارفين خرج ازَّاي". التفتَ اللواء عن ابن أخيه مُواجِهًا مُساعِدَه الذي أظلم وجهه وغارت عيناه في محجريهما "أنا بحمِّلك انت يا سليمان مسؤولية خراب الاحتفال. لو المشهد ده اتكرَّر في الحفلة الِّلي جايَّة، حخرب بيتك".

16

ثقل

16.1

في الذِّكرى السنويَّة الرابعة للطيران، والأولى لافتتاح القفص، انتهى كل شيء.

حدث ذلك كالتالي...

16.2

مـا كان مَلعبًـا رمليًّـا لكـرة القـدم قبـل عـام صـار الآن مُغطًّـى بالأسـفلت، وأُزيـل ثُلُثـا مدرَّجاتـه لبنـاء مزيـد مـن عنابـر المسـاجين؛ اسـتعدادًا للدفعـات المتوقَّعـة في العـام القـادم. في مسـتطيلٍ غَطَّـى ثلاثـة أربـاع الملعـب الأسـفلتي، جلـس 1200 سـجين في صفـوف متسـاوية منتظمـة، في معاطِـفَ سـوداء متماثِلَـة، وقصَّـات شـعر متشـابهة، لا تـكاد تُميِّـز منهـم صغـيراً مـن كبـير أو ذكـرًا مـن أنثـى. بينهـم تحـرَّك قليـلٌ مـن الحُـرَّاس لضـمان صمتهـم واتِّباعهـم النظام، غالبيـة الحـراس كانـوا بالأعـلى، جالسـين عـلى الأرفـف والسَّـقَّالات والأسـلاك المعدنيـة المتناثـرة عـلى جـدران القفـص والمُـدلَّاة مـن سـقفه، عـلى ارتفاعـات مختلفـة، يراقبـون المسـاجين أسـفلهم عـبر مناظـير خاصـة مقرِّبـة، في تطبيـق عمـلي لواحـد مـن اسكتشـافات اللـواء أشرف المُتخيَّلـة لطبيعـة الحيـاة اليوميـة في سـجنه الخـاص. انتصبـت في الربـع الأخـير مـن الملعـب مَنصَّـة حملـت عـددًا مـن الميكروفونـات المُزيَّنـة بشـعارات قنـوات تليفزيونيـة ومنابـر إعلاميـة متنوِّعـة. واجهـت المَنصَّـة مـا تبقَّـى مـن مدرجـات الجمهـور الخاليـة، المعـدَّة لاسـتقبال اللـواء أشرف ونحـو مائـة مسـؤول مـن الـوزارة، والـوزارات والهيئـات الصديقـة. خلـف المنصَّـة جلـس العلـماء الخمسـة عـشر، أعضـاء "لجنـة المنتـصر الوطنيـة لأبحـاث الطـيران" التـي لم تَعُـد سِرِّيَّـةً؛ فهـي عـلى وشـك إعـلان نتائجهـا أمـام الكامـيرات الإعلاميـة المتناثـرة في جميـع أنحـاء سـاحة القفـص.

رفع أحدُ المساجين يده، مناديًا بأدب حارسًا قريبًا "عايز إيه يا صنايع؟". وكان إسماعيل طيّارة أصبح إسماعيل صنايع؛ نسبةً إلى أنه مدرس سابق في مدرسة فنية. "الحمّام، أروح الحمّام"، "حنقضّيها شغل عيال والّلا إيه؟"، "معلش، إنت عارف كُتر البقدونس في الأكل بيسهّل الأمور"، "طب استنّى لما زميلك يرجع"، "حاضر". انحنى السجين المجاور لإسماعيل على أذنه وهمس ساخرًا "تستاهل؛ فرحان فيك. كنت أقول لك أيام المدرسة والله رايح الحمام يا مستر، وبرضو كنت تجري ورايا وتفشخني ضرب"، "إنت اللي كنت عيِّل وسخ وكَذّاب، حَمّام إيه يالا الّلي بتروحه نط من فوق السور؟"، ضحك كلاهما بصوت مكتوم، صاح الحارس "بس يا مساجين؛ الكلام ممنوع". صمتَا، تابَعَا تبادُلَ الذكريات عبر النظرات. لم يكن السجين الآخر سوى طالب مدرسة السلام الفنية السابق، وحارس المرمى الثالث -السابق أيضًا- لفريق أبو قير للأسمدة، محمد محمد محمد أحمد.

في الآن ذاتِه، كان السكرتير المساعد الوفي سولي عبد الصمد، يصرخ في منسِّق الحفلات المسؤول عن تجهيز حفل اليوم ويشير إلى المدرجات "مش عايز أسمع تبريرات، عايز حلول، إنت شايف المدرّجات المعفّنة دي ينفع يقعد عليها السادة المسؤولين؟"، "يا افندم دي أفضل حاجة ممكن الحصول عليها بالميزانية المتاحة، وبعدين..."، "دي فيها مسامير، مسامير، عايزني أقعَّد المسؤولين على كراسي فيها مسامير؟ لو طيز حد فيهم دخل فيها مسمار، طيزك حيدخل فيها..."، "يا افندم من غير

شتيمة بس"، "بلا افندم بلا خرا، الكراسي دي تتغيَّر دلوقت"، "بس الحفلة حتبدأ الساعة 2، دلوقت 1.30، حنجيب منين كراسي دلوقتي؟"، "حطلُبْلَك هيليكوبتر تتحرَّك للمكان اللي انت عايزُه، وأنا حكلِّم سيادة اللواء يأخَّر نَفسُه نُصّ ساعة. كل اللي انت محتاجه موجود، بس لو الحفلة بدأت والكراسي متغيَّرِتش، وحياة أمي لَتْبات في نفس العنابر اللي انت علَّقت عليها البلالين بقية عمرك".

وترك منسق الحفلات يكاد يبول على نفسه من فرط الخوف، وأشار بيده تجاه مجلس العلماء. ورغم بُعْدِ المسافة، فإن رئيس اللجنة نهض فور إشارته، بشكلٍ يوضِّح أن عينه لم تفارق السكرتير انتظارًا لإشارته، وانطلق مهرولًا صوبه. ولمَّا بلغه، قدَّم إليه ملفًّا أحمرَ قليل الأوراق، انتزعه السكرتير من يده وتصفَّحه في عُجالة. "دول يا افندم العوامل المؤثِّرة على الطيران الِّلي قِدْرِت اللجنة إنها ترصدهم و..."، قلَّب السكرتير الصفحة دون اهتمام، "ودي المنهجية العلمية المُعتَمَدة في البحث"، تابع تقليب الصفحات، ثم توقَّف عند عنوان جانبي قرب نهاية الملف (الثقل). "إيه ده؟"، "ده رصد اللجنة لظاهرة صعوبة الطيران المنتشرة بين المساجين والحُرَّاس في الشهور الأخيرة، و..."، "لأ الكلام دهماينفعش"، "ماينفعش يعني إيه يا افندم؟ ده مش رأينا، ده اللي بيحصل حوالينا، حضرتك حتى اسأل أي فرد في دوريات الطيران في اسكندرية، الكل بيتكلم عن نفس الأعراض... الطيران بقى أصعب وأتقل على الجميع بلا استثناء"، "ده عند أمك". تَراجَع رئيس اللجنة مبهوتًا، "مالك

اتخضِّيت ليه؟ آه عند أمك، تروح تقول لها الكلام ده وتقول لك معلش يا حبيبي، لكن ماتجيش في احتفال عظيم ومهم زي ده، قُدّام أهم مسؤولين جمهورية مصر العربية، وتقول لي الطيران بقى مش عارف إيه، عايز تخرب الاحتفال؟"، "يا افندم بس..."، "فوق لنفسك يا بتاع العادات السبع لضرب العشرة، انت بتاع تنمية بشرية يالا، كنت بتدِّي الحِصَّة بعشرين جنيه قبل ما نجيبك ونشغَّلك هنا، والَّلا فكَّرت نفسك عالم بجد؟".

بحركة حادة مزَّق السكرتير صفحة الثقل. لمعت أعين عالم التنمية البشرية بدموع، ارتجفت شفته السفلية. ربَّت السكرتير على كتفه، ورقَّت نبرته، "معلش، ماتزعلش، الأعصاب مشدودة والدماغ متوترة، انت عارف لو حصلت أي حاجة غلط النهاردة حنزعل كلنا. يعدِّي العرض على خير بس، وبعدين تجي لي المكتب نتكلم في الثقل والخِفَّة والحلاوة والطَّعامة كلها، تمام؟".

16.3

ردَّدَت أروقةُ مبنى السجن الرئيسي الخالي صدى خطوات حذائه الميري على البلاط. أعجبه الصوت، فأخذ يدقُّ بكعبه بقوة مع كل خطوة ليستمتع بوقعه في صدره، ثم تناول من حزامه سلسلة المفاتيح، وأخذ في هزِّها مع كل خطوة؛ ليضيف رنينُها هالَةً من القداسة عليه وعلى مَهمَّته الجليلة.

مَـن كان يتخيَّـل أن بائـع الخضـار التافـه سـيصير رجـلًا بهـذه الأهميـة والخطـورة؟ ليـس فقـط قائـدًا لحـرس أهـم سـجن في البلـد، بـل مُهِـمًّا لدرجـة أن نائـب المأمـور، معتـز باشـا، اختصَّـه بمهمـة في غايـة الخطـورة مثـل هـذه.

"روح أوضـة المأمـور، وافتـح السـقف للهليكوبـتر الـلي جايبـة الكـراسي، تعـرف تفتـح السـقف وتقفلـه، صـح؟ واسـتنَّى لمـا تخـرج واقفلـه وراهـا". ثـم بمنتهـى البسـاطة أخـرج مـن جيبـه سلسـلة المفاتيـح الأهـم، والتـي تحـوي مفاتيـح مداخـل السـجن ومخارجـه، ومفتـاح مكتـب المأمـور، وقدَّمـه إلى قائـد الحـرس المهـم، "تِخَلَّـص وتجيـب لي المفاتيـح عـلى طـول"، "تمـام يـا باشـا".

بخُيَـلاء خـازِنِ النـار، أولـج المفتـاحَ في رِتـاجِ المكتـب وأداره مسـتمتعًا بصـوت تـكَّات القفـل، ثـم أدار المقبـض الثقيـل وفتـح البـاب. تأمَّـل النياشـين عـلى الحوائـط، تأمَّـل الأثـاث الفاخـر، انحنـى وتحسَّـس السـجاد الوثـير. كان السـجاد أكـثر لينًـا وطـراوةً مـن مرتبـة سريـره الجديـدة، وَدَّ لـو خلـع المـيري ونـام عليـه، ثـم تمالـك نفسـه، عليـه أن يُركِّـز في مأموريتـه المُهِمَّـة. نظـر مـن نافـذة غرفـة المأمـور المدعمـة بقضبـان معدنيـة إلى سـقف السـجن، رأى الهليكوبـتر مُعلَّقـة في السـماء فوقـه منتظـرة، والمقـدِّم معتـز يقـف في السـاحة بـين المسـاجين، وينظـر إليـه عـبر النافـذة مشـيرًا بـالإسراع. هـرع صـوب جانـب الغرفـة حيـث تقبـع لوحـة التحكُّـم، تأمَّلهـا مرتبـكًا لثـوانٍ، ثـم تذكَّـر الترتيـب الصحيـح لفتـح السـقف: الضغـط عـلى المفاتيـح الحمـراء الأربعـة بالترتيـب مـن اليمـين إلى اليسـار، لتشـغيل المحـركات الأربعـة. هـرع مـرة أخـرى إلى النافـذة

ليتأمَّل انفتاح السقف منصتًا لهدير المحركات الذي كان وقعه على أذنه كما الموسيقى، هو مَن ضغط على الأزرار وفتح السقف، بلمسات أصابعه القصيرة السمينة التي طالما سخروا منها انفتحت السماء، وبنفس الأصابع سيغلقها، هل هناك مَن يفوقه قُوَّةً وقُدرَة وأهمِّيَّة في هذا العالم؟ بالطبع لا. أمَّا الذين سخروا منه من قبل، أين هم الآن؟ يرتدون المعاطف السوداء ويجلسون في الساحة صامتين، إنْ نَبَسَ أحدهم بحرف سيُضرب ويُهان من الحرس، بأمره هو، قائد الحرس. فاز السيد وانتهى الأمر.

راقب خروج الهليكوبتر، عاد ليعبر الغرفة تجاه لوحة التحكم، تحاشى وطء السجاد بحذائه الميري، فقط ليدرك أنه فعل قبل قليل دون أن يلاحظ، وترك بقعةً ترسم إطار قدمه الصغيرة بالطين. يا ربي! سيرى حضرة المأمور البُقعةَ ويعاقبني عليها! نخَّ ساجدًا على السجاد، أخذ يمسح البقعة بيده، لعقها بلسانه ليُبَلِّلها قبل أن يتابع مَسْحَها بطرف كُمِّه، مُحاذِرًا أن يَمسَّ حذاؤه السجاد مرة أخرى. بعدما اختفت البقعة نهض ودار حول الغرفة بخطوات محسوبة، وأغلق مُحرِّكات السقف بضغط نفس الأزرار بتتابُعٍ عكسي.

خرج من الغرفة، أغلق الباب، وهمَّ بإدارة المفتاح، و...

"أنا محبوس ليه يا جزرة؟".

قفز في مكانه فزعًا حتى كاد يقع على ظهره. رآه قادمًا من آخر الرواق، جاحظ العينين أحمر الأذنين، بلحيته المُثلَّثة

القصيرة المشعثة بدا مثل تَيسٍ غاضب. كيف يتجوَّل بحرية في أروقة المبنى؟ آه، لا بُدَّ من أن العساكر الأغبياء لم يوصدوا عليه الزنزانة مثلما أمرهم. استجمع شتات شجاعته، "ارجع على زنزانتك يا علي"، "أنا ليه مش في الساحة دلوقت يا جزرة؟".

لا يخشى السيد من علي. لا يُلقِّبه بالشيخ علي مثلما يفعل بقية الحراس والمساجين، وحتى بعض الضُّبَّاط. يعرف أنه ليس أكثرَ من رجل مجنون، أمَّا ما يُشاع عنه أنه وليٌّ من أولياء الله الصالحين، صارع شيطانه حتى غَلَبَه مثل الرسول، وروَّضه وجعله خادِمَه الأمين- ليس إلَّا خرافات غَبيَّة لا تؤثِّر فيه. لكن بقية الحراس ليسوا بشجاعة السيد وذكائه، مجرَّد رؤيتهم له يتبادل الحديث مع شخص غير مرئيٍّ ويخاطبه بالشيطان، تكفي لجعلهم ينتفضون خوفًا. كثيراً ما نهرهم عن المعامَلَة الخاصَّة التي يَخصُّونه بها، يتركونه يتجوَّل في ساحة السجن طوال النهار دون رقابة. لا يشارك في تمارين الاستعراض ولا تجارب العلماء، يخرج من زنزانته أوَّلَ اليوم ويطير ليستقرَّ على أحد رفوف الحُرَّاس بالقرب من سطح القفص، ويقضي اليوم ناظرًا إلى السماء ومُخاطِبًا الفراغ كما المجانين، ولا ينزل من هناك إلَّا مع غروب الشمس، ليتناول الطعام مُنعَزِلًا عن بقية المساجين، ويعود إلى زنزانته لينام حتى اليوم التالي.

"قافلين عَليَّا ليه الباب يا جزرة؟"، "اسمها معالي الباشا السيد يا كلب، ارجع على زنزانتك".

يتبرَّكـون بـه حينًـا ويتحاشـونه أحيانًـا، لا أحـد يتمتَّـع بحريـة الشيخ علـي -كـما يلقِّبونـه- في القفـص، ولا حتـى المأمـور. لكـن ليس عندمـا يكـون السـيد موجـودًا، أكـثر مـن مَـرَّة طـار بنفسـه وأنزلـه عـن رفـوف السـقف المحظـورَة عـلى السُّـجناء، أكـثر مـن مـرَة ضربـه بعصـاه أمـام الحـرس والسـجناء، ليُبـيِّن لهـم أنـه ليـس إلا مجنونًـا عاديًـا لا حيلَـة لـه، لكـن الأغبيـاء لا يفهمـون.

"عايـز تخـرج عشـان تطلَّـع عفاريتـك ع الـوزرا والمسـؤولين برَّه؟ إنـت الوحيـد الممنـوع مـن الخـروج، ولـو كان الأمـر بإيـدي ماكنتـش سيبتك تشـوف نـور تـاني أبـدًا، بعـد المصيبـة اللـي عملتهـا في الافتتـاح". "حفلـة إيـه وخـرا إيـه؟"، ثـم وجَّـه حديثـه إلى مَـن يقـف خلـف السـيد، "يعنـي مـش كفايـة محبـوس في سـجن وهمـي جـوَّه عقـلي، كـمان أتحبـس في سـجن جـوَّه السـجن؟ ماتريكـس جـوَّه الماتريكـس؟ جهنـم جـوَّه جهنـم؟".

نظـر السـيد خلفـه باحثًـا عمَّـن يحدثـه المجنـون، لم يكـن هنـاك غـيره، تراجـع خطـوة، بَسْـمَلَ وحَوْقَـلَ. لكـن، أَيَخـاف مَجنونًـا؟ أيصبـح مثـل الحمقـى مـن رجالـه؟ لا، لا والله. انتـزع عصـاه مـن حزامـه، شـهرها في وجـه المجنـون، "لـو مارجعتـش عـلى زنزانتـك دلوقـت، حكسَّـر نافوخـك".

جلجلـت ضحكـة المجنـون عاليـة، ردَّدَت الأروقـةُ الخاليَـةُ صداهـا. هـل هـذه ضحكـة شـخص واحـد؟ يبـدو الصَّـدى صـدى ضحكَتَـيْن، إحداهـما غـير بشريـة. ارتعـد، تراجـع أكـثر.

"تكسَّر نافوخـي؟ ياريييييـت، تعـالى كـسَّر نافوخـي، تبقـى عملـت فيَّا معـروف، كـسَّرُه ألـف حِتَّـة، بـس مش حتقـدر، عشان انـت يـا حـمار جـزء منـه، إنـت والقفـص والنـاس والطـيران، مفيش حاجـة بتكسَّر نفسـها".

مـاذا يقـول ابـن المجانـين هـذا؟ لا يفهـم منـه حرفًـا، لكنـه وجـد نفسـه يخـاف مـن كل حـرف، هـل هـو شيخ فعـلًا؟ "إنـت فـين يـا سـيد؟"، تعـالى صـوت المقـدِّم معتـز مـن جهـاز اللاسـلكي المُعلَّـق في حزامـه "تعـالى بسرعـة والـزم موقعـك، الحفلـة حتبـدأ". انتـزع الجهـاز، ضغـط زِرَّه وقـال لـه بحـروف مرتجفـة: "تمـام يـا افنـدم"، ثـم للمجنـون "حظَّـك حلـو؛ فَلَـتّ مـن إيـدي، الـزم زنرزانتـك وعـدِّي يومـك عـلى خـير يـا عـلي". تراجَـعَ إلى الخلـف بخطـوة حَـذِرَة. "رايـح فـين؟ مـش قلـت حتكـسَّر نافوخـي؟ خلِّيـك قـد كلمتـك"، تراجَـعَ أكـثر، خَطَـا عـلي في اتجاهـه وعـلى وجهـه ابتسـامة جَـذلَى، دار السـيد وجـرى مُسرِعًـا تجـاه نهايـة الممَـرِّ، وضحـك عـلي.

المفاتيـح، نـسي المفاتيـح، خرَجَـت منـه صرخـة قصـيرة حـادَّة هَلِعَـة، دار عـلى عقبيـه وجـرى في الاتجـاه العكـسي، حيـث يقـف صاحـب الشـيطان ناقـلًا عينيـه الضاحكتـين بينـه وبـين المفاتيـح المُـدلَّاة. أيهـرب ويـترك المفاتيـح في البـاب؟ بـين يـدي المجنـون؟ أم يعـود وينتزعهـا مُعرِّضًـا نفسـه لخطـر الشـيطان؟ كان خائفًـا مـن صاحـب الشـيطان، لكـنَّ خوفـه مـن مواجهـة المُقـدِّم معتـز دون المفاتيـح المُقدَّسـة كان أعظـمَ.

لكنه لم يجرؤ على لمسه، التصق بالحائط وحاول الانزلاق في الفراغ الضيق بين الشيخ والجدار، على وجهه فزع الكون كله. راقبه الشيخ المجنون مستمتعًا، أخيرًا بلغت الأصابع السمينة المفاتيح، انتزعها. قال علي "بِخ"، فصرخ السيد، جرى مرعوبًا حامِلًا مفاتيحه وصدى الضحكات تتردَّد خلفه.

بينما يعيد المفاتيح إلى المُقدِّم معتز، تذكَّر أنه لم يوصِد مزلاج باب مكتب المأمور. كاد يعترف للمقدِّم بهذه الحقيقة، لكن لسانه انعقد.

طار بصعوبة، استغرق وقتًا طويلًا ليبلغ رَفَّ الحُرَّاس، حيث عليه أن يجلس ليتابع حركة المساجين، بَلَغَه بِشِقِّ الأنفس، وجلس بينهم متعرِّقًا.

ودقَّت الطبول مُعلِنَةً بدءَ الحفل.

16.4

بعد عَزفٍ موسيقيٍّ مُختَصر، ارتقى رئيس لجنة البحث العلمي درجات المَنصَّة، وقف أمام الميكروفونات المصوَّبة نحو فمه مثل فُوَّهات البنادق. استغرق وقتًا لإقناع حباله الصوتية بالحركة، بعد أن شُلَّت لمرأى الحضور أمامه على الكراسي الفاخرة، ذوي الوجوه التي لا يراها مَن هم مثله إلا على صفحات الجرائد الأولى وعلى شاشات التليفزيون. شعر برغبة في الهروب، حاول تذكُّر تمرينات مخاطبة الجماهير التي كان

يُدرِّسـها في الأعـوام السـابقة، ولم يذكـر أيًّـا منهـا؛ اكتفـى بالهمـس عـدَّةَ مـرَّات "أنـا رائـع، أنـا رائـع، أنـا رائـع". لمـح السـيد سـليمان يشـير إليـه بطـرف خفـيٍّ أن يـسرع، وإلا... فَـكَّ الخـوفُ عُقـدَةَ لسـانه.

بعـد شُـكر الحضـور واللـواء المنتـصر، بـدأ كبـير العلـماء في الحديـث عـن العوامـل المؤثِّـرة في الطـيران، ونصائـح اللجنـة مـن أجـل طـيران أفضـل. أوَّل العوامـل كان الطعـام؛ فقـد أثبتـت تجـاربُ اللجنـة أن تنـاوُلَ الخـضروات، وخصوصًـا البقدونـس، يُحسِّـن مـن قـدرة الفـرد عـلى الطـيران الأفقـي بسرعـة، أمَّـا اللحـوم والدهـون، فتعيقـه. همـس اللـواء المنتـصر في أذن سـولي "الجـدع ده حيطوَّل؟"، "لا يـا افنـدم حينجـز"، "يـا ريـت؛ عايزيـن نشـوف العـرض!"، "ماتقلقـش يـا افنـدم؛ حتشـوف أحـلى عـرض ممكـن".

العامـل الرابـع والأخـير كان الألـوان؛ فالألـوان السـاخنة تسـاعد مَـن يرتديهـا عـلى الطـيران الـرأسي، أمَّـا الألـوان الباهتـة، فتَلصِـقُ مُرتَديهـا بـالأرض؛ فـلا يرتفـع إلا قليـلًا.

بينـما كان الجميـع ينصـت إلى صـوت العِلـم، بمشـاعر تـتراوَحُ بـين الانبهـار والسـخرية والمَلَـل والتَّرقُّـب، كان الحـارس عـلى مدخـل مبنـى السـجن الرئيـسي ينصـت إلى شـجارٍ أُحـادِيٍّ الجانـب، مثلـما تَسـمَعُ أحدَهـم يتشـاجر عـبر الهاتـف ولا تسـمع الطـرف الآخـر. الفـارق هنـا أنـه لم يكـن هنـاك هواتـف، وإنمـا الشـجار كان بـين الشـيخ عـلي، الحبيـس في المبنـى، وشـيطانه. لم يفهـم الحـارس حرفًـا مـمَّا سـمع، لكنـه دعـا الله أن ينـصر الشـيخ عـلى الشـيطان.

لحُسْنِ حَظِّه أنه سمع الشجار فقط، ولم يَشهَدْه. فلو رأى الشيخ يحاول إسقاط الشيطان غير المرئي من على كتفيه، بوجهٍ مُحْمَرً من فرط اختناقه بفخِذَي الشيطان المعقودَتَيْن حول عنقه؛ لفقد عقله أيضًا. لم يجد علي بُدًّا من أن يلقي بنفسه على الأرض ليتخلَّص من قَيْد الشيطان؛ فوقع كلاهما، تدحرجا طويلًا متبادِلَيْن اللكمات في المَمرِّ أمام مكتب المأمور. ثم جلجل صوتُ كبير العلماء عبر السماعات مُعلِنًا أخيرًا سِرَّ إصابة السكندريين دونَ غيرهم بِعِلَّة الطيران. غلبهما الفضول؛ فتوقَّفا عن العراك، وأَنْصَتَا.

"أثبت عِلمُ الفَلَكِ الحديث أن الأشعة الكونية الهابطة على كوكب الأرض تهبط في شكل مخروطٍ مقلوب، رأسه في الإسكندرية؛ لذا تتعرَّض البنية الحيوية للسكندريين لجَرعَةٍ مكثَّفة خالصة من الأشعَّة الكونية منذ عشرات القرون. أَضِفْ هذا إلى المُوصِّليَّة الكهربية العالية لأجساد أهل المدينة، نتيجة تَنفُّسهم هواء البحر المُشبَع بالملح، ونسبة الفوسفور المرتفعة في أجسادهم نتيجة اعتمادهم بشكل رئيس على الطعام البحري؛ نجد أن البنية الجينية للمواطن السكندري تبدَّلَت تَبَدُّلًا جَذريًّا عن تلك الموجودة في الإنسان العادي، مانِحَةً السكندريِّين قُدرَةً استثنائية على الطيران".

في نفس الوقت الذي التهبت فيه أيدي اللواء أشرف والحضور بالتصفيق لِلَّجنة العلمية، كان المهندس والشيطان غارِقَيْن في نوبة ضحك هيستريَّةٍ، حتى لم يَعُد أيُّهما قادرًا على التنفُّس. وعندما هبط كبير العلماء عن المنصة راضيًا عن نفسه، وأسرع

بعض الجنود لِدَفْعِ المنصّة بعيدًا، كان علي وشيطانه قد توقّفا عن الضحك، وعن الشجار، وجَلَسَا مُتجاوِرَيْن بجوار مكتب المأمور، بظَهْرَيْن مُستَنِدَيْن إلى الحائط، وعيونٍ مُغلَقَة.

"ليه بس كده يا صديقي! ليه كل ما اتعوِّد على سجن تكتِّفني في سجن أضيق؟ إنت عقل باطن مش جدع على فكرة"، ابتسم الشيطان، أومأ برأسه مبتسمًا متقبِّلًا الإساءة بالحسنى. "أنا أعرف المجانين ياكلوا رُز بلبن مع الملايكة، يناموا مع مادونّا، يحاربوا ساورون في لورد أوف زا رينجز... إنما أبقى محبوس في المستشفى، ومحبوس جوّه عقلي، ومحبوس في سجن جوّه عقلي، ومحبوس في مبنى جوّه سجن جوّه عقلي؟ ليه بس؟ أعيش طول عمري في سجن أبويا وشُغلي ومراتي، ولمَّا أتجنِّن أتحِبْس في لاوعيي؟"، "عشان انت فاشل". طوَّح علي ذراعه في لَكمَةٍ مُتخاذِلَةٍ تفاداها الشيطان، "بس بقى، بطَّل الكلمة الوسخة دي، مش كل شوية تخلّيني أتخانق معاك. يا جَدَع راعي إن ماعدش ليَّا حد أكلِّمه غيرك". لم يرد الشيطان، وإن بدا على وجهه التأثُّر. "مفيش مَخرَج من المتاهة دي؟ مورفيوس مش حييجي بالكبسولتين الزّرقا والحمرا؟"، ضحك الشيطان. ومن السمّاعات جاء صوت الموسيقى بلحن النشيد الوطني المألوف، "أمّا نشوف العرض اللي انت حابِسني عشانه عامل ازّاي، يا رب يكون مِستاهِل". نظر حوله باحثًا عن نافذة تُطِلُّ على الساحة، كانت نوافِذُ الرُّواق كلها عاليةً، بعيدة عن مُتناوَل يده. وعينيه.

وبينما يبحث عن مَنفَذٍ للرؤية، خرج من قلب مستطيل السجناء في الملعب، مُدرِّس الألعاب الذي يعرفه الجميعُ كأوَّلِ من طار. ارتفع محاوِلًا الطيران لأعلى في خطٍّ مستقيم، لكن طيرانه جاء مرتبكًا كذُبابَةٍ تلقَّت ضربةً غيرَ مُميتَةٍ من مضربٍ بلاستيكي. حاول جاهِدًا الوصولَ إلى الرايات الحمراء المُثبَّتة عند أرفف الحراس على ارتفاع سبعين مترًا. بعد بلوغه نحو الأربعين بِشِقِّ الأنفس، اكتفى بهذا الارتفاع، وثَبُتَ في الهواء. وبحركة استعراضية خلع معطفه الأسود وارتداه بالمقلوب على الجانب أصفر اللون، فَرَدَ ذِراعَيْه ونظر إلى السماء، في وضعٍ ذكَّر اللواء المنتصر بتمثال المسيح الشهير الذي يراه على مُلصَقات ريو دي جانيرو الدعائيَّة، وقرَّر أن الوقت ربما قد حان لزيارتها في إجازته المقبلة. مع تصاعُد إيقاع الموسيقى أشار إسماعيل إلى رفاقه على الأرض؛ فانطلق أغلبهم طائرين ليلحقوا به، بطيران لا يَقِلُّ ارتباكًا عن طيرانه قبل قليل، وكأنهم يطيرون لأول مرة. لم يستَطِع بعضهم الطيران من أول محاولة، واحتاجوا إلى المحاولة عدَّة مرَّاتٍ قبل التَّغلُّب على الجاذبية التي بَدَت وكأنها تحاول استعادةَ ما هو لها. منهم مَن وقع بعد ارتفاعه لعدة أمتار، لتأتي ضربات عِصيِّ الحُرَّاس لتحثَّه على القفز من جديد. وأخيرًا، بعد دقائق طويلة، التحق غالبية المساجين بمدرس الألعاب في الأعلى، مُشكِّلين مستطيلًا واسعًا مُظلِمًا اختفت خلفه الشمس كخسوف صغير. أمَّا مَن بقوا على الأرض، كبار السن والمرضى غير القادرين على الطيران، شكَّلوا بأجسادهم وردةً صغيرة بثلاث بتلات، في مركزها استقرَّت أمُّ رضوى ومدام شاهندة، تنظران إلى

الطائريـن فوقهـم بقلـوبٍ تتذكَّـر أحـداث آخـر مـرَّة شَـهِدَت فيهـا حالـة طـيران جماعـي.

وعندمـا أضـاء أحدُهـم الكشـافات القويـة عـلى الأرض، كشـف الضـوء تفاصيـل سـحابة المسـاجين المسـتطيلة، وقـد بَـدَّل ثُلُثاهـم ألـوانَ معاطفهـم مـن الأسـود إلى الأحمـر والأبيـض، وقليـل منهـم في المنتصـف إلى الأصفـر. وصفَّـق الحـاضرون والمشـاهدون في البيـوت؛ لرؤيـة علـم الوطن يُرَفرِفُ في السـماء بأجسـاد المسـاجين، وموسـيقى النشـيد تلعـب في الخلفيـة.

زاده صـوت التصفيـق غيظًـا، كيـف تُقـام العـروض في خيالـه دون أن ينـال حتـى فرصـة للمشـاهدة؟ أدار مقبـض بـاب مكتـب المأمـور، ولدهشـته انفتـح البـاب، ضحـك، "صـح كـده، لـكل متاهـة مَخـرَج، الواحـد بـس محتـاج يـدوَّر كويِّـس". اتجـه فـورًا إلى النافذة، رأى سِربَ الجـراد الوطنـي يرسـم في السـماء فراشـاتٍ وورودًا بألـوان العلـم. "هـو أنـا دخلـت لاوعـي إبراهيـم سِـعدَة بالغلـط؟". أرغـم نفسـه عـلى المشـاهدة لدقائـق، ثـم لعـن خيالـه الجـافَّ وهلاوِسَـه المُقرِفَـة، ابتعـد عـن النافـذة، فلـم يشـهد سـقوط أول المسـاجين من السـرب في أثنـاء محاولـة رسـم طيَّـارة بألـوان العلـم، وتحطُّـم رأسـه، ليجـري الحُـرَّاسُ بسرعـة ويحملـوا جُثَّتـه بعيـدًا. التـزم الحُـرَّاس الصمـتَ حَـذَرًا، والتزمـه المسـاجين خوفًـا، والتزمـه الحضـور لِظَنِّهـم أن مـا حـدث جـزءٌ مـن العـرض، وكأنَّ مَـن وقـع قنبلـة ألقتهـا الطائـرة عـلى مدينـة، والتزمـه المشـاهدون في البيـوت لأن الحادثـة لم تنقلهـا الكامـيرات، ومـضى العـرضُ قُدُمًـا. لكـن الحادثـة لم تَكُـن إلَّا أَوَّلَ الغَيـثِ.

مَرَّ علي على النياشين والأثاث والسجَّاد، ولم يُثِر أيٌّ منهم اهتمامه، شيء آخر فعل: لوحة التَّحكُّم في ركن الغرفة. يعرف هذه الأشياء جيدًا، درسهم في عصور ما قبل التاريخ مرارًا، وركَّبَهم بنفسه تكرارًا. لكن ماذا يفعل مُتحكِّم PLC في مكتب مأمور السجن؟ اقترب منه، تحسَّس الأزرار الحمراء بباطن كَفِّه، مَلمَسُها الخَشِنُ أعاد إليه ذكرياتٍ بعيدةً حَسِبها ماتت، ثم أضاء المصباحُ الافتراضيُّ فوق رأسه.

هرول تجاه النافذة، نظر عاليًا دون أن يلقي بالًا لسحابة الطائرين المرتبكة التي لم يَعُدْ أصحابها قادرين على التحكُّم بطيرانهم ورسم الدَّبَّابات والطَّيَّارات الوطنية، دون أن يكترث بالمتساقِطين واحدًا تلو الآخر كسُكَّان خليَّة نحلٍ غزاها الدُّخَانُ، لم يَرَ إلَّا المُحرِّكات الأربعة في أركان السقف.

ضحك علي، وضحك الشيطان.

16.5

أخيرًا أدرك الحضورُ أنَّ ثمَّة أمرًا ما خطأ، ولما انتشر اللغط بينهم، قال اللواء أشرف لمساعده: "إيه اللي بيحصل يا سليمان؟"، "كلُّه حيبقى تمام يا افندم، ماتقلقش، أنا حتأكِّد بنفسي"، وسأل سليمانُ المأمورَ: "إيه إللي بيحصل يا سيادة العقيد؟"، لِيمرِّر العقيد السؤالَ لنائبه: "إيه اللي بيحصل يا معتز؟"، فسأله مُعتَز لجهاز اللاسلكي: "إيه إللي بيحصل عندك

يـا خـرا؟". سـمع السـيد السـؤال، لكنـه لم يَقـدِرْ عـلى الوصـول إلى جهـاز اللاسـلكي في حزامـه؛ فقـد كان ومرؤوسـوه مـن الحـراس، جالِسـين بصعوبـة عـلى الرفـوف العاليـة، مُتشـبِّثين بهـا كَمَـن يتعلَّق بلـوحٍ خشـبي في قلـب المحيـط، يشـعرون للمـرة الأولى منـذ بـدء الطـيران برهـاب المرتفعـات، ويحدِّقـون في الأرض مثـل هُـوَّةٍ عميقـة ومخيفـة تناديهـم.

أمـا المسـاجين في الهـواء، فكانـوا مُنهَكـين، مثـل زمـرة مـن السـبَّاحين عـبروا نصـفَ المحيـط ونَضَبَـت طاقتهـم، ولا سـبيل إلى العـودة ولا المُضِيِّ قُدُمًا؛ تملَّـك الثِّقَـلُ منهـم، وعرفـوا جميعًـا أنهـم للـتُّراب عائـدون، لا منـاص! لكـن بقـدر الثقـل كان الخـوف. سَرَى الهَمْـسُ بينهـم عـن أن وقـوع الواحـد منهـم رغـمًا عنـه خـيرٌ لـه مـن نزولـه بإرادتـه؛ ففـي الحالـة الأولى ربمـا يكـون سـعيد الحـظ وتتحطَّـم عظامـه فقـط ليبقـى عـلى قيـد الحيـاة، أمَّـا في الثانيـة، فسـيراه المأمـور مُتمـرِّدًا عاصيًـا للأوامـر، وسـيجعله يتمنَّـى المـوت ولا يطالـه.

وقـع أحـد الطَّائريـن بجـوار السـيِّدَتَيْن في المركـز؛ صرخـت شـاهندة مـع صـوت تَحطُّـم العظـام العـالي، أمَّـا أم رضـوى، فظـلَّ وجههـا جامـدًا كقنـاع، لكنـه لم يمنعهـا مـن تلقِّـي شـاهندة في حضنهـا.

ثم انطلق هدير المُحرِّكات، وانشقَّت السماء كبحر موسى.

في الآن ذاتـه، دارت رؤوس المأمـورَ ونائبـه وقائـد الحـرس ناحيـة نافـذة مكتـب المأمـور، لـيروا عـبر زجاجهـا المُضـاد للرصـاص والقنابل والنوايـا السَّـيِّئة الشـيخَ عـلي يضحـك ويتقافَـز فَرَحًـا.

ربمـا لم يكـن إسـماعيل (جرَّايـة/ طيَّـارة/ صنايـع) أوَّلَ مَـن طـار، ولكنـه كان -وبـكلِّ تأكيـدٍ- أوَّلَ مَـن هـرب. دون أن يفكِّـر ولـو لثانيـة، طـار باتجـاه السـقف البعيـد المفتـوح، كبعوضَـةٍ تتفـادَى لسـان ضفـدع جائـع، بسرعـة وبسـاطة وخِفَّـة افتقدهـا الطائـرون في الشـهور الماضيـة، طـار مثلـما طـار النـاس أوَّلَ أيَّـامِ الطـيران. ولمَّـا تَجـاوَز سـماء القفـص إلى سـماء العـالم، تنفَّـس هـواءً نقيًّـا، وتذكَّـر تلـك الليلـة البعيـدة عندمـا كان يجلـس عـلى سـطح بيتـه وجـاء الجنـودَ ليأخـذوه، واندهـش عندمـا أدرك أن تلـك هـي المـرة الأولى التـي يتذكَّـر فيهـا تلـك اللحظـة.

راقـب المسـاجينُ طـيرانَ إسـماعيل بمزيـجٍ مُعقَّـدٍ مـن المشـاعر: لم يفهمـوا كيـف تغلَّـب عـلى الثِّقَـل وطـار بهـذه الخِفَّـة، وعرفـوا أن انفتـاح السـقف ليـس في الغالـب إلا خطـأً غـير مقصـود، وفي الغالـب مؤقَّـت. وانقسـموا -دون اتفـاق مُسـبَقٍ- إلى ثـلاث مجموعـات: الأولى ارتـأت أن تتبـع خطـى إسـماعيل الهـارب، وعندمـا طـار أولئـك فعلوهـا بنفـس خِفَّتـه وسرعتـه، والثانيـة آثَـرَت السـلامة، وقـرَّرَت البقـاء لِئَـلَّا تطالهـا العواقـب. أولئـك تمكَّـن منهـم الثقـل فـورًا، ووقعـوا كقوالِـبِ الطُّـوب. أمَّـا المجموعـة الثالثـة، فكانـت مجموعـة المُتردِّديـن الذيـن لم يحسـموا قرارهـم بعـد، أولئـك ظَلُّـوا مُعلَّقـين حيـث هـم، فـلا الثِّقَـل زال عنهـم؛ فطـاروا، ولا هـو تمكَّـن منهـم؛ فَوَقَعـوا.

قال اللواء المنتصر: "الحقوهم، اقبضوا عليهم، اقفلوا السقف، اضربوا نار"، مؤذِنًا ببدء معركة جديدة من معاركه التي لا يخرج منها إلّا منتصرًا. هرع المأمور مع حارِسَيْن إلى مكتبه، حيث الشيخ والشيطان ولوحة التحكُّم، وهرع نائبه مع بقية الحراس على الأرض للقبض على الهاربين، أو اصطيادهم. أمّا الحُرّاس المُعلَّقون على الأرفف، فكانوا يصرخون هلعًا بعدما سقط منهم بعضُهم فور أن أدركوا أن الطيران تخلّى عنهم بالفعل، وتركهم مُعلَّقين على سقّالات معدنية على ارتفاع سبعين مترًا. الحارس بجوار السيد أصيب بالدوار، تشبَّث به، دفعه السيد عنه، انزلق ووقع، ورقص الرَّفُّ المُعلَّقُ كأرجوحة، ووقع آخَرُ ثم آخَرُ، تمسَّك السيد بالكابل الحديدي الذي يحمل الرَّفَّ ويتدلَّى من السقف، وعندما نظر بجواره وجد نفسه وقد صار الأخيرَ.

عندما اقتحم المأمورُ ورجالُه مَكتبَه، وجد الشيخ علي يتابع من النافذة خروجَ سِربِ الفراشات المُلوَّنة من السقف المفتوح بابتسامة واسعة. ذراعه اليمنى تتدلَّى بجواره في قبضة مُحكَمة، واليسرى مفرودة أفقيًّا في الهواء كمن يضع ذراعه على كتف صديق حميم، باستثناء أنَّ الذراع كانت مُعلَّقَةً في الفراغ. "عملت إيه يا ابن المجنونة؟"، استدار علي بهدوء، "لكلِّ مَتاهَة مَخرَج، الواحد بس محتاج يدوَّر كويِّس". صرخ المأمور "اضربوه بالنار"، أخرج الحارسان سلاحيهما، صوَّباهما ناحية الشيخ علي، لكن أيٌّ منهم لم يطلق؛ مَن ذا الذي يجرؤ على وضع نفسه هدفًا لانتقام شياطين الشيخ ودراويشه؟ أخرج

المأمور مُسدَّسه، أطلق بنفسه رصاصات ثلاث متتابعة على صدر السجين الضاحك. وقع على ظهره، واتَّسعَت حوله بقعة الدم، قال بصوت مُحتضر: "كسرت الماتريكس"، ربَّت الشيطان على جبينه.

وضغط المأمور على الأزرار الأربعة.

كان الحُرَّاس الفاعلون على الأرض قِلَّة، زملاؤهم إمَّا مُعلَّقون على الأرفف وإمَّا ساقطون على الأرض. بالتالي لم يَجِد المُقدِّم مُعتز بُدًّا من التعامل مع الموقف بالرصاص الحي، من دونه سيتكاثر المساجين على حُرَّاسهم وتختلُّ الموازين، ومع انطلاق الرصاص، تخلَّى العالقون في الأعراف عن تَرَدُّدِهم وتَبِعوا الهاربين، وتَبِعَتهم طلقاتُ الرصاص.

دخلَت شاهندة في نوبة هلع بينما تتساقط حولها ورفيقتها الأجسادُ كالمطر، أخذت تحاول جذبَ أُمّ رضوى ليبتعدا عن مرمى سقوط الجثث والرصاص، لكن أم رضوى ظلَّت مُلتَصِقَةً بالأرض، تنظر إلى الخَواءِ وتهتزُّ في رَتابَةٍ، وتُردِّد بصوتٍ لا يسمعه غير شاهندة: "حموت مُوتِة بنتي، حموت موتة بنتي". وبعدما يَئِسَت شاهندة من إقناعها رَسَمَت على جسدها الصليب، واحتضنتها وجلست بجوارها. ولسببٍ ما ظَلَّت الجُثَثُ ترسم حولهم دائرةً، وكأنما هناك سقفٌ خَفِيٌّ يحميهم.

قفز السيد بعدما أدرك أن التشبُّث بالرَّفِّ ليس إلَّا تأجيلًا للمحتوم، ليتعلَّق بواحدٍ من الهاربين، وجاء نصيبه في حارس مرمى أبو قير للأسمدة الثالث، السابق. وجد الفتى نفسَه

تحت حِمل الحارس الثقيل، حاول دفعه، "ابعد عني"، لكن السيد تشبَّث فيه كالجاثوم، صرخ في أذنه "انزل بينا تحت". حاول مُصارَعَته، لكنَّه كان أثقلَ من حاكِمٍ ظالم، وأخذ يهبط به مُرغَمًا. لمح السيِّد قائِدَه على الأرض، ناداه "معتز بيه، معتز بيه"، كان معتز مَشغولًا بشحذ مهاراته في التصويب على الهاربين، عندما سمع نداء السيد ورآه يقترب من الأرض، هرع إلى النقطة التي توقَّع أن يهبطا فيها، وكانت تلك النقطة بالضَّبط بجوار أم رضوى. "وسَّعي يا مَرَة من هنا"، وركلها لتتحرك، نظرت إليه بعينين خاويتَيْن، ولم تفعل؛ تشبَّثَت بها شاهندة أكثر. لم يَأبَه لها أكثر من ذلك، واستعدَّ لملاقاة السيد والسجين الهارب.

ضغط المأمور على الأزرار الحمراء مرَّاتٍ لا حصر لها، دون استجابة من المُحرِّكات. صرخ، لكَمَ الحوائِطَ، خاف منه الحُرَّاس، لكن المُحرِّكات لم تَخَفْ ولم تعمل. انحنى على الجُثَّة المبتسمة، صفع صاحبها على وجهه، "انت هبِّبت إيه؟"، لم تُجِبه الجُثَّة، لاحظ قبضتها اليمنى المضمومة، فكَّها، وجد قطعة صغيرة من السلك الأحمر مستقرَّة في راحة يده. عاد بسرعة ليتفحَّص لوحة المتحكِم، لاحظ أن في قاعدتها، حيث تدخل كابلات التحكُّم والطاقة، فتحة صغيرة. عاد إلى الجُثَّة وأخذ يركلها، وهرب الحُرَّاسُ من المكتب.

كان محمد محمد يقترب من الأرض، عندما هبط أحد المساجين من السماء في معطفٍ أصفرَ، بدا في البداية واحدًا من الساقطين، لكن بعدما وقف في الهواء بالضَّبط فوق محمد

والسيد، عرفه الجميع: إسماعيل الهارب، وقد عاد لإنقاذ صديقه. التقطَ كَفَّ محمد الممدودة، وبسرعة أخذ يسحبه ويطير به إلى الأعلى. صرخ السيد "معتز بيه، الحقني يا معتز بيه"، دون تفكير صوَّب معتز سلاحه وأطلق رصاصتين، واحدة ضاعت في الهواء، والأخرى أخطأت محمد وأصابت السيد في صدره. شهق السيد، وقع عن ظهر حارس المرمى السابق، طار محمد وإسماعيل أسرع من الطلقات التي طاردتهما، ووقعت جُثَّة السيد على المقدم معتز.

تدحرج المسدس أمام أم رضوى، ركَلَته بحركة غريزية بعيدًا. ثم نظرت إلى حيث يقبع المقدم معتز تحت جثَّة البَصَّاص القديم. حاول دَفعَ الجُثَّة عنه ثم صرخ ألمًا، خَمَّنت السيدة أن بعضًا من أطرافه أو كلها قد كُسِرَت. نظر إليها مستغيثًا "الحقيني". نهَضَت أم رضوى، اقتربت منه، انحنت عليه ونظرت في عينيه مباشرة، "الحقيني"، اعتدلت، أمسَكَت طرف جُثَّةٍ أخرى بجواره، حاوَلَت سَحْبَها من ذراعها، فلم تقدر، نظرت إلى رفيقتها المنكَمِشَة المرتجفة، تخلَّت تلك عن رَوعِها مؤقتًا، نهضت وأمسكت اليد الثانية للجثَّة ذاتها، تعاوَنَتا على سحبها، "الحقوني"، نداؤه كان عاليًا هذه المرة، نظَرَت السيدتان حولهما وَجِلَتَيْن، لكن مَن يسمع صرخات الاستغاثة في معمعة القتال؟ تابَعَتا جَرَّ الجُثَّة، وجَعَلَتاها فوق رأس معتز. لم يَعُد يُسمَع من استغاثاته إلَّا هَمهَمَة. اتَّجهَت السيدتان في حركة ميكانيكية للتعاوُن على سحب جُثَّةٍ أخرى، لكن السماء كانت كريمة معهما، ووقعت ثلاث جُثَث متتالية فوق المُقدِّم. جلسن

حيث كنَّ قبل قليل، وأخذن يراقبن الكومة تهتزُّ لدقائق أخرى، حتى سَكَنَت. عندها، نهضت السيدتان بأيدٍ متشابكة، ومشين الهوينى إلى عنابر السيدات.

لم ينته الهرج على الأرض، أمَّا في السماء، فانتهى. مَن هرب هرب، ومَن سقط سقط، ولم تَبْقَ إلَّا جُثَّة هاربٍ نالَت منه الطلقات قبل خروجه، تلعب بها الريح كريشَةِ طائرٍ تنتقل بهدوء من مكان إلى آخر، تارِكَةً خلفَها خيطًا من الدماء.

16.6

نقلت الكاميرات كُلَّ شيء، وحذَّر أهل الشاشات المشاهدين من النوارس الهاربين.

وقال عمرو الشربيني: "راجعين على اسكندرية يحرقوها".

16.7

انسلَّ محمد لغرفته القديمة عبر النافذة، قبل منتصف الليل بقليل. بعد يومٍ قضاه محلِّقًا برفقة صديقه مدرس الألعاب السابق.

رغم أنهما كانا لا يتوقَّفان عن تبادُل الحديث إلّا عندما يأمرهما الحُرَّاس في القفص، فإن أيًّا منهما لم يهتم بالكلام بعد الهروب. ما الحاجة للكلام إذا كنتَ في سلام؟

كانت تلك أطيبَ لحظاتِ الطيران منذ بدايته؛ لم يُنغِّصها حتى القلق بشأن ما يعرفان أنه بانتظارهما على الأرض. لحظته المفضلة كانت عندما عَبَرَا بجوار سِربٍ من النوارس، النوارس الحقيقية، ابتسما وألقَيَا عليها التحية، ونَعَقَت النوارس بما أيقن محمد أنه كان ردًّا عليها. طارا دون اتِّفاقٍ صَوبَ قلب المدينة، وعندما اقترب محمد من بيته طار في اتجاهه، حينها تبادَلَا كلماتهما الوحيدة خارج القفص.

"رايح البيت؟"، "آه"، "إنت عارف إنهم أكيد مستنيينك؟"، "حروح فين تاني؟ أهو على الأقل أسلِّم على أبويا وأختي"، "عبيط"، و"انت رايح فين؟"، "لأمي طبعًا".

ضحكة ثم مصافحة ثم عناق، ثم افترقا.

لم تجرؤ عزة على مواجهة أخيها بنفسها، حَبَسَت نفسها في غرفة والدها الراحل، وتَرَكَت زوجها وجارَهم ورفقة من رجال الحي الشرفاء يستقبلون الفتى.

قيَّدوه، اصطحبوه في سيارة أجرة لم يَرضَ سائِقُها أن يتقاضى منهم أجرًا رغم طول مسافة العودة إلى القفص. استغرَقَت الرحلة وقتًا أطول من المُتوقَّع؛ نظرًا إلى ازدحام الطريق بالسيارات التي لا تختلف حُمولَتُها كثيرًا عن حمولة سيارة محمد وأهله.

خاتمة

قِيلَ عَمَّا فَعَلَه أهالي الإسكندرية في ذلك اليوم إنه لا يَقِلُّ بُطولةً عن تصدِّي أهل بورسعيد للعُدوان الثُّلاثيِّ قبل نصف قرن!

وعَلَّق اللواء المنتصر قائلًا: "دلوقت نقدر نقول إن اسكندرية في أمان. الوعي والإيمان عند الأهالي بلغ أسمى درجاته، ماعادش يتخاف عليهم لا من نوارس ولا من صقور".

وأُعلِنَ السابع والعشرون من سبتمبر عيدًا قوميًّا جديدًا للإسكندرية.

وفي قرار جريء، قُلِّصَ حظر الطيران ليصير فعَّالًا بعد غروب الشمس فقط. أمَّا في النهار، فيُسمَح للمواطنين بالطَّيران في إطار قانون الطيران المحدود القديم.

انتـشرَت الدعـوة بـين النـاس للخـروج في مُظاهَـرَةِ شُـكرٍ واحتفال في ميـدان محطـة الرمـل غـدًا، يطـير فيهـا المواطنـون الشُّرَفـاء في أمـانٍ، تحـت رعايـة الحكومـة.

وفي اليوم التالي، لم يَطِرْ أحدٌ.

شكر وعرفان

كانت هناك لحظات -بلا شَك- وَدِدنا فيها ضَربَ بَعضِنا بالكراسي، لكن في النهاية تجربة تحرير الرواية مع الكاتب الرائع أحمد عوني كانت مُثمِرَةً فعلًا، ووَصَلَت بهذه الرواية إلى مكانٍ أفضل بكثير ممَّا توقَّعتُ، خالص الشكر لك يا أحمد (إلَّا في حالِة لو لَمْ تُعجِبْكم، ساعَتَها سنُلقي باللوم كاملًا عليه بالطبع). والشُّكر إلى أخي وصديقي الكاتب محمد عبد القَهَّار؛ كُنتَ هناك منذ البداية، وستظلُّ دومًا. كامل الحب والامتنان لأمِّي وأبي وأصدقائي، الذين يتحمَّلون نوبات تَقَلُّب مزاجي وسَماجَتي وقِلَّة وجودي، وإلى حبيبة، أعظم أخت حَظِي بها إنسانٌ في الكون.

والشكر طبعًا، طبعًا، إلى ريندا.

نبذة عن المؤلف

محمد أ. جمال

(يهدف حرف الألف والنقطة لتمييز الاسم عن آلاف الـ"محمد جمال" الآخرين، وتَجنُّبِ كتابة الاسم الكامل "محمد أحمد جمال" الذي يزيد المُؤلِّفَ رَتابَةً؛ فيُصيب قارئًا مُحتَمَلًا بالمَلَل قبل -حتَّى- فتح الغلاف).

روائيٌّ، ومترجم سَكندَريٌّ، من مواليد عام الزِّلزال، 1992، صدرت له رواية "كتاب خيبة الأمل"، الحائزة على جائزة أخبار الأدب الأولى عام 2017، وعدة ترجمات من الإنجليزية، من بينها ترجمة كتاب "جوزيف كامبل- البطل بألف وجه".

يُجيدُ صُنعَ القَهوَة، وركوبَ الدَّرَّاجات الهَوائيَّة، والمُماطَلَة.
ولا يجيد ارتداءَ ربطاتِ العُنُق.

ذاتَ يَومٍ، صارَ لَدَى السَّكَندَرِيِّين قُدرَةٌ على الطَّيران، فقط داخِلَ مَدينَتِهم، فلا يَقْدِر أَيُّهُم على الطيران خارِجَها، ولا يقدر غَيرُهم على الطَّيران فيها، أو خارجها.

لماذا؟ وكيف؟ ومَن هُم عَبَدَةُ النَّورَسِ؟ وهل هُناكَ مَن يُريدُ شَرًّا بهذا الوَطَن؟ وهَل يَرى المُهندِس عَلي الشَّيطانَ فِعلًا؟ وهل كُلُّ ما تَحتاجُه سُندُس "كريم" تفتيحِ بَشرَةٍ، وعريسًا وَسيمًا؟ ما سَبَبُ الطَّيرانِ أَصلًا؟ وفي مَصلَحَةِ مَن؟

كُلُّ هَذِهِ الأسئِلَة، وأكثر، لا تَهتَمُّ هذه الروايَةُ بالإجابَةِ عَنها، وإنَّما يُحاوِلُ مُؤلِّفُها سَرْدَ ما يَذكُرُه مِمَّا وَقَعَ في المَدينَةِ القَديمَة (الَّتي يُحبُّها البعضُ بجنونٍ، ويَكرَهُها آخرون كالطَّاعون) في الأعوامِ المُربِكَة الَّتي تَلَتْ خَريف 2005، عندما طارَ النَّاسُ لأَوَّلِ مَرَّة.

تصميم الغلاف: مخلوف/ ميجو

ISBN 978-977-313-828-8
9 789773 138288

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات